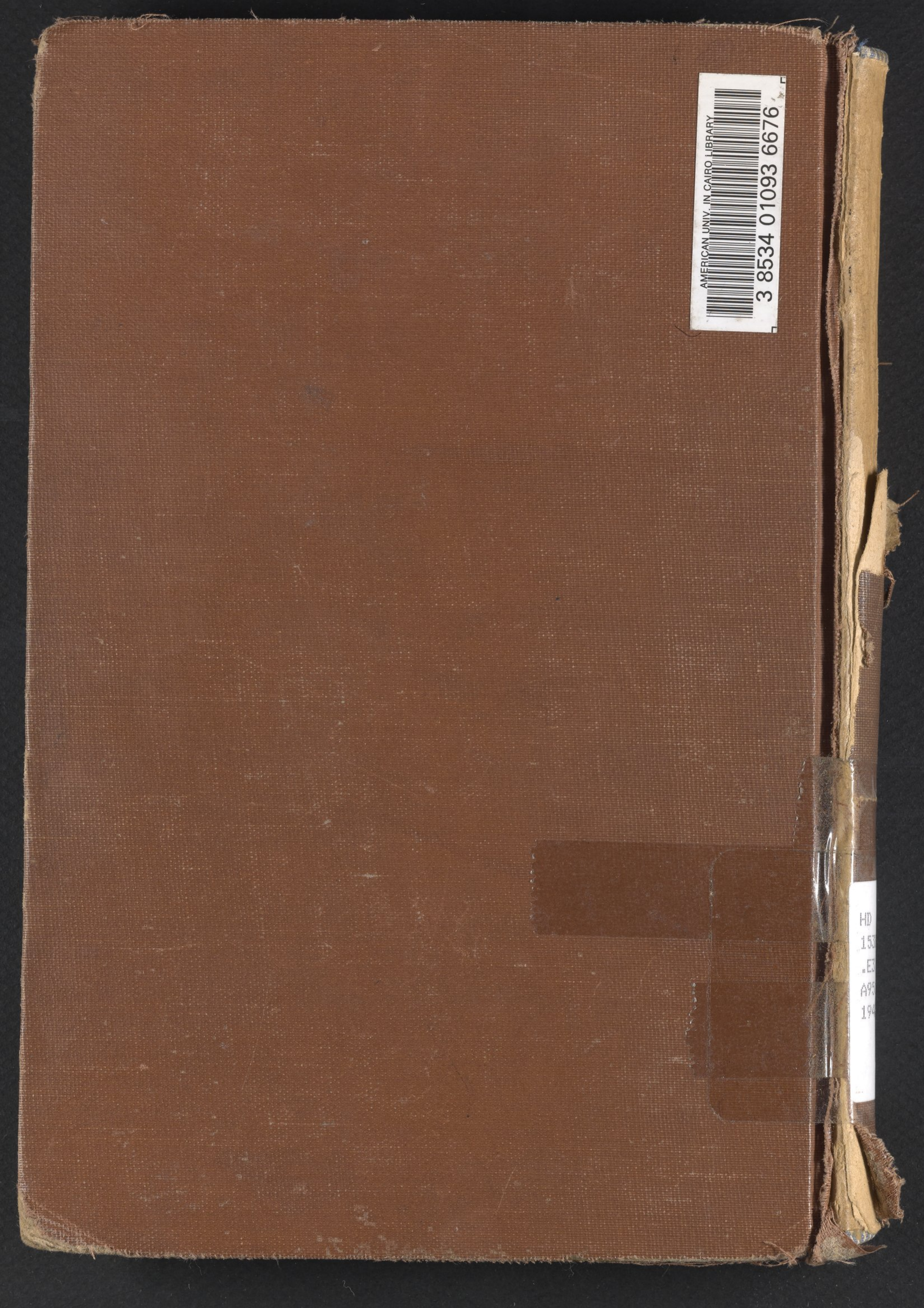
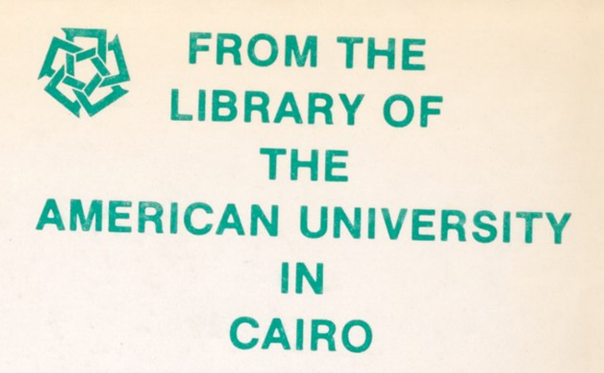
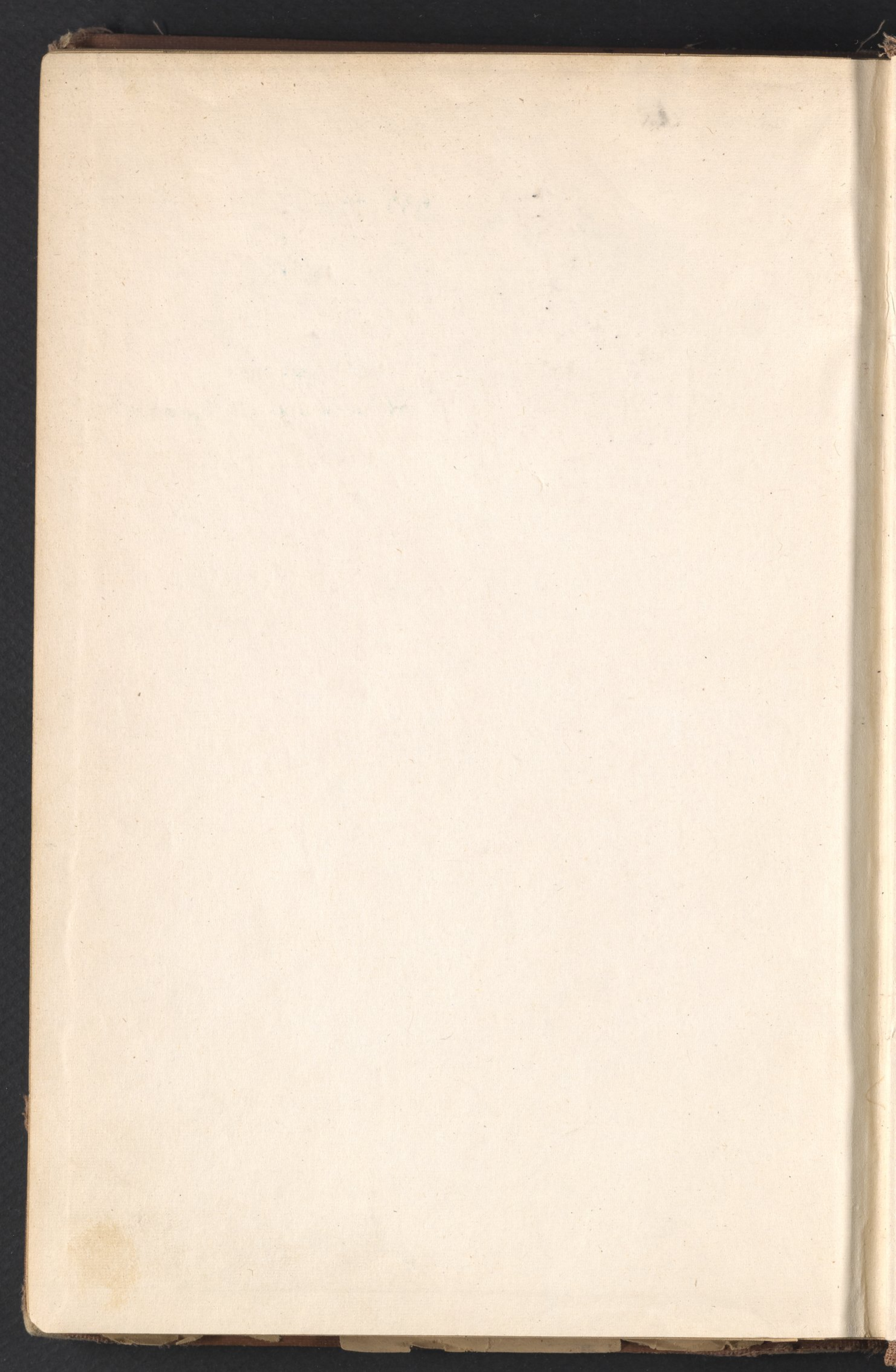
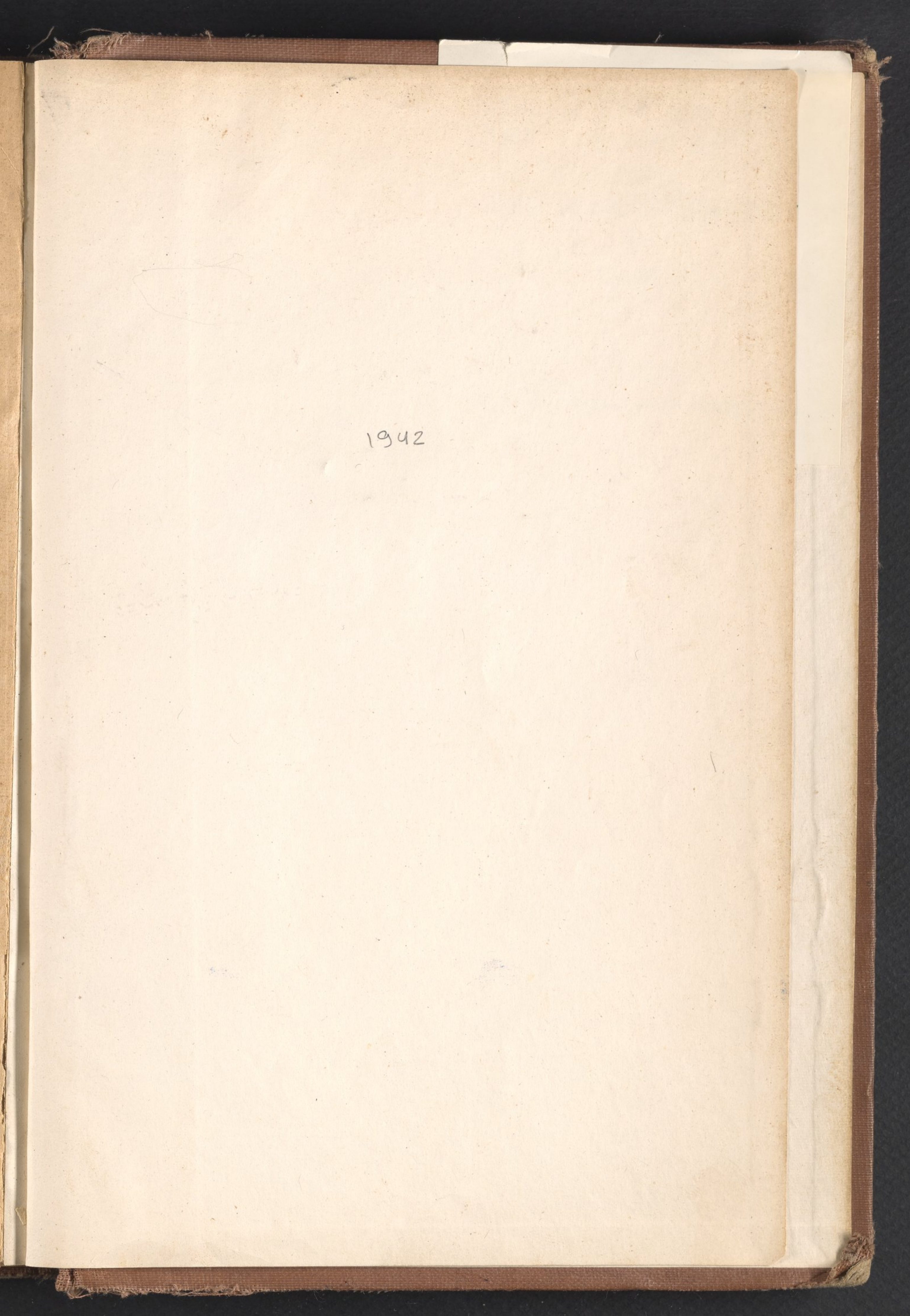



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





1942

# الفلاحون



تأليف

الدكتور الأب عيروط اليسوعي

نقله الى العربية

الدكتور
محمد غلاب

. خريج جامعة ليون
وأستاذ الفلسفة بالجامعة الازهرية

مطبعة كوثر

٢٩ شارع قصر اللؤلؤة بالفجالة ، القاهرة

# تصـــــــــدير

ليس هناك كتاب من بين المؤلفات التى عنينا حتى الآن بترجمتها من منتجات صفوة المؤلفين الأوروبيين بدا لنا عظيم الفائدة ، جليل النفع ، وجلب الى نفسنا كثيراً من اللذة العقلية على النحو الذى أحسسنا به عند ترجمتنا كتاب « الفلاحون » تأليف الأب المحترم الدكتور هنرى عيروط ، هذا السفر القيم الذى خصصه المؤلف لتصوير تلك الناحية التى كانت لا تزال مجهولة من مصرنا العزيزة وهي حياة الفلاح ، ذلك المخلوق التعس الذى نحن مدينون له ، بعد النيل ، بهذه الحقول الخضراء الخصبة الباسمة التى هى منذ أقدم العصور موضوع افتتان الشعراء ، وإعجاب الكتاب ، وإجلال المؤرخين ، وحسد الأنانيين ، وطمع النهمين .

هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم هو فى طبعته الثانية تحت عنوان جديد ، واذا كان تقديم كتاب سبق نشره بنفس اللغة يخشى أن يكون فيه شيء من العبث أو من الفضول - كما لاحظ ذلك بحق سعادة فؤاد اباظه باشا فى تقديمه - إذ يمكن أن يعيد المقدم الجديد شيئاً من التعليقات المثنية أو التقريظات المطرية التى أفاضتها صحافة أرقى الدول المتحضرة فى الشرق والغرب على هذا السفر الجليل (١) فى استحقاق نبيل كريم ، فان هذه المهمة بالنسبة إلينا - ونحن بازاء نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية - تصير

---

(١) ليس فى هذا شيء من الاسراف ، فقد قرظت هذا الكتاب صحف فرانسا وألمانيا وانجلترا و بلجيكا وسويسرا وايطاليا وأمريكا والبرتغال ومصر ولبنان .

أكثر سهولة ويسراً ما دمنا نحن الذين سنؤدى رسالة الاطلاع عليه إلى مواطنينا وإلى جميع الناطقين بالضاد الذين لا يعرفون اللغات الأجنبية ولا سيما الفرنسية ، وما دام أنه من الخير لهؤلاء جميعاً أن يلموا ولو إلماماً عاجلا بصدى ذلك الاستقبال الحافل والاعجاب الشامل اللذين لقيهما فى البيئات الأدبية هذا السفر الذى لم يرم إلى تثقيف قرائه بما احتواه من معرفة محددة ، ووقائع معينة ، أو إلى فتنتهم بما صيغت فيه معانيه من مبان رائعة وعبارات أخاذة فحسب ، وإنما رمى إلى إنشاء حركة واسعة لضمان العدالة الاجتماعية ، وتحقيق الوطنية الصحيحة ، وبالتالى هو مساهمة فعلية فى بناء نهضتنا الحديثة التى تتوقف عليها عظمة بلادنا الحقيقية التى هى مطمع جميع أنظار المجددين المخلصين من المعاصرين ، وإذاً ، فمما يرفع شأن هذا الكتاب ، ظهوره على مسرح الحياة المصرية فى أشد الأوقات حاجة إليه ، ومعالجته مشكلة إذا وضعها المجتمع الحديث فى الصف الأول من صفوف المشكلات العمرانية ، فانها فى مصر تتشكل فوق ذلك بصورة الضرورة الملحة التى يقى حلها البلاد شراً مستطيراً عاجلا ، تلك هى مشكلة القرويين وكل ما يتفرع عنها من معضلات أساسية تختلف خطورتها باختلاف منزلتها من المشكلة العظمى .

لم تثر مسألة الفلاح فى مصر قبل الآن رغم خطورتها وتعقدها وضرورة سرعة التفكير فيها إلا إثارة سطحية تنم إما عن جهل مثيريها بجوانبها المتباينة ، وإما عن عدم اكتراثهم بنتائجها ، وهى على كل حال تدل على غفلة المصريين عن ناحية من أهم نواحى حياتهم الاجتماعيه ، ولكن لعل الجهل بحالة الفلاح الحقيقية هو منشأ هذا الاهمال البغيض ، إذ منذا الذى يعرف الفلاح أو يأبه لتعاسته من الأجانب بل من المصريين ؟ وإنما قدمنا الأجانب هنا على المصريين ، لأنهم هم الذين مسوا على الأخص هذه المشكلة وإن كان مسهم إياها يشبه مس الزهرة ، لأنهم لا يتحدثون عن الفلاح الا عرضاً فى أحاديثهم عن المسائل الجيوغرافية أو الاقتصادية أو الزراعية ،

ولا يكادون يذكرونه إلا تبعاً للرى أو للبذر أو للتسميد أو للحصاد ، أما ذاته ككائن حى ذى كرامة وعزة فلا نوشك أن نعثر عليها فى مؤلفاتهم . نعم إن الاجانب يعرفون جيداً مصر الفرعونية بآثارها ومعابدها ، ومصر الاسلامية بفنها ومساجدها ، ويعرفون كذلك مصر السائحين بمدنها العظمى ، وفنادقها الكبرى ،ومقاصفها الفاخرة ، ومراقصها الساهرة ، وملاهيها الزاخرة ، ومتنزهاتها الفاتنة ، ونيلها الصافى ، ومناخها المعتدل ، ونسيمها العليل ، وقمرها الزاهى ، ولياليها العذبة ، ولكنهم يجهلون الفلاح جهلا يوشك أن يكون تاماً ، بل هم لايلمحونه - كما يقول المؤلف - إلا من خلال نوافذ القطار أو السيارة مختلطاً بالأرض التى هو مقوس عليها ولا يكاد يظهر من الغراس الذى بين يديه ، وكل ما يظفر به منهم هو إثارة حب الاطلاع فى نفوسهم .

أما المصريون فان صفوتهم المثقفة ، والطبقة المتوسطة في المدن منهم ، وكبار ملاكهم يجهلون الفلاح جهلا مطبقاً يزيد من صفاقته مع الأسف الشديد احتقارهم لهذه الطبقة الريفية الفقيرة إلى حد جهل أو تجاهل كل شىء عنها .

يا للخجل ! أليس ذلك فقداً تاماً للاحساس بالمسئولية بل بالكرامة من جانب هذه الطبقات الثلاث التى تعزو إلى نفسها شرف الادارة والقيادة ؟ ولم لا ؟ ألا يؤلف الفلاح ثلاثةأرباع سكان مصر؟ أو يحسب أولئك الأقلون أنه يكفى لتكوين شعب عظيم أن توجد صفوة ممتازة تتولى إدارة أكثرية عظمى ، هى كما يرسمها لنا الأب عيروط فى هذا الجهل المرهق وتلك التعاسة المادية والأدبية الشاملة ؟ أو ليست هذه الصفوة وتلك الجماهير أبناء وطن واحد ؟ ثم ألا تلحق وصمات الوالد جباه جميع أبنائه على السواء ؟ أولا تلتصق هنات الاخوة بأسماء إخوتهم ؟

فى هذه الساعة التى نتباهى فيها بيقظة عاطفتنا الوطنية ،وبزوغ فجر نهضتنا الأدبية والفنية والعلمية ، فى هذه الساعة التى يتطلع فيها العالم العربى كله إلى مصر كزعيمته

الناطقة بلسانه ، والمعبرة عما يجيش بجنانه من آمال وأحلام ، والتى ينظر فيها العالم المتمدين نحوها مترقبًا نتائج نشاطها فى جميع أفرع الحياة الراقية ، ومفتونًا بجلالة مليكها الشاب الحكيم ، فى هذه الساعة الخطيرة المحملة بكل تلك الأعباء الجسام ، ألا تحس تلك الصفوة بوطأة المسئولية الثقيلة التى تنهال عليها أمام ذلك المنظر الأليم الذى يمثل التعاستين : المادية والأدبية لأكثرية الشعب المصرى ؟

نحن نعلم أنه لم يعد من الممكن دوام هذه الحالة الأسيفة، بل إن أصوات الاحتجاج عليها قد بدأت ترتفع من كل مكان لا سيما فى هذه الآونة الحاضرة التى أخذت فيها فكرة التضامن الاجتماعى بين أعضاء جسم الوطن الواحد تسلك سبيلها إلى عالم النور .

ليس من الغريب أن تنتعش هذه العاطفة النبيلة فى قلب المؤلف المحترم وفى قلوب من هم على شاكلته من المثقفين الممتازين ، لأنهم لم يعدوا فى هذا أن انتهجوا نهج ملوكهم العظماء ، فبالأمس نقل لنا المؤلف عن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول تلك العبارة السامية التى تدل دلالة ناصعة على أنه لم يكن يشاطر كبار رجال حاشيته رأيهم فى إهمال الفلاح والاستهانة به .

واليوم لا يجهل أحد ذلك المجهود العظيم الذى يقوم به حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الاول لا فى العمل على تخفيف ويلات هذه الطبقة التعسة فحسب، لأن هذا أمر طبيعى ، ولكن فى محاولة الوقوف على حقيقة أحوالها الداخلية بنفسه ، لا عن طريق الوسطاء الذين كثيراً ما يحجبون الحقائق عن أرباب السلطان لغايات فى نفوسهم ، فيظل الشر كامناً حيث هو ينخر فى عظام الأمة حتى يأتى عليها .

أما إذا عرفت حقيقته ، واكتشف مقره ، وظهر مأتاه ، فقد أمكن استئصال شأفته، واقتلاع جرثومته وهذا هو الذى سيكون بالفعل فى عهد هذا الملك العظيم المترسم خطى والده الجليل والذى جمع إلى نشاط الشباب الفائق وحماسه الكامل نضوج الكهول

المجربين ، وحكمة الشيوخ المحنكين . أليس فى عهده الميمون قد أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية التى يمكن أن ينتظر الشعب منها فى هذه البرهة الراهنة تحسينات جمة لأحوال الطبقات الدنيا ولا سيما طبقة الفلاحين الذين هم عماد سعادة البلاد ورخائها ؟

قد يدهش القارىء عند ما يرى أننا نقدر من جانب صاحب العرش مجهوده في تعرف دواخل الأمور حق قدره ونقدمه على كل شىء ، ولكنه لا يلبث أن يرى هذا أمراً طبيعياً إذا علم أن المعرفة الصحيحة هى أساس كل خير ونجاح ، وأن الجهل هو منبع كل بلية ، إذ هو مصدر شل حركة الذين لا يعملون ألبتة ، كما أنه مأتى إخفاق الذين يقومون ببعض المجهودات .

ومن دلائل هذه العناية الملكية الكريمة بمشكلة الفلاح أن جلالته قد تفضل فتقبل هذا الكتاب فى طبعته الفرنسية بعطفه السامى وأمر رئيس ديوانه بابلاغ هذا العطف إلى المؤلف .

لهذه الأسباب عينها كان من الضرورى أن ننقل إلى العربية هذا السفر الذى هو - إلى جانب قيمته الأدبية العالية - سيسد تلك الثغرة الشائنة فى حياتنا الاجتماعية ، وهى ثغرة الجهل التى كانت نتائجها شؤماً على الدولة . ولقد عرف كثير من العلماء والكتاب الصحفيين فى أوروبا وفى مصر قيمة هذا الكتاب فأنزلوه منزلته من التجلة والاحترام ، ووصفوه بأنه « كتاب أساسى » أو بأنه « لا غنى لأى مصرى عن مطالعته » أو بأنه « يجب أن يذاع فى كل مكان كالبذرة الطيبة » أو بأن « نتيجته ستكون عظيمة تلفت الأنظار » .

لم يكن من الخير إذاً ، أن يظل هذا السفر — وله كل هذا الشأن - مجهولا فى مصر الا من هذه الصفوة القليلة العدد التى تجيد اللغة الفرنسية إجادة تسمح لها بمعرفة ما فيه من حقائق محددة وصور ناطقة ، ولوحات صادقة ، ومشكلات معقدة ، وحلول موفقة ، وأفكار ثاقبة ، وآراء صائبة .

ولما كنا نشاطر المؤلف آراءه ، فانه يسرنا أن نقدم هذا السفر إلى مواطنينا الأعزاء آملين أن نساهم بهذا العمل فى رسالة التجديد الذى ترمقه مصر بعين شغوفة .

وإذا كان لا بد لنا بعد هذا الوصف العام للكتاب أن نقدمه إلى القراء تقديما أقرب إلى العلم وأدنى إلى التحديد والتعيين ، فانه ينبغى لنا أن نقرر بديا انه سفر نفيس ، لانه ملىء بالأحاسيس المخلصة التى لا ترمى الى التهريج أو إلى الدعاية للذات ، ومفعم بالحماس الصادق المعتدل الذى لا يدعو الى الثورة أو إلى الصيد فى الماء العكر ، وانما يدعو الى تحقيق العدالة الاجتماعية التى بها يستقيم ميزان البلاد ، وأنه يمتاز بالموضوعية على أدق ما تحتمله هذه الكلمة من معان ، فمؤلفه لا يكاد يظهر على المسرح ، وإنما هو يعالج الموضوعات التى يعرض لها معالجة هادئة نزيهة بريئة من التعصب ، وكل ما يبدو عليها من علائم الحياة العملية هو المظهر الانسانى تارة ، والمظهر المصرى تارة أخرى .

ومن تلك الخصائص الذاتية لهذا الكتاب أيضاً أنه معتمد على مستندات مباشرة ، ومصادر أساسية ، ومعلومات يقينية . ولا ريب أن الذى يسر له هذا هو عدة عوامل جوهرية ، منها أن مؤلفه الأب المحترم الدكتور عيروط هو مصرى الجنس والنشأة ، وان رسالته الدينية قد أتاحت له فرصة الاتصال بالفلاح عن قرب ، ومكنته من معرفة كثير من عاداته وتقاليده ، وأخلاقه وميوله ورغباته ، فجمع كل هذه الجوانب ورتبها دون أن يشوهها كما يفعل البعض ، أو يجملها كما يفعل الآخرون ، وإنما رسمها كما ألفاها على حالتها الطبيعية شأن الفنان الأمين .

ولما كنا - ولله الحمد - قد انحدرنا من إحدى الأسر التليدة فى الريف المصرى ، بل الضاربة فى القدم ، فقد اجتمع لدينا عن تقاليد الريفيين وطباعهم وتصرفاتهم من المستندات التحريرية والشفهية ما يحملنا على إقرار ما سجله الأب عيروط راضين مطمئنين . واذا كنا قد أشرنا فى هوامش هذه الترجمة الى بعض الملاحظات ، فانها

ليست الا مفارقات ترجع الى أسس عرضية كالالتباس بين عادات الأسر القبطية والأسر المسلمة ، أو كالاطمئنان الى رواية مشهورة ، ولكنها كلها تتعلق بأمور ثانوية ليست من الموضوع الجوهرى للكتاب فى شىء .

وأخيراً يمتاز هذا السفر كذلك بدقة ملاحظة غذتها الاحاطة بالمشكلات الاجتماعية ، والجيوغرافيا الانسانية ، والخوالج النفسية ، والروح الادبية .

لهذا كان ذلك الكتاب القيم دراسة علمية محددة بأسلوب أدبى أنيق بعيد عن جفاف العلم المسئم ، فهو يصور الفلاح و يرسم إطاره الجيوغرافى والاجتماعى ، وأرومته وتاريخه المفعم بالبأساء ، وحياته الراهنة التى لم تتغير منـذ آلاف السنين ، والتى يحمل وصفهـا الى النفس الالم والرحمـة والاحساس بالمسئولية .

فى هذا الكتاب يعثر المثقف الممتاز على ضالته المنشودة ، لان المؤلف يعالج فيه معضلات عامة تستهوى كل العقول الراجحة حتى الغير المختصة فى تلك النواحى ولا سيما فى هذه البرهة الحاضرة كمعضلات ازدحام السكان ، وهجرة الريفيين الى المدن ، ووفرة الوفيات بين الاطفال ، والامراض الريفية المتوطنة وغير ذلك .

فاذا فرغ من رسم هذا الاطار وتصوير أحوال من هم فى داخله ومعالجة مشكلاتهم ، اتجه إلى شخص الفلاح ولم يأب أن ينزل إليه فى أرضه ، ليبحث عنه بين بذور النبات وأسمدته ، أو بين ماء النيل ورواسبه ، فاذا عثر عليه مدفوناً فى وسط العناصر الطبيعية ، أو مضغوطا بين الأرض والهيئة الاجتماعية ، إحداهما تحته والأخرى فوقه ، وهو بينهما كأنه بين شقى الرحى وقد فقد كل أمل فى الخلاص ، فأصبح لا يصرخ ولا يستغيث ثم جعل يتناسى الاسترحام ، بل يتناسى الألم حتى نسيه وأضحى لا يشعر به ، إذا عثر عليه المؤلف فى هذه الحالة تناول ريشته وأخذ يرسم بيد رحيمة شخصيته وما يحدق بها من بؤس مادى وأدبى ، ولكنه - مع اهتمامه بالناحية المادية -

هو يعنى أكثر من ذلك بالناحية الأدبية فيصور لنا ذكاء الناشىء الزاهر الذى يفوق فى طليعة الشباب ذكاء نظرائه من أبناء الغرب والذى لا تلبث عوامل البيئة أن تصدمه صدمة عنيفة فتقف إنتاجه وابتكاره ، وتحوله الى آلة ميكانيكية لا عمل لها إلا المحاكاة وتنفيذ الاوامر الصادرة من الغير ، وتنمى فيه نوعاً من اللا شعور بالتعاسة يسمح له بأن يعيش في الشقاء راضياً ، لأنه ما دام أن أدنى قدر ممكن من القوت متحقق وأنه « لا يموت أحد في الريف جوعاً » فهو لا يمد عينيه الى ما وراء ذلك . ولا ريب أن هذا اللاشعور ، أو هذا الاطمئنان يصلح رداً على أولئك المعترضين الذين يجحدون بأساء الفلاحين محتجين بأنهم لو كانوا تعساء لما نما عددهم من مليونين الى اثنى عشر مليوناً فى أكثر قليلا من قرن واحد ، وهم يرون أن المصورين لشقائهم إنما يغالون فيرسمون فى ذلك لوحات أكثر سواداً من الواقع . ولكن هذا غير صحيح ، فتلك اللوحات صادقة دقيقة ، وانما الفلاح يأكل ويعيش ويتناسل ، وجبلته رصينة ، وأخلاقه متينة ، والروابط الطبيعية فى أسرته قوية .

وهذه العوامل مجتمعة هى التى تكاتفت على نموه ، غير أن هذا كله لا يمنعنا من أن نقرر أنه لا يحيا حياة داخلية لذيذة ، ولا ينعم بحالة اجتماعية ذات قيمة ، ولا يعرف أدنى قدر من الرفهنية ، وليس لديه أية فكرة عن التدبير الصحى ، وأنه يجب على الصفوة المثقفة أن تنقذه من هذه الوهدة السحيقة ما دام أنه ليس كفئاً لانقاذ نفسه ، وهذا هو الذى دعا اليه المؤلف فى حرارة تلك الطبقة العليا التى تستطيع القيام بهذه المهمة والتى يجب عليها الاسراع الى تنفيذها . ولا جرم أن القسم الذى اشتمل على هذه الدعوة من الكتاب يهم المصريين أكثر من الأجانب ، لأنه هو الذى يعين العمل الايجابى الذى يجب على الطبقة المثقفة أن تسلك سبيله ، لتشارك الحكومة فى مهمتها ، وتضاعف نشاطها وتكلل مجهودها بالنجاح ، وتقدم اليها حلول المعضلات التى تتورط فيها ، اذ أن الحكومات الرشيدة لا تسير الا على ضوء نصائح المثقفين من

أبناء دولها . ولقد أجمل الأب عيروط أهم هذه النصائح فى كتابه وألحّ عليها إلحاحًا جعلها واضحة جلية أمام كل من يبغى الاستفادة منها . وقد أوصى كذلك بتعليم الفلاح وأبنائه بكل الوسائل ، ولكن على أن يؤسس هذا التعليم على قواعد الالتئام مع عقليته الخاصة وحاجاته الضرورية ، لا تقليداً لمناهج أوروبا التى لا تتفق مع طبيعة مناخه ونشأته وحالته الاجتماعية .

يبدى المؤلف فى هذا القسم الأخير حمية كريمة تشف عن مقدار السخط الذى تركه فى نفسه هذا الحيف الاجتماعى البغيض ويسجل فى حزم قسوة أكثر كبار الملاك وفقدان وطنيتهم اللذين يتمثلان فى أنانيتهم الممقوتة التى تساهم فى إدامة شقاء هذا الفلاح التعس . أليسوا هم الذين كان يجب عليهم أن ينظروا الى هذا السفر على أنه « عمل خطير كأنه محاسبة للضمير » كما يصفه أحد المقرظين ؟ .

ذلك هو الشعور الذى يجب أن تتركه مطالعة هذا الكتاب فى نفس كل مصرى، ولا ريب أن هذه المحاسبة اذا تحققت فانها تقود أربابها فى الطريق السوى الذى طالما تمناه المؤلف والذى ينتهى إلى أشرف المقاصد وأنبل الغايات وأجدرها بالاحترام، وهى تحقيق العدالة الاجتماعية والسمو الى الوطنية الصادقة .

هذا ، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذا المقام أن نرجو أننا نكون قد وفقنا الى الاحتفاظ بشيء من جمال هذا الاسلوب الحى اللدن الرشيق الواضح الصافى ، فيكون له فى العربية بعض الجاذبية التى له فى الفرنسية لنحقق بهذا العمل فائدة جليلة لا لمصر وحدها ، ولكن لجميع الناطقين بالضاد .

محمد غلاب

القاهرة فى أول مارس سنة ١٩٤٣

« من يلقى بنفسه بين الشعب أو فى الأقاليم لا يلبث – اذا كان له عينان – أن يستحدث اكتشافات غريبة ، إذ يرى فيهما أشياء هى عنده جديدة لم يكن يتصور وجودها ، ولم يكن يستطيع إحراز أقل فكرة عنها فيتقدم بتجارب متواصلة فى معرفة الانسانية » .

لابرويير

## استهلال

أخرجنا فى سنة ١٩٣٨ عند « بايو » بباريس فى « مجموعة الدراسات والمستندات والشهادات لخدمة تاريخ زماننا » مؤلفاً عنوانه « أخلاق الفلاحين وعاداتهم » قد صدر بمقدمة قيمة لـ « أندريه أليكس » .

كان ذلك السفر المعتمد على الدراسات والملاحظات وعلى ميل دام عدة سنين يتطلب الايضاح والتحديد بل بدء العمل فعلا .

ولما كنا اليوم منوطين بخمس وسبعين مدرسة أولية فى مصر العليا ، ولما كنا نغادر العاصمة فى كل شهر إلى تلك القرى البعيدة ، فاننا نحاول أن نبرز إلى الواقع أفكار ذلك الكتاب ، ولكى نهذب فلاحينا ونخرجهم من الأرض، سنجتهد أن نقرب ما نسميه مصر الخارجية : أى نحن ، من مصر الداخلية : أى هم .

ولكن لما أصبح ذلك الكتاب – وقد صار ملائماً – مطلوباً أكثر من ذى قبل ، أضحى غير موجود وطلب منا أن نعيد طبعه .

وهذا السفر الذى نقدمه اليوم بمقدمة أخرى وتحت عنوان جديد يحمل معه عدة تنقيحات و إضافات ، ولكن ليس فيه تغييرات جوهرية ، لأن الفلاح لا يتغير كثيراً فى أربعة أعوام .

أما الصور فلم يسبق لها نشر ، ونحن مدينون بها إلى أصدقاء نشكرهم هنا .



## مقـــــــــــــــدمة

### معرفة الفلاح

كتلك الأدوات النحوية التى تربط الجملة وتمنحها ثباتها، أو كرصاص اللحمة الذى يمسك ويرسم القطع المتعددة الألوان من زجاج نوافذ الكنيسة ، طبقة الريفيين تخلع على الوطن مظهره العميق، هى دعامة متواضعة ، ولكنها ضرورية لتوازنه الاقتصادى ونظامه الاجتماعى . ولما كانت منتجة أكثر منها مستهلكة فانها تحفظ صحة الدولة وتضمن لماليتها تنفساً منتظما .

ولكن طبقة القرويين مكونة من ريفيين أى من رجال . . . مهما كانوا عبيداً للأرض وللفصول ، ومهما بدت طريقتهم فى التأثر متجلدة وبطيئة ، ومهما كانوا خاضعين للعادة جامدين إلى الحد الذى يخيل إلينا ، فهم يبررون أكثر من غيرهم كرامة الشخص البشرى .

لما كان الناس قد خلطوا زمناً طويلا بين الانتاج والمنتج ، والعمل والعامل ، والغلة-والزارع ، وحدّقوا إلى المخزن دون أن يروا رجل الأرض الذى ملأه ولم يلاحظوا التضايق الذى لم يكن يعرف التعبير عنه والذى ربما أنه لم يكن يشعر به الشعور الكافى، فانهم يشهدون اليوم اليقظة الريفية دهشين ويلاحظون فى ذهول عبء الجهل المثقلة به الجماعة والدولة بازاء رجل الارض .

إن الشعراء والفنانين فى كل الازمنة منذ « فيرجيل » الى « جوزيف دى بيسكيدو »-

باستغلالهم موضوعى « الحارث » و « جمال الحقول » وباذابتهم القروى فى الاطار الذى يحوطه ـ قد ساهموا فى حجب الحقيقة الريفية . انهم رسموا صوراً عامة جميلة ، ولكنهم عودونا أيضاً ألا نرى فى الحياة الريفية الا المظهر المؤثر والعاطفى ،وأن نجد فى للوحة كل الحقيقة « إن إشارة الزارع الجليلة (١) » قد أخفت عنا الزارع نفسه .

هذا التزييف الأدبى يتحقق بنوع خاص بالنسبة الى مصر . ولقد لفت أنظارنا الى ذلك تعقبنا عاماً بعد عام كل ما كان ينشر فى باريس فحسب ، إذ أن مصر لدى الكتاب الفرنسيين العصريين قطب جاذبية ، وهم في ذلك يسايرون إحدى تقاليدهم (٢) .

فمنذ سنة ١٩٢٦ مثلا أثرت المراجع المصرية بنحو أربعين من الروايات أو التحقيقات الجديدة ، وذلك عدا مقالات الصحف والمجلات التى لا تحصى ، والمحاولات المنشورة فى مصر وفى الكتب الانجليزية ، وهذا الانتاج العظيم والشيق من عدة وجوه يصف برشاقة إطاراً ومناظر ، ويرسم مشاهد وأشخاصاً يشغلها بهم ، ولا يفوته ألبتة أن يذكر الفلاح ، فهو يخصص له بضعة سطور أو بضع صفحات ولكنه يراه من الخارج ولا يعرفه ، ينبغى أن نذكر أن الفلاح ليس ممثلا بادياً للعيان ، فهو لا يبرز كثيراً من الارض.

---

(١) هذا هو بيت شهير لفيكتور هوجو فى إحدى مقطوعات مجموعة «أغنيات الطرقات والغابات» (المترجم) .

(٢) « جان — مارى كاريه » ، الرحالة والكتاب الفرنسيون فى مصر منذ بدء السيادة التركية (١٥١٧) الى افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) » مجلدان ضخمان من القطع الثمانى ؛ القاهرة فى سنة ١٩٣٢ . و « م . ليكتينبيرجيه » ، الكتاب الفرنسيون فى مصر العصرية من سنة ١٨٧٠ الى أيامنا، من القطع الثمانى ؛ المطابع الجامعية بباريس سنة ١٩٣٤ ـ ٣٠ ـ «دراسات عن المستعمرات ، مصر فى الادب الفرنسى» ، «مجلة التعاليم الشيوعية مائة صفحة من القطع الاثنى عشرى ، باريس سنة ١٩٣٦

واذاً ، فالذى يحدث بمطالعتنا هذه الكتب هو أننا نعرف معرفة جيدة جداً : أحياء البغايا والفنادق الكبرى فى القاهرة والاسكندرية ، وجيدة نوعاً : الاهرام والمتاحف والمعابد أو المساجد والاسواق ، وأقل من ذلك الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولكننا لن نعرف شيئاً ألبتة عن روح أو عن حياة هذا الرجل الذى هو جزء أساسى فى أداة مصر العاملة وهو الفلاح .

ولم يكن رجال العلم الذين نظروا الى مصر أكثر من رجال الأدب رؤية للفلاح ، فهؤلاء كانوا يعتبرون المناظر الطبيعية ، وأولئك يعتبرون البلاد ، والقرويون يظلون ثانويين . نحن نقصد خبراء الزراعة والاقتصاديين بل الجيوغرافيين الذين كثيراً ما ساهموا فى كشف أرض مصر .

ان بحوث المسيو أوديبو ، والمسيو موسيرى عن الزراعة ، والمسيو فيلكوكس ، والمسيو باروا عن وسائل الرى ، والامير عمر طوسون عن النيل ، وأرتين باشا ، والمسيو أرمانجون ، والمسيو مينوست عن الملكية العقارية ، والمسيو كيفيليه ، والمسيو هوج عن طبقات أرض مصر وجيوغرافيتها تعتبر بحق عمدة .

يتحدث فى هذه الكتب عن الفلاح، ولكن فى علاقته بهذه العوامل الأولية ، وكعنصر من عناصرها ، فهو يرى بمناسبة التسميد والحصاد والرى ، وبمناسبة الضريبة والملكية والانتاج . . .

قد حسبنا أنه يمكن أن يخصص للفلاح المصرى مؤلف فردى يصفه كشخص إنسانى ويعتبر كل تلك العوامل التى يجعل هو تابعاً لها متعلقة به ، وهو عكس لوجهة النظر يسمح بفهم مصر على طريقة أفضل .

نحن لن نقول : « لا شىء الا الارض » . سنشتغل بالجيوغرافيا ، ولكن بالجيوغرافيا الانسانية . homo additus naturae أى الانسان يوجد بديًا .

بالجيوغرافيا الانسانية كما كان « فيدال دى لابلاش » يفهمها أى الوصف الشارح، العلم الذى يصل الى الدراسة النفسية والاجتماعية، وهكذا، دون أن نجرد ألبتة رجل الأرض من الأرض التى تحفظه وتغذيه ـ وذلك يكون تشويهاً له ـ نحن سنركز فيه دراستنا.

ان رسم الاطار والشخص وتصوير الحياة الوقتية لأولئك الرجال الذين «يؤنسون» أرض مصر وهى تدفنهم، اذ هذه الارض هى نظيرتهم، ومحاولة إظهار نقطة التماس التى تشرح النفس هى موضوع هذا البحث.

ولكى لا نطيل سنفرض أن حوادث تاريخ مصر الكبرى وأوليات جيوغرافيتها معروفة. على أن المؤلفات الحديثة لا تدع شيئاً يشتهى فى هذا الشأن (١).

ولما كنا قد قصرنا بحثنا على الفلاح بالمعنى الضيق لهذه الكلمة أى الزارع الصغير، فلن نتحدث عن الملاحين وصناع القرى. هؤلاء هم أيضاً فلاحون، ولكن اختصاصاتهم تخلق لهم نوعاً من الحياة يستحق دراسة منفردة.

ولما كنا ننظر الى الفلاح اليوم، فلن نذكر عن الماضى الا الشىء الجوهرى على أنه فى الحاضر يتلخص كل الماضى كما يمكن ان نلاحظ ذلك.

أما فهم المقاييس والموازين والمكاييل والعملة والعبارات الوطنية التى ليست

---

(١) « تاريخ الوطن المصرى، تحت اشراف « ج. هانوتو » وهو سبعة مجلدات من القطع الرباعى باريس سنة ١٩٣١ — ١٩٣٥. « موجز تاريخ مصر » تأليف عدة مؤرخين وأثريين، أربعة مجلدات من القطع الثمانى، القاهرة سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٥ « مصر القديمة والحديثة والعصرية » تأليف « دى هينو » س. ج. من القطع الاثنى عشرى ٤٤٠ ص، الطبعة السادسة، القاهرة سنة ١٩٣٥ ». « مصر، لمحة تاريخية وجيوغرافية » من القطع الثمانى، ٤٥٦ ص، القاهرة سنة ١٩٢٦.

مشروحة فى كل مرة فى النص ، فليتفضل القارىء بالرجوع فيه إلى القائمتين المثبتتين فى آخر الكتاب .

وأما فيما يتعلق بالمراجع التى ليست كثيرة العدد ، فنحن لم نذكر من بين المؤلفات التى قرأناها الا ما أعاننا على تحديد هذه النقطة أو تلك ، وقد جرينا على تفضيل المؤلفين المصريين والدوريات المصرية ، لأنهما - وان كان مليئين بالحشو وليسا علميين الا قليلا - يريان الأشياء المصرية من الداخل ، وهذا النوع من الانباء الذى يفسح المجال للحكم يفوق كل نوع آخر .

ولكن قضيتنا تعتمد فى جوهرها على ملاحظات شخصية تمتد الى عدة سنين - فنحن من مصر - والى عدة أقاليم من وادى النيل . وهى تعتمد أيضاً على محادثات خاصة مع أناس من جميع البيئات ، وعلى التفكير المنطبق على الأشياء المرئية والمسموعة. واذاً ، فهذا المؤلف الذى نقدمه اليوم قد نظرنا فيه وتأملناه قبل كتابته .

فنرجو أن يساهم فى أن تبسط فى عمق مسألة الفلاح ، وأن يساعد فى أن تعرف بوساطته مصر الخالدة .

# الفصل الاول

إن الفلاحين أى الصعاليك القرويين الذين سنصف حياتهم فى الفصول التالية يؤلفون أكثر من طبقة اجتماعية واحدة ، فهم بعددهم الذى هو أكثر من ثلاثة أرباع مجموعة الاهلين ، وبوحدة طبيعتهم وبأصالتهم يكونون حقًا الشعب المصرى ، ذلك الشعب الذى أنتج المدنية الأولى أو على الأقل أنتج مدنية جد خاصة يملأ تاريخها خمسين قرنًا من الزمن يبدى لنا خصائص ليست أقل شخصية من مدنيته .

الدوام والثبات : فسادته ودينه ولغته وثقافاته قد تغيروا، ولكن نوع حياته لم يتغير، بل استعصم واحتفظ بذاته منذ زمن الامبراطورية القديمة البعيد الذى هو فوق قمة عصر الأسر .

امتلكه على التوالى : الفرس والاغريق والرومان والبيزانتيون والعرب والترك والفرنسيون والانجليز . وسواء أكان هذا الامتلاك عدة قرون أم بضعة أعوام فانه بقى كما هو .

واليوم أيضًا هو لا يساهم فى نهضة مصر وفى حريتها وفى تطورها إلا قليلا ، أو لا يساهم ألبتة .

أما روحه - التى هى وثنية منذ ما وراء عصر ( التوتيميسم ) : تقديس الحيوان أى منذ عهد عبادته ثم هى ، إبان ستة قرون مسيحية الى حد الكمال الممثل فى التنسك وفى احتمال التعذيب - فقد تركت ذاتها تسلم بلا مقاومة ، ولكن دون أن تستطيع ثلاثة عشر قرنًا فى الاسلام أن تغير دخيلتها الدينية (١) .

---

(١) المراد الدخيلة الوثنية القديمة التى تتمثل فى تقديس الأشجار والأحجار .

شعب قابل للانفعال ، ولكنه غير قابل للاستكناه ، صبور ولكنه مقاوم ، ومع أن هذا الشعب يعيش منذ زمن طويل فى ملتقى القارات ، وعلى مفترق الطرق الدولية ، وفى بلد كان مسرحاً لاعظم أحداث التاريخ ، قد بقى هادئاً ثابتا كقاع البحر تحت الامواج الهائجة .

لقد غيرت وجوه الأوطان الحجب مرات كثيرة حسب ألاعيب الرجال ، وكذلك وجه مصر أيضاً ، ولكن الذى لم يتغير هو الأساس ، والفلاح الذى هو عين ذلك الاساس من مصر .

كان يقدم نفسه دعامة للمناظر التى كانت تجرى عنده وفوقه وكان يصمد لها ، وبينما كانت تلك الزعازع العنيفة المتكررة تعصف بالشعوب أو تدمرها كما تشهد بذلك الى اليوم خرائب افريقيا وكلدان المقفرة ، وتلك البلاد المزدحمة بالاجانب ، كان الفلاح الغير القابل للاستهلاك باقيا . . .

يروى تاريخ مصر كثيرا من الحروب والثورات ، ولكن الشعب لم يكن يحتك بها ، ومع ذلك فهو - فى عصر واحد أى بين سنتى ٧٢٥ و ٨٣٠ - يتحدث عن اضطرابات فى الأرياف ، إذ حين أرهق الفاتحون(١) العرب الفلاحين بالضرائب جعلوا يهجرون القرى التى هم مقيدون فيها ويستقرون فى بلاد أخرى وقد صارت حركة الفرار هذه عامة ولكن القمع كان فظيعاً الى حد حمل الاقباط على الثورة الصريحة ، فتألبوا ست مرات ولكن بدون تماسك ولا اتحاد فى الزمن ، فقهروا فى

---

(١) يقصد المؤلف وصف الاضطرابات التى بدأت فى مصر من عهد هشام ابن عبد الملك واستمرت الى عهد المأمون واضطهد الولاة أثناءها المصريين وأرهقوهم حتى اضطروهم الى الثورة عدة مرات ثم قمعوا تلك الثورات بالعنف وإراقة الدماء ( المترجم ) .

المرات الست على أشد الصور إراقة للدماء ، وذلك لأن الثورات ليست من خاصياتهم، على أن غور الشعب حتى فى هذه الثورات لم يلحق .

لم يتفتت هذا الشعب أكثر من جرانيت المعابد ، ولكنه لم يتطور تطوراً جوهرياً أكثر من تلك الصور الفنية التى تحددت مرة واحدة ، فتفاصيل حياته اليومية التى تستحضرها نقوش حوائط القبور الفرعونية، أو الخرافات القبطية ، أو مؤرخو العرب ، أو « وصف مصر » أو المحققون الانجليز ، أو رحالة اليوم يخيل إلينا أنها سلسلة من فصل واحد ، وشعورنا هو أن هذه المناظر التى تفصلها القرون تتكرر ويغطى بعضها بعضاً .

على أن هذا ليس أحاسيس فحسب ، فنحن نشاهد وحدة آلات العمل : كالمحراث والشادوف والساقية والجاروف ، والمنجل والقفة ، ووحدة معاملة الجسم كالوشم والختان، واستعمال الكحل والحناء وإزالة الشعر ، وثبات عدد كبير من العادات فى الزواج والحداد وما شاكل ذلك [١] .

من خلال روايات هيرودوت ، وديودور الصقلى ، واسترابون والمقريزى ، وفانسليب، والآب سيكار ، وفولنيه وأمثالهم نحن نعرف ذات الفلاح : لا ثورة ولا تطور.

ها نحن أولاء فى صميم المشكلة ، فكيف يمكن شرح هذا الثبات الجسمانى ، وذاك التوازن النفسانى والاجتماعى ، وذلك الدوام الفوق العادى عند شعب من الناس؟،

نحن نشرح ذلك بالأرض كما يمكن أن نشرح ثبات الفن المصرى الذى تكون بوساطة الاستيلاء على البيئة الطبيعية ، فالخطوط الأفقية الحادة للصخور العربية والليبية قد ألهمت ذلك الشبح المنخفض المستطيل الممتلىء السميك للمعابد الفرعونية ، وذلك الافريز المتحد الصور الذى يتممها .

---

(١) سنبين هذه التشابهات فى مواضعها ، وكل واحد يستطيع أن يثبتها بنظره فى المنابع المذكورة فى المصادر .

وكومات البردى واللوتوس والقصب التى كانت تزهر على شاطىء النيل قد منحت صوراً فنية تشاهد على هذه الأعمدة وتيجانها التى ندعوها بصور البردى وصور اللوتوس والدور يانية البدائية .

منذ زمن بعيد قد تثبت فى وادى النيل بين العقل والطبيعة تماسك متين . وقد أبرز ملاك مصر المختلفون بكل أعباء سيادتهم هذا التماسك .

يجد الفلاح نفسه موضوعاً بين الأرض وأربابها كأنه بين المطرقة والسندال ولكنه بنوع حياته أقرب اليها منه اليهم، وضرباتهم بالمطرقة تزيد التصاقه «بالأرض».

هذا الاتحاد واقعى الى حد أن سادة الفلاح باستيلائهم عليه يستولون على الأرض وبامتلاكهم الأرض هم يمتلكونه .

وهكذا يحتفظ الشعب الفلاحى بهذا الثبات وتلك الوحدة اللذين يدهشاننا، بوساطة ارتباطه بثبات آخر ووحدة أخرى ، وهما : ثبات تربة مصر ووحدتها .

قد وجد بين هاتين الكتلتين الحيتين اتصال مرن وضيق ، وتوازن مقفل وشبه كفاية لا تصل الحوادث ولا الحكومة إلى سبر غوره . وقد نستطيع أن نستعمل هنا تعبير « سولى - پرودوم » الجميل الذى يتحدث عن : « ذلك الزواج القاسى السابق على التاريخ بين جنس وحقل قد صنعا نفسيهما فيما بينهما » .

إن رفقة الجنس والحقل المتصلة قد أنتجت طائفة من الأفعال وتجاوباتها الدائمة، ومن المشابهات والمعارضات صيرت الاتحاد الغير القابل للانحلال بين تينك الكتلتين أكثر متانة ، ولنقل بالأحرى : بين تينك البيئتين : الطبيعة أو البيئة الطبيعية بالمعنى الواسع لكل ما يحيط كما يقول الانجليز أى المناخ والنور ، ولكن قبل هذا كله : ماء النيل ورواسبه ونباته وجيرته من الرمال من ناحية ، ومن ناحية أخرى الانسان أو البيئة الاجتماعية بمعناها الضيق أى البيئة الفلاحية المحصورة فى عاداتها وفى قراها ،

والشديدة الانضغاط والازدحام ، وان كانت منعزلة وغير منظمة والتى هى أقرب إلى الأرض التى يعرفها الفلاح من الحكومة التى لا يعرفها .

ولكن لنحترس هنا من كل جبرية ناموسية ، بل نحن نريد أن نقصى منها حتى ظاهرها ، فالفلاح ليس ثمرة الريف المصرى أكثر من أن يكون هذا الريف ثمرته ، والأمر لا يتعلق هنا بخلق ضرورى ولا بتأثير محدد ، وإنما الانسان يظل حراً ، ونحن نحد الحرية بأنها « مقدرة المرء على تحديده نفسه بنفسه » .

الانسان حر ، والطبيعة الزراعية إحدى الممكنات ، وهى تنتج إمكانات غير محدودة تختار من بينها إرادات الأناسى - ولكن السادة لا الفلاحون - أحدها أو الآخر حسب الزمان . . .

فيما مضى غرست الكروم فى حقول مصر ، ولكن لما كان العنب يعطى النبيذ ، فقد قتلت التحريمات القرآنية تلك الكروم . وبالأمس كانت شجيرات التبغ تغطى سطوحاً واسعة ، ولكن الحكومة حظرت زرعه ، وعلى العكس من ذلك الذرة ( الشامية ) الآتية من أمريكا ، والقطن المجلوب فى القرن التاسع عشر لهما اليوم الصدارة على جميع الزراعات الأخرى . وغداً سيمكن استغلال نباتات مغايرة .

ليست هناك أية ضرورة من ضرورات المناخ أو ضرورات الأرض تحدد مرة نهائية الانتاج الزراعى فى مصر ، ومن باب أولى هى لا تحدد الوجود الانسانى . ومع ذلك فقد بقى فعل خاص للبيئة ( المناخنباتية ) فى الكائنات التى تعيش فيها ومنها .

لدى سكان المدن ولدى عمال الصناعات تكون الرابطة بين الطبيعة والأناسى أكثر تفككا ، وطابع البيئة الطبيعية ينحل ويتعطل عمله لصالح البيئة الاجتماعية والوطنية والسياسية التى تبرز وتسود ، وذلك يصير الجماعة أقل ثباتاً ، ولكن أكثر

تقدماً ، وليست هذه هى الحالة بالنسبة إلى رجل الحقول ، فطابع الأرض عليه يظل بادياً . والمسيو « فيفر » يعارض بحق فى تعميمات « رازيل » و « برون » حول تأثير البيئة الطبيعية (١) ولكن يخيل الينا أننا ــ دون أن نمنح قضيتيهما قيمة الحقائق التى تنطبق على مجموعة التاريخ والأرض - نستطيع أن نعترف بأنهما تنطبقان انطباقاً جيداً على الجماعات الزراعية ، وأجود من ذلك أيضاً انطباقها على الحالة الخاصة التى ندرسها وهى حالة فلاح مصر .

سنرى فى الواقع أنه على تماثل وادى النيل ووحدته وخصوبته يجاوب تماثل الجمعية الفلاحية ووحدتها وخصوبتها وسنرى أن هاتين الظاهرتين الموجودتين ليستا متوازيتين ، ولكنهما متناسبتان تلتقيان فى « نوع الحياة » ( العنصر الجيوغرافى والاجتماعى ) .

سنرى كيف أن ماء النيل ورواسبه تتغلغل فى عمل الفلاح وجسمه ونفسه ومسكنه وأسرته وكل حياته وتشرح جزءاً عظيما منها وتنقل اليه محامدها ومساوئها .

بسبب أن الفلاح « مدفون » فى هذه الرواسب صارت هذه الأخيرة مخصبة : مصر هبة النيل ، وهى ليست أقل من ذلك هبة الفلاح .

وبسبب أن هذه الارض تجسدت فى الفلاح ، كان هذا الأخير ثابتاً إلى هذا الحد ، ولكنه كان أيضاً مادياً وراكداً .

---

(١) « جان برون » . « الجيوغرافيا الانسانية » . « ألكان » . باريس سنة ١٩٢٥ الطبعة الثالثة ٩٧٥ صفحة عـدا مجلد صور ، ب . فيدال دى لابلاش . « مبادىء الجيوغرافيا الانسانية » . « كولان » باريس سنة ١٩٢٢ ، ٣٢٠ صفحة « لوسيان فيفر « الأرض والتطور الانسانى » . مقدمة جيوغرافية للتاريخ ، مكتبة سانتيز التاريخية نهضة الكتاب . باريس سنة ١٩٢٢ ، ٤٧١ صفحة .

وإذاً ، فالتقدم سيأتى من انتزاع وبروز وتربية بالمعنى الأصلى لهذه الكلمة e ducere :

انتزاع روح الفلاح من هذا الغلاف الطينى الذى يخنقه ، ورفعه دون اقتلاع جذوره ، وتخليصه من معائب الأرض دون محامدها ، هذا هو عمل الجماعة ، ولكن هذه الجماعة ليست جماعته التى هى بدون قوة روحانية داخلية . ليست تلك الجماعة القروية المشلولة في حالتها الراهنة ، ولكنها جماعة الطبقة العليا التى تدثره وتستطيع أن تتغلغل فيه ، جماعة الصفوة التى بوسائلها وثرواتها تستطيع أن تمنحه الحياة .

ذلك هو فعل الخميرة فى العجين ، وفعل الذكاء وحب الآخرين .

ستحدد الفصول الآتية هذه الاعتبارات العامة وستمثل لها وستقودنا بوساطة منطق الحوادث الى هذه النتيجة الانسانية الخالصة التى رسمناها كلها آنفاً .

## الفصل الثاني

# الاطار الطبيعى

## مصر بلد زراعى

### ١ — الجيوغرافيا

---

لقد استطاع الناس التحدث عن تصيير مصر بلداً صناعياً . وفى الواقع أن وثوب الصناعة فى هذه السنين الخمس الأخيرة يسجل من الاتساع بقدر ما يسجل من السرعة ومنذ الآن توجد طبقة من صعاليك المصانع أو طبقة عاملة وطنية تمكن دراستها ، ومع ذلك فان انعدام مناجم الحديد (١) أو الفحم من الأرض المصرية سيمنع دائماً هذا القطر من أن يصير مركزاً صناعياً بمعنى الكلمة ، بل من أن يكتفي في المواد الصناعية لسد حاجات سكانه ، ولكنه يبقي وسيبقي بلداً زراعياً من الصف الأول .

ذلك هو قانون تكوينها الطبيعي .

إن مصر بأرضها المسطحة ، وتربتها الغنية الرطبة الرخوة . ونهرها الفياض ، ومناخها الحار الجاف تحقق الجيوغرافيا المطلوبة للزراعات الكثيرة الانتاج ، الواسعة الامتداد ؛ وتتولاها بدون تخاذل .

---

(١) ستتغير هذه الفكرة بعد اكتشاف منجم حديد اسوان العظيم الذى نرجو أن توفق الحكومة المصرية الى استغلاله على صورة تضمن تحقيق أمل البلاد فى أن يكون ذلك المنجم منبع ثروة جديدة لها . « المترجم »

رمال هى فى ذاتها لا تكاد تكون زراعية أكثر منها صناعية ، وكتل من الجرانيت والجص غير صالحة لأى بذر . على هذا النحو كان وجه مصر سيبدو أرضاً فقيرة يسكنها البدو والرعاة كشبه جزيرة العرب وقورينا جارتيها لو لم يمر فى هذه الجهة من صحراء افريقيا خط من خطوط الحياة ، وهو النيل الزارع .

ليس النيل من مولد مصرى ، ولكنه يهب مصر نضوجه والتفتح الذى ينهيه . هو يدخل أرضها غنياً بجريان ٥٠٠٠ كم ، ومحملا بالرواسب التى يجلبها معه إبان هذا السفر العظيم خلال أشد الاراضى تبايناً . هو يتجدد فى كل عام وينظم بحياته حياة مصر .

إن الطمى الذى يجمعه النيل من الخارج ويحمله مع فيضانه يضعه منذ القسم الاخير من العصر الرابع فوق شاطىء مجراه المسطحين ويبسطه فى هيئة طبقة ظافرة بعرض مصبه على حساب البحر (١) .

كونت هذه المحمولات فوق الجرانيت أو الجص أو الرمل سمكاً من « أرض سوداء » ( كيمى ) يتراوح بين عشرة أمتار وثلاثين متراً حسب الجهات .

إن الارض النيلية التى تغطى الوادى على هذا النحو مكونة من صلصال طبيعى وصلصال هلامى تنضم اليه جواهر ملحية ، وذلك منتج دقيق من تحلل آت من محمولات شديدة الانسحاق من النيلين : الابيض والازرق .

وتكون هذه الارض القابلة للزراعة - بعكس ما عليه جميع الجهات الزراعية تقريباً - هو بعينه فى جميع أجزاء القطر . والتحليل الآتى الذى يثبت وحدة هذه التربة يظهر أيضاً محتوياتها المعدنية القوية . وسنشير إلى ذلك بمناسبة غذاء الفلاحين .

---

(١) ب . بوفييه - لابيير . « مصر فيما قبل التاريخ » فى كتاب « تاريخ مصر » المجلد الأول صفحة ٩ — ١٤ : مصر والنيل .

| | مصر السفلى | | مصر العليا | |
|---|---|---|---|---|
| | طنطا | المنصورة | إطسا | مطاى |
| | ٪ | ٪ | ٪ | ٪ |
| بوتاس | ٠،٥٥ | ٠،٥٦ | ٠،٦٣ | ٠،٧٦ |
| صودا | ٠،٥٨ | ٠،٧٠ | ٠،٧٢ | ٠،٧٤ |
| كالسيوم | ٣،٣٨ | ٣،٢٨ | ٥،٥٣ | ٤،٤٧ |
| مانيزيا | ٢،٨٨ | ٢،٦٦ | ٢،٧٥ | ٢،٨٩ |
| أوكسيد ) المنغنيز | ٠،٢٢ | ٠،٤٥ | ٠،٢٤ | ٠،٣٦ |
| أوكسيد ) الحديد والشب | ٢٣،٣٦ | ٢٤،٩٠ | ٢٠،٢٣ | ٢٤،٣٩ |
| حامض ) الفوسفوريك | ٠،٢٠ | ٠،٢٣ | ٠،٢٢ | ٠،٢٨ |
| حامض ) الكربونيك | ٠،٦٧ | ٠،٨٥ | ٣،٠٣ | ١،١٠ |
| كلورين | ٠،٠٩ | ٠،٠٣ | ٠،١١ | ٠،١٠ |
| المواد ) العضوية | ٧،٧٩ | ٧،٧٦ | ٧،٣٨ | ٧،٧٨ |
| المواد ) الغير القابلة للتحلل والرمل | ٦٠،٢٨ | ٥٨،٥٨ | ٥٩،١٦ | ٥٧،٢٣ |
| نيتروجين | ٠،٠٧ | ٠،٠٧ | ٠،٠٥ | ٩ ،(١)٩ |

(١) بحوث مدرسة الزراعة الملكية بالجيزة.

إن الأرض التى أتى بها النيل لا يكف عن إغنائها و إروائها بالفيضان أو عن طريق القنوات ، وذلك دائماً تحت مراقبة الانسان .

وطريقة الرى بالحياض الضاربة فى القدم والتى لا تزال إلى اليوم تشمل مليوناً من الأفدنة تنحصر فى إحضار الماء فى عصر الفيضان عن طريق قنوات صغيرة إلى

سطوح واسعة من الأرض محوطة بجسور عالية فتبتلع الأرض الماء إلى حد الشبع ، والباقى يسيل فى سير بطىء بعد أن يضع طبقة من الرواسب الدقيقة التى كان الماء محملا بها قبل وصوله إلى الحياض . وعلى هذا النحو ينال كل فدان ٧٠٠٠ متر مكعب من الماء تغنيه بثمانية أو تسعة ( أطنان ) من الرواسب . وعلى أثر انسحاب الماء مباشرة ( نوفمبر ) يبدأ العمل فى الزراعات التى تأخذ في النمو إلى الحصاد دون احتياج إلى رى آخر . و بعد هذا تظل الأرض بائرة إلى الفيضان التالى ، ومع ذلك فزراع الارض الواقعة فى الحياض لكي يستفيدوا من زراعة صيفية بعد غلة الشتاء يلتجئون إلى الماء النابع من الأرض بوسيلة ( ماكينات ) المياه التى انتشرت إلى حد أن غيرت نهج الزراعة فى تلك الأصقاع .

أما طريقة الرى الذى يدعى بالدائم والذى أدخل فى سنة ١٨٤٠ وصار ممكنا بفضل الأشغال الفنية ، وأكثرها جدارة بالاعتبار سد خزان اسوان ، فهى تسيطر على كل الدلتا وعلى جزء عظيم من الوجه القبلى ( ٤٣٠٠٠٠٠ فدان ) .

لم يعد النيل يفيض فى تلك الجهات ، ولكنه - محجوزاً فى خزانات وموزعاً بوساطة سدود - يتفرع إلى عدد كبير من القنوات و يغذيها فى جميع الفصول أى أنه :

أولا فى موسم الفيضان ( من أغسطس إلى أكتوبر ) لا تكون الحقول مغمورة بالمياه ، ولكنها تكون مروية فقط وتنتج الغلة المسماة بـ ( النيلية ) .

ثانياً فى وقت نقص النيل ( من نوفمبر إلى ابريل ) تتلقى الأرض التى تكون لا تزال رطبة الماء الكافى لزراعة الشتاء ( الشتوية ) .

ثالثاً فى زمن التحاريق ( من ابريل إلى يولية ) تفتح الخزانات وتسمح بالرى الذى يقتاد الغلة الثالثة المسماة بـ ( الصيفية ) إلى النضوج .

لكى تثمر الأرض يجب أن تروى ، ويجب أيضاً أن تتنفس .

بوساطة التشققات التى ترسمها أشعة شمس الصيف على الأرض المسطحة تتكفل تلك الشمس بصحة الحقول البائرة وتساعد على إنقاص أملاحها وتجففها وتحقق لها تهوية عميقة وهكذا تصير الأرض جافة ومتجددة [١]. . .

وإذاً ، فنحن نرى النيل بمساعدة الشمس يعد أرض البلاد ويزرعها ، وهو بهذه الظاهرة نفسها يرسم حد البيئة الطبيعية للفلاح أو مصر الحية .

فى الواقع أنه فى الأماكن التى لا يتغلغل فيها من فوق أو من تحت تبدأ الصحراء بغتة بدون منطقة انتقال . واصطلاحات الأطالس التى تظهر فوق خريطة مصر شريطاً رقيقاً أخضر على أساس بين الصفرة والحمرة تتحقق هنا تماماً .

من فوق قمة الهرم الأكبر أو من ضواحى القاهرة أو من الصعيد (مصر العليا) [٢] وأيا ما اتجه نظر المرء يسترعى انتباهه وضوح خط الانقسام ، وهناك ينتهى مقر الانسان وعمله .

واد مسطح بين صخور الصحراوين : الليبية والعربية ، طوله ١٥٠٠ كيلو متر ، وعرضه كيلو متر عند وادى حلفا ، و ٥ كيلو مترات فى ادكو ، و ١٤ كيلو متر بين

---

(١) موسيرى وأوديبو : عن دور وتشققات الارض فى جفاف تربات مصر وصحتها الدائمة نشرة معهد مصر ، المجلد الأول ( ١٩٢٢ - ١٩٢٣ ) ص ٩ - ١٩ : ١ ديمانجون " المشاكل الوقتية والمظاهر الحديثة للحياة الريفية فى مصر " : المجلة الجيوغرافية ، باريس ، مارس ١٩٢٦ ص ١٥٥ - ١٧٣ .

(٢) قال المقريزى : الصعيد المرتفع من الأرض ، وقيل : الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة ، وقيل ما لم يخالطه رمل ، وقيل وجه الارض ، وقيل الارض الطيبة وقيل هو كل تراب طيب . . . سماها العرب بذلك لانها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر . ص ١٨٩ من المجلد الاول من خطط المقريزى .

الاقصر واسيوط حيث يضيق من جديد، و ٢٥ كيلو متر في بني سويف حيث يتفرع نحو الغرب ( الفيوم ) وهو يمتد على عرض ٢٦٠ كيلو متر في الدلتا . ومجموعة كل هذا ٣٢٠٠٠ كيلو متر مربع من أرض جيدة في وسط مليون من الكيلومترات المربعة من الرمال القاحلة - وهي ٣ ./. من مجموعة الأرض - هذه هي مصر الحية المغذية .

رسم النيل شبحها: هو يبدو لنا كأنه لوتوسة عملاقة ، جذراها - وهما : النيل الأبيض والنيل الازرق - مغروسان في قلب افريقيا وفي جبال إتيوبيا العليا وفي بحيرة كونجو الكبرى ينبتان من الخرطوم ساقاً وحيدة تتغلغل في مصر ضيقة عند وادي حلفا ولا تخضر إلا في اسوان ، وهي تنبت ورقة في بني سويف ( بحر يوسف - الفيوم ) وهي تزهر في القاهرة وتتفتح إلى أغصان لا تحصى على فرعي رشيد ودمياط ثم تلحق البحر الابيض المتوسط من خلال أهداب بحيرات : مريوط ، وادكو ، وبرلس ، والمنزلة التي تمتد من الغرب إلى الشرق حول مصب النهر .

إن وادي النيل المحصور بين الصحراوين اللتين تقوم وراءهما الحدود السياسية هو ذو طبيعة زراعية في جوهرها ، وحياته يعبر عنها بنغمة واحدة وهي : الاخضر ذو الزراعات الغير المنقطعة ، وهذه الزراعات تمتد في ريف عظيم واحد مسطح يدثر المدن والقرى .

على ارتفاع قامة الرجل وقبل ضم غلة الذرة مثلا لا يرى المرء النيل ولا القنوات التي لا تحصى ، ولا مجاري المياه ، ولا قضبان السكة الحديدية التي تظهرها الاعمدة التلغرافية وحدها ، ولا المنازل المنخفضة المتجمعة . . . على نحو ما في مروج هولاندا أو روسيا الرطبة ، ولكن تحت سماء لا تمطر تبدو صدارة الزراعة والحقول . ليذهب كل راحل في مصر النيلية من القاهرة إلى الاسكندرية ، أو ليذهب بالعكس

نحو الجنوب ، ليسافر فى سفينة أو فى سيارة ، وفى الدلتا أو فى الصعيد ، وفى الصيف أو في الشتاء ، فان المظهر الزراعي للمناظر المحيطة يتعقبه .

غير أنه عند مايبتعد عن النيل نحو السويس ، أو نحو دير واد النطرون القبطى فان الصحراء تجتاحه من كل جهة . وإذ ذاك يعتقد أنه قد غير البلد .

فى الغرب يلتقى بالواحات البدوية : الخارجة والداخلة ، والفرافرة وسيوة ، وفى الشرق نحو شواطىء البحر الاحمر يجد استغلالات للبترول والفوسفات وأسراً من الفلاحين ( الصعائدة ) قد استقرت هناك للأشغال .

فى هذا القسم القصى الأجرد الذى ليس هو مصر العليا ولا مصر السفلى يذكر هؤلاء الرجال الذين انتقلوا من منابتهم المسافر بالريف المألوف الذى هو عنده كما عند تسعة أعشار المصريين يمثل البلاد .

## ٢ — الدراسة الاحصائية للجماعة البشرية

ومع ذلك ، فلا ماء النيل ولا رواسبه ولا أشعة الشمس الحارة كانت ستصنع أو ستحفظ إلى اليوم مصر الزراعية بدون معاونة شعب هو فى جوهره أيضا زراعى .

نحن نلاحظ بديًا اتصالا بين الاجتماع البشرى وإمكان الاحتواء ، فهنا أكثر من أى مكان آخر تلتئم خريطة الماء وخريطة الأناسى .

يمكن أن يكون العدد قد احتمل تغيرات على ممر العصور ولن يستطيع أحد أن يحدد تلك التغيرات بطريقة يقينية ، ومع ذلك فما عثر عليه من آثار ما قبل التاريخ ينم منذ زمن مبكر عن أمارات الازدحام .[١]

---

(١) ج دى مورجان ، «بحوث عن أصول مصر» ، ص ٦٧ . مجلد واحد .

وقد يتأرجح العصر الفرعونى بين سبعة ملايين ، وهو العدد الذى عينه ديودور الصقلى ، وعشرة ملايين.[١] ويتحدث كتاب مصر المسيحية عن عشرين مليونا ، وفى زمن الحملة الفرنسية — وكان الفتحان : العربى والتركى قد مرا — نهوى الى مليونين ونصف تقريبا . وقد اعتبر «جومار»[٢] معتمدا على كمية القرى وعلى الانتاج أن من الطبيعى أن يكون هذا عدد السكان .

أما أن يكون ذلك بالعكس حدا أدنى تجاوز المألوف ، فهذا ما ستتكفل الاحصاءات التالية باثباته . وفى الوقع أن التوازن الذى دمرته أسباب غير جيوغرافية كالقتل والوباء والجوع[٣] . . لم يلبث أن عاد إلى الاستقرار كما يسجل ذلك المسيو فيدال دى لا بلاش بحق عندتنا وله مصر فيقول : «عند هذه المدنيات القديمة المؤسسة على ما هو أقل الاشياء تغيرا ، وهو خصوبة التربة وقواها على إصلاح نفسها[٤] توجد محمدة غريبة وهى المرونة »

---

(١) ا . موريه «النيل والمدنية المصرية» . ص ٥٦٧ «لا تقدم الآثار أى تحديد على عدد الشعب فى الأزمنة الفرعونية ، وبالمقارنة مع العصر الحديث يمكن المرء أن يعتبر أن مصر بمعنى الكلمة قد استطاعت أن تمون ثمانية ملايين نسمة فى عهد الأمبراطورية الطيبية» وقد قدر الأمير عمر طوسون هذا العدد بثمانية عشر مليونا (مذكرات عن ماليات مصر منذ الفراعنة إلى أيامنا )

(٢) جومار ، مذكرة عن الشعب مواز فى مصر القديمة والحديثة فى « وصف مصر» طبعة بانكوك ، المجلد التاسع صفحة ١٠١ — ٢١٠ .

(٣) قال عبد اللطيف البغدادى فى « وصف مصر » متحدثا عن قراها بعد نزول الكوارث بها ما معناه : حسبى أن أقول : إن القرية التى تحتوى عشرة آلاف نسمة لم تعد تظهر لمن يمر بالقرب منها إلا موضعا واسعا لإلقاء القاذورات ، فتارة يوجد فيها بضعة أشخاص منعزلين ، وتارة لا يرى فيها أى ساكن .

(٤) مبادىء الجيوغرافيا الإنسانية صفحة ٥٣ .

وفى الواقع أن الأمن العائد ، والنظام المستقر ، واستعمال الرى الدئم ، والزراعات الصناعيـة التى تنتشر انتشارا مطردا بمضاعفتها إمكانات التربة ، كانت تضاعف فى الوقت ذاته بفعل السببية المتبـادلة اقتضاءات الأيدى العامـلة ، وبالتالى كان ذلك يستتبع نمواً فى عدد الأهلين .

أسفر التعداد الفردى الأول سنة ١٨٧٣ عن ٥٢٥٠٠٠٠ ساكن ، وبعد نصف قرن أى ( فى سنة ١٩٢٧ ) صعد عدد الأهلين إلى ١٤٢١٧٨٦٤ . وفى سنة ١٩٣٧ وصل إلى ١٥٩٠٤٥٢٥ .

ومهما يكن من شىء فان العمران يظل دائماً مزدحماً على الأرض السـوداء ، وهو دائماً محدود بها ، و ٩٩ ٪ أى أكثر من خمسة عشر مليوناً يقيمون فى الحركة الناشئة من مياه النيل أى فوق جزء من ٣٠ جزءاً من أرض المملـكة .

فى هذا المسطح الضيق لا تكاد المدن المفرطة فى الزحام وإن كانت قليلة العدد تحتوى على أكثر من ثلاثة ملايين من المدنيين ، والمصريون الآخرون قرويون ، وهم كلهم تقريبـاً عمال فى الأرض أى فلاحون . وبمقتضى التعداد الرسمى يشتغل ٦٢ ٪ من رجال البلاد فى الحقول ، وينبغى أن يضاف إليهم النساء والأطفال ، لأنه يجب علينا هنا أن نقدر هذه الأيدى العاملة النشيطة الـكثيرة العدد . وإذاً ، فنحن نعتقد أننا نظل فى داخل حدود الحقيقة إذا أوصلنا إلى اثنى عشر مليوناً من الأنفس هذا الشعب الزراعى الذى هو موضوع دراستنا .[١]

وهذا الشعب ينمو . . . نعم بحالة أقل منها سرعة فى شعب القاهرة مثلا ما دام أن الزيادة فى القاهرة فيما بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٢٧ كانت بنسبة ٢٨ ٪ على

---

(١) لا يوجد فى انجلترا مثلا إلا أربعة ملايين قروى . ومنذ سنة ١٩٠٠ فقط هجر الزراعة ٢٥٠٠٠٠ شخص

حين أنها فى الريف لم تكد تتجاوز ١٠ ٪ ، ولكن بينما يكون فى المدن جزء عظيم من تلك الزيادة ناشئاً من هجرة الأجانب والقرويين إليها ، فانها فى الريف ليس لها سبب إلا التناسل ، وهكذا يكون لدينا متوسط من الشعب الريفى عدده (٤٥٠) شخصاً فى كل كيلو متر مربع . وهذه الحالة ليس لها نظير إلا فى توكان حيث يقيم ٦٠٠٠٠٠ من الأنفس فوق ١٤٥٠٠ كيلو متر مربع أى ٤١٣ شخصاً فى كل كيلو متر مربع ، و ٩٣ ٪ من الأهلين فوق ١٦ ٪ من مجموعة الأرض . ومن هذا الجمهور يعيش مليونان وتسعمائة وثمانون ألف شخص فى متوسط قدره ٥٠٠ فى كل كيلو متر مربع ومليون وخمسمائة وخمسون ألفاً فى متوسط قدره ألف شخص فى كل كيلو متر مربع [1]

إن ازدحام التعمير فى وادى النيل تشرحه ظاهرة واحدة وهى ان جميع الشروط الجيوغرافية والاقتصادية والاجتماعية المعينة على نمو النسل تلتقى على هذه الأرض وتلك الشروط هى :

( ١ ) المناخ الحار ونفس طبيعة الوادى المحدد تحديداً واضحاً والذى هو مسطح وواحد وسهل الاستنبات .

( ٢ ) تكدس الزراعات المقوتة التى تغذى فى مكانها شعباً عظيم العدد : فالذرة والقمح والأرز والعدس والفول تنبت فى جميع البلاد ، وزراعة القطن التى تتطلب عدداً كبيراً وتثبته والتى يستطيع دخلها أن يغنى . والرى الدائم الذى يقتضى من جهة مساعدين كثيرين ، ومن جهة أخرى — بسبب زيادة القيمة التى يمنح الأرض إياها — يسمح بالحياة لعدد أكبر .

( ٣ ) ذلك التقسيم الأقصى للأرض إلى قطع صغيرة سواء أكان ذلك فى الايجار أم فى الملك ، إذ يصير الاستغلال الصغير سبباً لزيادة السكان . وهنا يتعلق

---

(١) أرقام المسيو « جودو » فى « فلاحو الدلتا التونكانيون » . دراسة الجيوغرافيا الانسانية . باريس طبعة الفن والتاريخ . ٦٦٦ صفحة - سنة ١٩٣٦

الأمر بالحصول على معونة فى مقابل رخيص ، وهى معونة الأطفال . الفلاح إذاً مدفوع بحاجة الأرض، فالحصول على الأولاد بأسرع ما يمكن هو فى رأيه معنى الزواج والأسرة.

هناك حيث تجتمع هذه الأسباب كما فى مديرية المنوفية بالدلتا مثلا ، وهى أقدم الأراضى المزروعة والمروية وأكثرها زراعة للقطن وأشدها توزعاً ( قطع من ١٠ إلى ١٥ قيراطاً (١) ) نشاهد متوسطاً قدره : ٧٤٧ شخصاً فى كل كيلو متر مربع .

وعندما تكون تلك الأسباب غير متلائمة يخف هذا المتوسط . مثال ذلك فى الجنوب فى الجهات الواقعة فى أعلى وفى أدنى شلالات أسوان حيث الأراضى أقل غنى ولا تزال خاضعة لنظام الفيضان وللملكية الكبرى : ففى مديرية أسوان نعد ٣٠٥١٩٥ فقط على ٢٢٤٠٠٠ فدان أى أن المتوسط هو ٢٨٥ فى كل كيلو متر مربع ، وكذلك فى الشمال فى جهة البحيرات حيث الأراضى شديدة الانخفاض والملوحة والرطوبة ، فان لدينا هناك أضعف المتوسطات الريفية ، إذ يوجد فى كفر الدوار على مقربة من الاسكندرية ١٨٥ شخصاً فى كل كيلو متر مربع ، غير أن عدم التساوى فى التوزيع إذا كان يشرح بوساطة التأثيرات الطبيعية ، فانه لا يحدد بوساطتها ، إذ أن الاستعداد لسعة السكان فى الجهات المتطرفة التى عيناها آنفاً بعيد عن أن يكون قد امتلأ . وهنا ينبغى الالتجاء إلى عامل نفسانى من الدرجة الأولى فى الأهمية وهو : العادات . ففى عقل الانسان يؤثر الزمان بمقدار ما يؤثر المكان . وفى الواقع أن الفلاح ذو مزاج مستقر إن لم نقل : إنه ملازم لداره ، فهو يبقى مسمراً فى قريته التى هى مسقط رأسه والتى تمثل له اطمئنان الحاضر والماضى . هو على العكس من قروبى فلسطين وسوريا لا يهاجر ليجرب حظه ، بل هو لا يذهب ليبحث عن عمل فى مديرية أخرى

---

(١) من الملكيات التى عددها ٢٨٣٢٣٢ الموجودة فى تلك المديرية يملك ٢١٦٨٦١ الفلاح أقل من فدان ومتوسطها ٤ ، من الفدان .

تقل فيها الأذرعة إلا إذا صودر وأخذ بالقوة . وإذا غادر بلده ، فليس إلى قرية أخرى لا يمكن أن تساوى قريته ، ولا يمكن أن تكون حياته ولا ربحه فيها أحسن ، ولكن إلى المدينة ، وعلى التفضيل إلى القاهرة .

وهكذا تندر الانتقالات ، ولكي يُعَمر المُلاك أراضى البرارى الجديدة رغم شروط الدفع والسكنى المفيدة التى يعرضونها ، هم يحصلون بصعوبة على الأيدى العاملة الكافية .

ريفي متزاحم مستقر ، كذلك يبدو لنا الشعب المصرى فى خصائصه السائدة . ولقد تسببت هذه الخصائص فى ازدحام وادى النيل بقدر ما تسببت فيه الحاجات وإمكانات الأرض . ومع ذلك فنحن لا نعتقد أن هذا الزحام هو إلى حد أنه يمكن أن يصير خطراً .

إن التربة السهلة تضاعف عدد الزراع ، ولكن الزراع أيضاً يضاعفون حجم الأرض . وإذا نما عدد الاهلين الزراع فان الأرض القابلة للزراعة والمقوتة تنمو ويمكن أن يكون نموها فى الإثمار بقدر ما يكون فى الكمية .

بوساطة تعميم الرى الدائم واتساع استعمال الأسمدة الكيميائية — وذلك رغم إنهاك التربة الناشىء من القطن — قد تضاعف دخل الأرض ، والمسطح الذى يزرع واقعياً فى كل عام يمثل تقريباً من تسعة ملايين فدان .

ومن ناحية أخرى فبين سنتى ١٨٩٧ و ١٩٣٧ بفضل أعمال المصارف والتحسينات المدخلة على التربة ( الأرض البور والبرارى ) الواقعة فى طرف الدلتا قد نما المسطح المزروع بمقدار ٧ ٪ ويوجد اليوم ٥٤٠٠٠٠٠ فدان منتجة ولا يزال ١٧٠٠٠٠٠ فدان بدون استغلال ، إذ أن مجموعة مسطح الأرض المصرية الصالحة للزراعة هى ٧١٠٠٠٠٠ وهذا الهامش يمثل نوعاً من الاحتياطى يؤخذ منه بقدر ما تتطلب

الحاجات وتسمح الوسائل و يستصلح منه ٨٠٠٠ فدان تقريباً فى كل عام . وعند ما ينتهى منه سيبقى السودان الصالح للاستقبال والقليل التعمير والذى هو يطيل مصر العليا ويشبهها .

ولكن مصر لا تزال بعيدة عن درجة التخمة ، وهذه التخمة توجد عند ما تزول المقدرة على الابتلاع أى حينما تصبح كمية الوسائل فى بلد من البلاد عاجزة عن تقويت السكان الذين يشغلونه فى مستوى حياتهم .

وما دام أن موضوع هذه الدراسة هو الفلاح ، فانه ليس عندنا نية عرض دراسة الشعب المصرى بطريقة تامة ، و إنما سنقتصر على هذه المسألة فحسب ، وهى : هل يوجد زحام فوق الطبيعى فى القرى ؟

٧١٠٠٠٠ فدان — وهى مجموعة المسطح الصالح للزراعة — تستطيع أن تقوت ١٤٢٠٠٠٠ فلاح ، ففى الواقع أننا إذا سايرنا نفقة المعيشة فى القرية حتى مع فرضنا تحسين مستوى حياة الفلاح فان دخل نصف فدان يمكن أن يحقق قوته . إن متوسط دخل الفدان هو اثنا عشر جنيهاً . فلنأخذ أسرة ريفية مكونة من ستة أشخاص مثلا : أب وأم وأربعة أولاد ، فالجميع يستطيعون أن يعيشوا من ثلاثة أفدنة أى من ٣٦ جنيهاً فى العام وثلاثة جنيهات فى الشهر . و ينبغى أن تضاف إلى ذلك الوسائل الصغيرة التى تأتى بها المرأة ( كبيع البيض والطيور المرباة فى المنزل ) بهذا لا تعيش هذه الأسرة فى البأساء وتستطيع أن تدخر .

سيتحقق من هذه الحالة عندما سيكون فى البلاد ١٤٢٠٠٠٠ شخص لا يعيشون إلا من العمل فى الأرض ، وهذا يقتضي أن يكون سكان مصر عشرين مليوناً لأننا لا نعد هنا المدنيين ولا الريفيين الذين ليسوا زراعاً كالصناع والملاحين والتجار ، فهؤلاء كأولئك لديهم وسائل أخرى للعيش .

ولما كان لا يوجد اليوم اثنا عشر مليوناً من الفلاحين بالمعنى الضيق المراد هنا فانه

يبقى إذاً ، هامش قدره ثلاثة ملايين للحقوق بمستوى التخمة ولكن ذلك لن يكون قريباً ، لأنه إذا كان النسل القروى قوياً جداً : ٤٤ فى الألف ( أى متوسط ثمانية مواليد فى كل أسرة ). وإذا كانت الهجرة جد ضعيفة ( ١ ٪ ) فان وفايات الأطفال — وعلى الأخص بالزهرى الوراثى — تبقى جديرة بالاعتبار ، وهو يبيد أكثر من نصف المواليد . ففى سنة ١٩٣٤ مثلا بدون عد الأطفال الذين يولدون أمواتاً كان الأطفال الذين توفوا قبل العاشرة يمثلون ٦٥ ٪ من الوفايات العامة ، والذين لا يلحقون من بين الأحياء ٢٠ عاماً هم بقدر الذين يتعدونها . وفى المجموعة بين الإحصاء وفايات قدرها : ٦ ، ٢٦ فى الألف ، وفوق ذلك فان الأمراض المتوطنة التى تهاجم الشعب القروى وتضعفه تقف متوسط سن الجيل عند الستين ، والرجال الذين يولدون أكثر عدداً من النساء يلحقون الشيخوخة بهيئة أندر منهن .

وأخيراً قل تعدد الزوجات ، ففى سنة ١٩٣٤ من بين ٣٠٧٩٤ مسلماً قد تزوجوا ، كان ٣٥٠٠ فقط من ذوى الزوجتين .

من المحقق أنه بتقدم الصحة العامة يمكن أن تنجو حياة كثير من الأنفس ، فإذا واجهنا الأمور فى أحسن صورها ، فإن الشعب القروى يمكن أن يزيد مائتى ألف تقريباً فى كل عام بدلا من ١٦٨٠٠٠ كما حدث فيما بين سنتى ١٩٢٧ و ١٩٣٧ وإذ ذاك يصير عدد الفلاحين أربعة عشر مليوناً بعد أربعين سنة .

تلك هى نقطة الاتخام إذا لم يكن المصريون إلى ذلك العهد قد عرفوا كيف يصيرون الأرض أكثر إنتاجاً ، ولكن تلك الأرض ليست عند نهاية استعداداتها ، فكل الناس يعرفون — والتجربة تؤيد ذلك — أن الفدان بقليل من العناية يغل سبعة أرادب من القمح بدل خمسة ، وعشرة من الذرة بدل سبعة .

ولكى نعود إلى الحالة الراهنة نقول : إننا إذا اعتبرنا كل مديرية على حدة ،

نلاحظ أن عدد السكان يتفق فى العموم مع عدد الأفدنة حسب النسبة التى حكمنا بأنها ضرورية أى نصف فدان تقريباً لكل شخص ، فمثلا لكى لا نذكر إلا المديريات الأكثر ازدحاماً فى الوجه البحرى نقول :

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الغربية .... | ١٦٢١٠٠٠ | فدان | على | ١٩٦٣٦٥٤ شخصاً |
| الدقهلية .... | ٦٣٢٠٠٠ | » | » | ١٣١٥٤٤٠ » |
| الشرقية .... | ٨٥٢٠٠٠ | » | » | ١١١٩٣٣٦ » |
| البحيرة .... | ١٠١١٠٠٠ | » | » | ١٠٦٠٨٨٩ » |

ان مديرية المنوفية التى تحدثنا عنها هى وحدها التى يبدو أنها لحقت درجة التخمة ففيها ٣٨٣٠٠٠ فدان على ١١٥٧٤٣٣ شخصاً أى أقل من ثلث فدان لكل فرد .

ولهذا بينما كانت المديريات الأخرى فيما بين سنتى ١٩٢٧ - ١٩٣٧ تسجل زيادة قدرها ١٠٪ لم تكن زيادتها هى إلا ٤٪ ( فى سنة ١٩٢٧ كانت ١١٠٥١٩٧ )

و بالايجاز يوجد تضخم فى الشعب ، ولكنه محصور ونسبى . والدواء ليس فى « المتوسية » ( أى تحديد النسل ) كما يطلب ذلك بعض الملاحظين السطحيين ، ولكنه فى سياسة التقسيم والتوزيع وزيادة الإنتاج . والحكومة وحدها لا تستطيع أن تقوم بالتطبيق الناجع لهذه السياسة . وهناك كما فى كل المشكلات الفلاحية التى سنلتقى بها : التربية قبل كل شىء .

لم تكن غاية هذا الفصل هى إعادة الكتابة عن جيوغرافية مصر أو دراسة شعبها ، ففى هذه الحالة كان سيجىء غير كامل ، وكان عدم الخرائط سيكون فيه ثغرة ضخمة ، فنحن قد أردنا - باعتبار الأرض بقدر ما أردنا ذلك باعتبار السكان و بالصلة بين هذين المظهرين - أن نظهر أن مصر هى قبل كل شىء بلد زراعى ، ولن يقتادنا ذلك الى زراعتها ولكن الى الرجال الذين يقومون بتلك الزراعة والذين قد تكونوا بوساطتها وهم الفلاحون .

## الفصل الثالث

# الاطار الاجتماعى

## مصر بـــــلد أوليجارشى

---

في الدولة وفي الجماعة - واليوم كأمس - يمثل شعب مصر القروى الجمهور والكمية وكأنه المادة الأولى . إنه يؤلف الدعامة ، وكنا سنقول أسس البناية الحكومية والاجتماعية هذه البناية المزدوجة هى التى تهم معرفتها قبل مرافق الفلاح فى حياته .

إن واجهة مصر العصرية هى من طراز حديث ومختلط . وهذه الواجهة تشغلها ثلاث مدن وهى : القاهرة والاسكندرية وبور سعيد بنشاطها المتضاعف الساطع .

القاهرة بجامعتيها المحتويتين على عشرين ألف طالب ، وبمتاحفها ومعاهدها العلمية ومؤتمراتها الدولية ، ومحاضراتها الشتائية وقصورها . . .

والاسكندرية بمرفئها التجارى العظيم ( وبورستها ) القطنية وحماماتها الفاخرة ، ومعاهدها الأجنبية و إفريزها . . .

وبور سعيد - وهى طريق الهند - بقناة السويس وكل التجارة التى تنتجها . . .

على هذه اللوحات الثلاث تصطف طوائف اجتماعية متزاحمة ومتباينة ، وهى تخفى مصر الأساسية كما تخفى أحجار الفسيفساء الأسمنت الرمادى الذى هى ملتصقة به . . لأنه على نفس النهج الذى كان يقال به سابقاً عدة « روسياوات » و « ألمانياوات » من الحيثية الاجتماعية يمكن أن يقال اليوم « الأمصار » نعم لا توجد هنا جماعة مصرية

بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة فى الأدب أو فى التاريخ ، ولكن يوجد فقط مجتمع متقلب ومتباين لا يكاد يلتئم مع البلاد ، وكذلك لا توجد جماعة قروية وإنما يوجد فقط جمهور ذو طبيعة واحدة مؤلف من قرويين منتسبين الى الأرض ومستقرين فى القرى .

فى كثرة لا تؤلف جسما تتلامس الجمعيات أو يتكدس بعضها فوق بعض دون اتساق ولا تداخل ، بل دون تعارف .

لا يعرف مدنيو القاهرة أو الاسكندرية الريف الا كمنظر يلمح فى الخارج من باب السيارة أو مركبة القطار ، وكذلك الفلاحون المحصورون فى حقولهم وقراهم لا يعرفون المدينة الا عن طريق العمدة أو البقال الإغريقى أو الناظر .

وفى القاهرة نفسها أو الاسكندرية اللتين تجمعان أريستوقراطية مصر لا تختلط الجماعات الا بأطرافها ، وكل فرد يقتاد حياته الخاصة الكافية ، ولكل واحد عقليته ومصره .

هذا هو العالم الوطنى ، وهو قبطى أو مسلم ، وبيئة الملاك الأثرياء هى مغايرة لبيئة الموظفين ، وطائفة الأزهر الدينية لا تكاد تتصل ببيئة الجامعة الملكية المدنية ، وفى الاستقبالات والحفلات يظل عالم المجتمعين ذكوراً ، والنساء يؤلفن عالماً آخر وهناك أيضاً بيئة القصر ، وبيئة الأمراء المستقلة وهكذا .

وها هى ذى « الجاليات » انها قد تمصرت . هذا هو مظهرها العام ، ولكن كل واحدة منها تحتفظ بسحنتها وميولها : السوريون النشطاء الجرآء ، واليهود الماليون المقتدرون ، والانجليز المترفعون أصحاب « تورف كلوب » والفرنسيون والبلجيك ذو الشركات العظمى : ( الغاز ، والمياه ، والبنك العقارى ، والسكر ، وقناة السويس ) . والإيطاليون المتخصصون فى العمارة والتجارة ، والإغريق الأكثر عدداً وقرباً من الشعب .

كل هذه البيئات المدنيـة فى جوهرها هى بصفاتها ورؤوس أموالها كأنها الخميرة الاقتصادية والمالية والسياسية لمصر ، ولـكنها لا تكاد تـكون خميرة اجتماعية ، لأنها لا تمتزج بالعجين لترفعه ، وهى لا تجذبه معها فى تطوراتها ، وإنما هى - من الخارج وعلى بعد وعن طريق عدد من الوسطاء - تعجنه وتستخلص منه كل ما يمكن استخلاصه .

إن مستودع ثروة مصر هو دخل الأرض عن طريق عمل الفلاح ، ولـكن قبل كل شيء ما هو النظام الشرعى للتربة المنتجة ؟ إذ أن التكوين الاجتماعى للبلد الزراعى يرتسم على نظامه العقارى .

إن الأراضى النافعة فى مصر - وهى الثلاثون ألف كيلو متر مربع تقريباً التى تمثل ثروة قدرها ٤٣٥ مليـون جنيه - تنقسم إلى ممتلكات أميرية ( وهى الممتلكات الحكومية الخاصة ) وممتلكات الاوقاف ( وهى غير قابلة للانتقال ) والممتلكات الشخصية .

## الدولة والارض

فى سنة ١٨١٣ بعد أن صادر محمد على ( ١٧٦٩ - ١٨٤٩ ) مؤسس مصر الحديثة ثروة المماليك قسَّم الأراضى التى كانوا يمتلـكونها الى مناطق ثم وزعها على القرويين ، وهـكذا نال كل زارع من ثلاثة إلى خمسة أفدنة بعنوان مستثمر . وقد ظل الى سنة ١٨٤٠ تحت نظام الاحتكار ، فكان يجب عليه أن يسلم إلى مستودعات الحـكومة كل قطنه فى مقابل ثمن رسمى أدنى من الثمن الحقيقى . أما الغلال التى يستطيع بيعها بعيداً ، فقد كان يدفع عنها حقوقاً تبلغ ثمانية عشر قرشاً عن كل إردب بمقتضى المبدأ الإسلامى كان الحاكم الأعلى - وهو فى الماضى السلطان أمير المؤمنين ، والآن واليه المتحرر - يبقى مالكاً لجميع الأراضى المفتوحة باسم الله ، ومع ذلك فالأراضى التى تنازل عنها السلاطين السـابقون للأفراد والتى كانت تمنح لرؤساء الضرائب والثروات المنتقلة الى الأوقاف كانت تظل خارج ممتلكاته ، وفوق ذلك فإن أراضى واسعة وغير منزرعة

قد أقصيت عن سجل المساحة فبقيت غير خاضعة للضرائب ( الى سنة ١٨٥٨ ) ثم عزيت ملكيتها الى الأعيان وكبار الموظفين وأعضاء الأسرة الحاكمة القادرين على جعلها مخصبة ، وهذا هو منشأ الملكية الكبرى .

أما الملكية الصغرى فقد تكونت صادرة عن تقسيم الاراضي . وفى سنة ١٨٤٦ قد أذن للفلاح المستثمر فى أن يتنازل عن نصيبه بطريقة شرعية مع احتفاظه بحقه في الاسترداد بدون إمكان سقوط الحق ، وكذلك إذا خرج من الملكية بسبب تأخر الضرائب فانه بمجرد استطاعته دفعها يعود الى ملكية حقله . وبعد ذلك بقليل أصبح أولاد المستثمرين يستطيعون الاستمتاع بنفس حقول آبائهم، ولم يكن هذا عن طريق الإرث ، وإنما هو منحة من الحكومة. وفى ١٨٧١ عرض اسماعيل باشا الموهق بالديون على المستثمرين أن يمتلك كل من يستطيع منهم دفع ضريبة ستة أعوام مقدماً نصيبه امتلاكاً كاملا، ولكن هذا القانون لم يفز إلا بنصف نجاح ، وقد ألغى فى سنة ١٨٨٠ غير أن مبدأ ملكية الفلاح قد صار حقاً مكتسباً وقد اعتمدته الحكومة ببيعها فى كل عام لصغار الملاك قطعاً من ممتلكاتها .

ومع ذلك فقد ظلت نسبة الضرائب وطريقة دفعها خاضعتين للأهواء الشخصية وكانتا سبباً فى نشوء عسف فظيع ، وقد اكتشفت « اللجنة العليا لتحقيق الضريبة العقارية » ( ١٨٧٨ - ١٨٨٠ ) ذلك فى جميع المديريات وبأعظم النسب فصارت المساواة فى توزيع الضرائب شيئا يقتضى سرعة البت ولكن لابد قبل ذلك من وضع سجل جديد بطريقة علمية اذ كان محمد على فى تقسيماته قضائيا أكثر من المألوف .

وفى سنة ١٨٩٢ شرعت مصلحة المساحة التى كانت قد أسندت الى مهندسين من الانجليز فى ذلك العمل الضخم وهو تجزىء الارض ، فبعد أن استبعدت مقادير الطرق والقنوات والحدود الطبيعية قسمت أراضى كل قرية ( زمامها ) وهو ٢٠٠٠ فدان تقريباً الى أجزاء ( أحواض ) كل منها من خمسين الى مائة فدان متحدة

القيمة والخصائص بنسبة ٩٥ ٪ على الاقل ، وهذه الاحواض محددة بقطع من الحديد ورسم المساحة لكل قرية — وهو المعد على أساس ١/٢٥٠٠٠ لجميع الاراضي الزراعية ثم تقدم فصار ١/٢٥٠٠ - يعين كل حوض برقمه السائر طبق النظام والتقدير . أما مقر السكنى فهو مرسوم فى صورته العامة ومعفى من الضريبة ، وسجل المساحة مضافاً إلى هذا الرسم يعين لكل قطعة من الحوض مكانها ومسطحها بالفدان والقيراط والضريبة النهائية واسم المالك (١)

تم هذا العمل فى سنة ١٩٠٧ ولكن الحكومة كان لديها منذ سنة ١٨٩٩ من العناصر ما يمكنها من تحديد النسبة العامة للضريبة وقد حددتها بنسبة ٦٤ ، ٦٥ ٪ من قيمة متوسط ايجاره ، وهذه القائمة المحددة مشروعة لمدة ثلاثين سنة.

هذا المتوسط المؤسس على مقتضى تقدير لجان من الوطنيين يراعى طبيعة التربة وما تحتويه من ملح ورمل وماء ، ومسافتها من النيل ، ولكنه يراعى اكثر من ذلك ظواهر الجيوغرافيا الانسانية كسهولة الرى وصعوبته وكانتاج القطن وقرب الارض من المدينة أو القرية وقدم الاستغلال ونوع اليد العاملة والمواصلات والأمن وقانون العرض والطلب ... وبالاجمال : هو يراعى نفس الاسباب التى تؤرجح ثمن الفدان بين ٤٠ جنيهاً و١٨٠ وهكذا توجد اثنتان وعشرون درجة من القيم يمتاز بعضها عن بعض وإذا كانت الضريبة تتأسس على نفس النسبة ، فانها تتراوح بين ١٤ قرشاً و١٦٤ قرشاً . وفى سنة ١٩٣٩ حدد القانون رقم ١١٣ الضريبة الجديدة بنسبة ١٦ ٪ من قيمة إيجار الأراضى ، وذلك حسب التقدير الذى أجرته فى جميع البلاد لجان خاصة على متوسطات إيجارات الاعوام العشرة السابقة ، ومع ذلك فان رقم الضريبة كما كان قبل لا يمكن أن يتعدى ١٦٤ قرشا للفدان .

---

(١) "the Cadastral Survey of Egypt" سجل المساحة المصرية ، ١٨٩١ - ١٩٠٧ تأليف ك ا ب . هـ . ج . ليونس ، وزارة المالية القاهرة سنة ١٩٠٨ ، ٥٠٠ صفحة .

ذلك بدون إضرار بضريبة النخل - الى سنة ١٩٢٠ - وهي قرشان ونصف على كل نخلة ، ويجرى التعداد فى كل خمس سنين ، ولا بحقوق الرى وهى خمسون قرشاً عن كل فدان فى الأراضى التى يمكن أن يحدث الرى الصيفى فيها بوساطة الجريان الطبيعى (free flow) وثلاثون قرشاً فى الأراضي المحتاجة إلى آلات رافعة (lift flow) وقد تنبه الى إنقاص الضرائب فى حالات لحوق أضرار بالزراعة بوساطة نقص الماء على أن تكون بحيث يتطلب ريها تكاليف ضخمة ، والذى يدفع الضريبة هو المالك وحده .

وكما أن رقم الضريبة محدد ، كذلك يوم الدفع محدد من قبل ، وهو يختلف فى كل مديرية حسب تواريخ الغلات الأساسية فيها ، وتجرى الدفعات بصورة تحقق سداد كل ما يجب على الأربعة والعشرين قيراطاً فى آخر العام . ففي القليوبية مثلاً فى يناير ٢ وفى مارس ٣ وأبريل ٣ وفى أكتوبر ٨ ونوفمبر ٨ ، وفى أسوان فى سبتمبر ١٢ وفى أكتوبر ١٢ وهكذا تجرى الدفعات الضخمة كما يرى على الأخص فيما بين سبتمبر ونوفمبر أى فى موسم غلة القطن .

تدفع الضريبة فى القرية عن طريق الصراف ، والإخطار ( الوِرْد ) الموقع عليه يستعمل كمخالصة . وإذا لم تحدث الدفعات - وهو شيء مألوف - فإن الحكومة تتقاضى حقها بوساطة الحجز الإدارى والبيع الجبرى . فمثلاً فى عدد يناير من سنة ١٩٣٧ من الجريدة الرسمية قد أحصينا ٧٣٢ نزع ملكية ، وكلها تقريبا ملكيات صغيرة ، وهى دائماً معلنة فى صيغة واحدة ، وهى « فى ١٩ يناير ثلاثة قراريط يملكها إمام إمام ابراهيم المقيم بقرية كفر منصور مركز طوخ بحوض مدور رقم ٤ قطعة رقم ١٩ ومحجوز عليها بمقتضى صورة دعوى ٢ مارس سنة ١٩٣٦ وذلك لسداد الأقساط ، والثمن المحدد هو تسعة جنيهات وستون قرشاً للقيمة المحجوز عليها »

إن الحكومة أكثر صبراً مع كبار الملاك ، وقد اعترف لنا أحد الصيارفة بأن

هذا ظلم ، ولـكن قد يكون الظلم فى التطبيق لا فى نفس النسبة التى هى – فيما عـدا أوقات الازمات – ليس مبالغًا فيها ، إذ هى تقتضى فقط ممولا لا يكون ادخاره فى حالة سيئة ودخلا بدون تقلب محسوس .

وإذاً ، فإذا أضفنا إلى الضريبة العقارية ( وهى خمسة ملايين ونصف ) الضرائب المستحقة على بيع القطن ودخل الممتلكات الخاصة للحكومة فان الارض تدر عليهـا نحو عشرة ملايين من الجنيهات فى العام أى ما يقرب من ربع إيراد الميزانيـة ، ذلك لان الحـكومة هى أول مالك فى مصر ، إذ أنها – زيادة على الاراضى المرصودة فى سجل محمد على والتى لم يشترهـا القرويون – قد امتلكت فى سنة ١٨٧٨ ثروات الاسرة الخديوية فى مقابل دفع جـزء من ديون إسماعيل الجسيمة ثم نمت ممتلكاتها بإصـلاح مساحات جديدة في جهة البحيرات وعند حدود الصحراء . وهكذا لا تزال الحـكومة تملك خمس المسطح الزراعى الذى هو سبعة ملايين فدان أى تملك بالضبط ١٤٧٠٣٠٥ وهى تستغل منها مباشرة ٤١٨٧٧٨ منتشرة على الاخص فى مصر السفلى تلك الممتلكات الضخمة المعفـاة من الضريبة منها قسم مرهون ( لضمان الدين العام ) وقسم غير منتج . ومع ذلك ففى كل عام تصلح الحكومة حوالى ٨٠٠٠ فدان من تلك الاراضى الشديدة الجفاف أو الشديدة الرطوبة وتبيع القسم الأكبر منها للأفراد : صغار الزراع . تشغل ممتلكات الحـكومة وتقوت نحو مليونين من الفلاحين الأجراء والمستأجرين . . . وهناك كثرة لا تكاد تقل عن ١٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة تعمل فى أراض لن تستطيع امتلاكها أبداً .

## الاراضى الموقوفة

منذ الفتح الاسلامى ولغـاية من غايات التقوى ، ولـكن أيضا لوضع الثروات فى مأمن من مصادرة الامراء أو من إسراف الورثة قد حول كثير من الملاك كل

أراضيهم أو قسما منها إلى الوقف أى أنهم بوساطة نوع من التخصيص الديني أو الهبة للإله قد صيروها شرعًا وأبداً غير قابلة للانتقال، ولكن دخلها معد للمساجد والمدارس والمقابر والملاجىء . . . وهو الوقف الخيرى ، أو عائد الى المنحدرين من المالك الى انطفاء الاسرة. وإذ ذاك يرد هذا الدخل الى الاعمال الخيرية ، وهذا هو الوقف الاهلى

ولما كان الإله وحده هو المالك فان المنتفعين بالاراضى الموقوفة لا يستطيعون أن ينالوا منها إلا الريع ، ولكنهم لايتصرفون فيها ألبتة. وقد تبع المسيحيون الشرقيون هذا النوع من الايداع ، واليوم أكثر من ٦٠٠١٠ فدان أى سدس الاراضى المنزرعة تقريبًا توجد على هذا النحو خارج الاعمال التجارية .

هناك وزارة ـ وهى وزارة الاوقاف ـ تسهر على استغلال الموقوفات القديمة للمسلمين وعلى تحقيق مقاصد الموصين والواهبين ، غير أنه من الواضح أن هذه الممتلكات المحبوسة التى ليس لها مالك إنسانى هي أقل الممتلكات إنتاجا ، ومع ذلك فبهذا السبب نفسه وبسبب قلة الحمية لدى النظار والوسطاء الذين يتقاضون أجورهم ببحبوحة على الدخل أيا كان ، يعيش الفلاحون على أرض الوقف بدون كثير عناء

## الملكية الخاصة

يروق النشرات الحكومية أن تعلن أن مصر بلد الملاك الصغار ، وهى تستشهد على هذا بالإحصاءات الرسمية . وفى الواقع يوجد مليون ونصف من الفلاحين يملك كل واحد منهم حوالى ثلث فدان ، ونصف مليون من الفلاحين الآخرين يملك الواحد منهم من فدان الى خمسة ونحو ١٥٠٠٠ يملك الواحد منهم من خمسة الى عشرين فدانًا ، ولكن هؤلاء الملاك الصغار جميعًا لا يستحوذون على أكثر من نصف الاراضي المنزرعة . وفي أربعين سنة ازداد المسطح الذى يملكه صغار الملاك ٨٠٠٥٠ فدانـًا

أى ٨٣ ٪ على حين أن عدد صغار الملاك قد زاد الى ٣٥٥ ٪ [1] لانه اذا كان هناك من ناحية ٢٢٨٤٥١٣ شخصاً يملكون أقل من مليونى فدان ، فانه من ناحية اخرى يوجد أكثر من مليونى فدان يملكها فقط ١٢٥٥٩ ! مالكا . وبين هؤلاء الاخيرين ثلاثة وعشرون مصريا وخمسة وعشرون أجنبيا يملكون وحدهم حوالى ٣٠٠٠٠٠ فدان . وأول هؤلاء الملاك الكبراء هو المغفور له الملك فؤاد الاول الذى كان يملك ثمانمائة فدان عند صعوده على العرش سنة ( ١٩١٧ ) ثم ترك عند موته سنة ( ١٩٣٦ ) بفضل إدارة ماهرة ٢٨٠٠٠ فدان ، وهذا بدون اعتبار دخل ال ٤٥٠٠٠ فدان وهى الاراضى الموقوفة الموكولة الى رعايته . ومجموعة ممتلكات الشركات المجهولة الاسماء تبلغ ١٥٠٠٠٠ فدان . وهذا هو السر فى أن مصر قد ظلت بلد كبار الملاك .

توجد الملكية الكبرى على الأخص فى مصر العليا وفى الجهات التى أصلحت حديثاً من الدلتا ، وهى لا تبقى دائماً فى الأيدى ذاتها بل إن بعض الملكيات قد غيرت سادتها ست مرات فى عشرين سنة دون أن تتبدل إدارتها من أجل ذلك .

كما تفعل شركات : ( السكر ، وكوم امبو ، والبحيرة . . . ) والمصارف : ( كالبنك العقارى ، ولند بنك وغيرهما ) ومصالح الأوقاف والأملاك الأميرية ، كذلك يستغل كبار الملاك أراضيهم بوساطة دوائرهم ونظارهم .

الدائرة هى مكتب الإدارة والحساب ، ومقرها المدينة ، وهى تنجز الطلبات والمشتريات وتتم القروض والبيوع وتدفع الضرائب . . .

---

(١) ان نتيجة هذا التفاوت هى ان المسطح الذى يملكه كل واحد منهم ينقص باطراد : ففى سنة ١٨٩٧ كان متوسط ملك كل واحد من ملاك ما دون الخمسة أفدنة فداناً ونصفاً ( ٥٨ ، ١ ف بالضبط ) واليوم ليس المسطح المملوك إلا ٨٢ ؛ . من الفدان لكل فرد وذلك ضئيل .

والناظر هو فى الحقول ممثل المالك ونائبه المنفذ وهو الآلة العاملة فى الاستغلال . ولما كان مفرطاً فى الخضوع للمالك بقدر ما هو معدوم الشفقة بإزاء الفلاحين ، فإن مهمته تنحصر فى الضغط بكل الوسائل على الآلة الزراعية — وهى الفلاحون — لكى يزيد فى دخلها . « إنه كالمنشار طالع يا كل ، نازل يا كل » ( مثل فلاحى ) هو الذى ينظم الحرث والتسميد والبذر والضم بمقتضى وسائل تجريبية جامدة ، ومع ذلك فالملاك يفضلون خدماته وتجاربه على معاونة المهندسين الزراعيين الذين لم يستحوزوا بعد فى الحياة القروية المصرية على الدور الذى أعدوا له .

أما أملاك الحكومة والملك والأمراء كما فى المستغلات الكبرى فإن الإدارة فيها أكثر تعقداً إذ أفرعها المختلفة تؤلف من تفاتيش تقام لها مقرات في العزب ، لأن العزبة مرتبطة بالملكية الكبرى ، وهى مقر المساكن المعدة لعمال الضيعة والمنفصلة عن القرية أو هى مبانى الدسكرة التى يملكها رب الضيعة . ولم يرجع هذا النوع إلى قرن مضى وإنما هو قد نظم فى سنة ١٩١٣ وجدد فى سنة ١٩٣٣ .

« لا يمكن أن تبنى اية عزبة فى ضيعة بدون إذن مجلس المديرية الذى يجب أن يراعى مساحة أراضى مقدم الطلب ومسافاتها من القرية وعدد الزارعين المراد إسكانهم » لان القانون الذى لا يسمح « بأية حالة ولأى شخص كان بأن يبنى مساكن فِي الاراضى الزراعية الكائنة خارج ( دائرة الناحية ) » لايزال قائما .

يوجد اليوم أكثر من خمسة عشر الف عزبة ، وأهمية كل واحدة منها وتعميرها

---

وهكذا يكون نمو الملكية القروية فى مصر قد عنى فقط الملكية الصغيرة التى زادت فى العدد ولكنها نقصت فى متوسط المسطح على حين أن الملكيتين : الكبرى والوسطى قد ظلتا بدون تغير تقريباً واستمرتا مستحوزتين على مسطحات واسعة ( ج . انبورى ، المظاهر الكبرى للاقتصاد الزراعى فى مصر . المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩٤١ صفحة ٦٤ )

يرتبطان باتساع ضيعتها ، وعدة من هذه العزب قد صارت قرى حقيقية ، ولكن أكثرها من الناحية الادارية يتعلق بالقرى التى انفصلت منها .

وهنا كل أدوات الاستغلال والآلات القديمة والحديثة أى الساقية أو المضخة المازوتية والنورج والدراسة الميكانيكية والمستودعات وفى أغلب الأحوال المواشى ، كل ذلك يملكه رب العزبة . واذا كان هذا المالك يشتغل بالزراعة المباشرة كان الفلاحون أجراء بالمياومة وإلا فهم شركاء أو مستأجرون ، وفى إحدى الحالات أو فى الأخرى هم ينتسبون بنوع ما الى الأرض وهم يظلون فيها رغم تبدل المُلاك إلا لسبب قاهر كالطرد الجبرى .

فى الواقع عندما يرهن المالك أرضه ـ وتقدر الأراضى المثقلة على هذا النحو بمليون من الأفدنة ـ ولا يدفع فوائد دينه يحدث أن يحجز المصرف الدائن على الملك . وفى سنة ١٩٣٥ نزعت ملكية خمسين ألف فدان بسبب الديون ، وفي هذه الأحوال يحجز فى الوقت ذاته على حصص الفلاحين غالباً ، إذ منذا الذى سيميزها ؟ وأحياناً يكونون قد دفعوا بالفعل ما كان يجب عليهم للبك أو للباشا ، وهم ليسوا مسئولين عن ديونه ، ولكن ما أهمية هذا فى نظر الدائنين ؟ إنهم يحجزون على الثروة المرهونة . . .

كان أحد المصارف الكبرى قد انتزع عزبة يملكها أحد أعيان بلدة شبرا ريس مركز كفرالزيات وكانت هذه العزبة تحتوى على عدة قطع من الارض مجزأة ، وكان عدد كبير من القرويين يقطنها منذ اكثر من عشرين سنة ، وحينما وصل مندوب المصرف ليقوم بإجراءات نزع الملكية عارض السكان ، وكان لابد للشرطة من التدخل وقد انتقل معاون المركز على رأس قوة مسلحة إلى موضع الحادث ، ولكن الاهلين هاجموه فلما رأى ان الحالة ستصير أكثر سوءاً ألفى نفسه مضطراً إلى إطلاق عدة طلقات نارية فى الهواء ، ليرهب الفلاحين غير أن نتيجة هذه المناورة كانت إثارتهم

فشرعوا فى قطع الاسلاك التليفونية وإحراق سيارة المندوب ولم تلبث قوة اخرى أن وصلت للنجدة ، ولكنها كانت فى عدم الكفاية شبيهة بالاولى فاتى المدير الى مكان الحادث على رأس قوة ثالثة ولم يستقر النظام إلا حين أطلق عدد آخر من الطلقات فى الهواء وقد جرح سبعة من رجال الشرطة ، لان السكان قد رشقوهم بالحجارة ، وقبض على عدد من القرويين وكلف أحد وكلاء النيابة بإجراء تحقيق (١)

هذه هى قصة عادية وفى مثل هذه الحالة دائما تقريباً يكون المالك غائباً .

إن المالك العقارى الكبير ، ولو كان من أرومة فلاحية - والارض فى اكبر أجزائها ومن كثير الى أكثر مملوكة للمصريين - لا يعنى بعزبته إلا من حيث هى منتجة دخل . إن مثله كمثل رؤساء الأديرة السابقين لا يذهب اليها إلا قليلا ولا يقيم فيها الا نادراً . أما عماله فهو لا يعرفهم الا عن طريق المال الذى يضعه ناظره بين يديه ، وهو لا يدرى عن أسرهم أى شيء . انه يجهل حياتهم كأناسى وحاجاتهم الاجتماعية .

المالك الكبير متأغرب يعيش فى القاهرة والاسكندرية ويمضى الصيف فى أوروبا ، والكل يعرف كم هو ينفق ثروة مصر . إنه يبذر فى مساء واحد ما يقوت فلاحيه مدة سنه ، وهو يرى بأساءهم ورفهنيته أمرين طبيعيين .

ليس بينه وبين رجاله أية جامعة ولا أى ماض يجتذبه أو يستبقيه فى قرية كهذه .

لا يوجد أشراف (٢) عقاريون فى مصر الحاضرة ، ولكن توجد فقط أرستوقراطية المال ، والمال يفضل المدينة .

---

(١) ٢٣ ابريل سنة ١٩٣٦

(٢) لعل المؤلف فى هذا الحكم قد نظر الى المدن ، إذ أن فى القرى كثيراً من الاسر العريقة فى شرف المحتد والتى يصعد تاريخ مجدها على سلم الماضى عدة مئات من السنين . « المترجم »

حدثنا شاهد عيان أن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول فى إحدى زياراته للأقاليم قد وقف ليستمع الأغانى وليرى الرقصات التى ارتجلها له الفلاحون على الطريق، فدهش أحد الوزراء المتملقين من هذا الانتباه وقال :

« ـ مولاى أتضيع دقيقتين هكذا أى كرم !. . .

فأجاب الملك :

ـ لولا هؤلاء الفلاحون يا صاحب المعالى لما كان دخلك خمسة آلاف جنيه، ولما كنت وزيراً ولا باشا » .

إن احتقار الفلاح ناشب فى عقول « المتمدينين » إلى حد أن هذه الكلمة وحدها قد صارت أشد الشتائم إهانة : « يافلاح » أى يابدوى ياخشن، وأراداً من ذلك أيضاً .

لقد لاحظنا في أغلب الأحايين لدى أولئك الأثرياء بإزاء الفلاحين عدم الاكتراث . إنهم « أشياء » لا يليق الاعتناء بها، ومن الممتاز عدم معرفتها أصلاً . ولقد وجدنا لديهم تجاه المسائل الأشد بساطة جهلاً يدل تماماً على أن المسألة بالنسبة إليهم لم تطرح ألبتة ولا تقتضى أية رغبة فى الاطلاع . وهناك آخرون وهم خير من الأولين يتأسفون على جمود الفلاحين وغباوتهم، ولكن بدون أن يعملوا لتحسينهم شيئاً يمكن أن ينقص من دخلهم وكل ذلك يحتفظ ببقاء الطرفين المتعارضين .

ومع ذلك فهناك طبقة قروية من ذوى الثراء، وهى طبقة الملكية الوسطى، وهى ـ كطبقة الملكية الصغرى ـ مرتبطة بالقرية، وهى ميالة الى الربح، محافظة، بسيطة، تعيش فى الريف وتراقب عن قرب دخل أفدنتها، وفى الأعياد والمآتم هى تجود على الفقراء في سعة ، والتلاميذ الذين يختلفون الى المدارس الابتدائية والثانوية فى عواصم

المديريات وطلاب المعاهد الدينية التابعة للأزهر ، والموظفون والضباط ، كل أولئك وهؤلاء ينتسبون إلى هذه الطبقة ، ومنها خرج عظماء رجال مصر العصرية : كالشيخ عبده ، وزغلول باشا ، والنحاس باشا ، وطه حسين . . غير أن عدد هذه الأسر المحافظة قد أخذ يقل شيئاً فشيئاً .

أولا بسبب زيادة الثراء والمطامع . وعلى هذا سيتسلق الجيل الآتى الى الدرجة العليا ويستقر فى القاهرة أو فى الاسكندرية . ولقد أثارت بحبوحة سنتى ١٩١٩ - ١٩٢٠ على الأخص هذه الهجرة ، وكذلك تربية الاطفال على الطريقة الغربية وتذوق أوروبا الذى جلب التقزز من الحياة القروية .

وهكذا اتسعت القاهرة والاسكندرية وجعلتا بهيئة قمينة بالاعتبار منذ خمسة عشر عاماً . وكل سنة تسجل وارداً جديداً من أهل الاقاليم آتياً من عواصم المراكز ومن بلاد جميع المديريات وهم يحضرون معهم المال فتتضاعف البنايات الكبرى و « الفلل » وتهنأ متاجر الرفهنية . . .

ثانياً بسبب تجزىء التركات ، إذ ينال كل واحد من الأبناء نصيباً ، ومن البنات نصف نصيب بمقتضى قانون الإسلام المطبق على الجميع . وهكذا ليس من النادر أن يصبح حفيد مالك ذى اربعين فداناً ولم يعد لديه من نصيب إلا فدان واحد ، واذ ذاك يهوى الى صف الفلاحين .

ليس بوساطة تجزىء التركات دائما تتألف الملكيات الصغيرة ، ولكن بوساطة شراء قطع صغيرة بقدر الإمكان ، اذ الفلاح يشتهى الارض الى حد أنه يشتريها فى أغلب الاحوال بثمن باهظ ، ولعل ذلك أيضاً ناشىء من أنه يشتريها مجزأة أى بالقيراط ولما كانت مؤجراته لا تكفى فهو لكى يملك يستدين .

ذلك لانه بسبب الطلب تباع الحصص للاكثر عرضاً للمال و للمزايدين فى حالة البيع الجبرى ، وقد يحدث ما يلى : تعرض عشرة أفدنة للبيع بثمن قدره أربعمائة جنيه مثلا فيتفق نحو اثنى عشر فلاحاً على شرائها بدون رفع ثمنها وتقسيمها فيما بينهم ، ولكن أحد أثرياء الملاك من جيرانهم يسمع بالقصة فيحضر ويجلس بحالة ظاهرة فى المقهى قبل اعلان المزايدة ببضع ساعات و يؤكد لكل من يريد سماعه أنه سيشترى هذه الحصة بأى ثمن كان. وهنا يأتى الفلاحون الذين سيحرمون و يتوسلون اليه أن ينسحب و يعرضون عليه مبلغاً كتعويض فيدعهم يرجونه و يساومهم ثم يستولى منهم على كل ما يستطيع أن يناله و يغادر القرية مسروراً من ضربته التى سيعدها فى فرصة أخرى والفلاحون أيضا بإعطائهم اياه عشرة جنيهات يظنون أنهم أحسنوا صنعا ..

## الحكومة

تضع الحكومة نفسها فوق رأس المال والعمل والطبقة القروية بوساطة الأرض ، وأكثر من ذلك بوساطة الماء . إنها سيدة الرى وهى لهذا فى نظر الفلاح تتولى أهمية النيل ومقدرته . و بقدر ما تنظم الحكومة النهر تتعلق بها الأرض ، و بالتالى زارعها .

ولما كانت مصر بلداً زراعياً فإن جميع أفرع السلطة فيها تقريباً تنتهي أخيراً بإصدار أوامر إلى الفلاح .

بينما تكل الحكومة فى الصناعة وفى المدينة بكل امتنان مصالح عامة إلى جهات خاصة فإنها فى الزراعة على العكس حتى أن الوظائف التى يحققها فى البلاد الأخرى أفراد ، هى تقوم بها إلى حد أنها في نظر الشعب القروى هى الممثلة للعناية السماوية التى تنظم كل شىء وترتب كل شىء . أما الفلاح في نظر الحكومة فهو يظل دائماً القاصر الذي ينبغى أن تأمره بكل شىء والعاجز الذى ينبغى أن تنوب عنه . . .

وهكذا تدير وزارة الأشغال العمومية رى جميع الزراعة وتعد لكل منطقة نظام أدوارها وتراقب الجسور والقنوات وتستولى على الفلاحين الضروريين عند ما يكون النيل مشرفاً على الفيضان ... ووزارة الزراعة تنظم الأراضى التى ستزرع قطناً والمسطحات التى ستزرع أرزاً ، وهى وحدها التى تبيع بذرة القطن والتى تتحقق من حسن اختيار الحبوب ، وهى التى بالاستيلاء على الرجال تنظم المقاومة ضد دودة القطن والجراد ، ووزارة المالية تتسلم الضريبة عن طريق الصيارفة المنتشرين فى جميع البلاد وتنفذ الحجوز وتشترى القطن لتوجد التوازن فى السوق الداخلة ، وبوساطة مؤسسة (بنك) التسليف الزراعى هى تجتهد فى أن تنظم اقتصاد الفلاح . ووزارتا المعارف والصحة العموميتان ترغمان القرويين على النهوض عقلياً وبدنياً . ووزارة العدل عن طريق محاكم المراكز وبعد تأجيلات لا تنتهى تدينهم أو تبرئهم . ووزارة الدفاع تتكفل بتجنيد الجنود أو تتسلم الفدية العسكرية ( البدل ) . ووزارة الداخلية تؤيد كل هذه الأوامر التى تتعقب الفلاح فى المصلحة العامة وهى تحقق الأمن بالنظام .

لا يرجع تاريخ الحكومة على صورتها الحالية إلى مائة عام فقد أقامها المغفور له محمد على على نفس النحو الذى تسير عليه اليوم تقريبا . انه لم يخلق هذه الماكينة التى تنتهى فوق الفلاح ، ولكنه أعاد تنظيمها وترتيبها بعد حكم اهواء الاتراك والمماليك وتدميراتهم وهكذا وضع مؤسس الاسرة المالكة فوق الفلاح نظام طبقات للشرعية والعدالة يسمح له بان يعيش ان لم يسمح له بأن يظهر .

لننظر من هذه الوجهة السلسلة الحكومية ولنعتبر كل حاكم بالنسبة الى المحكوم الذى يعينا .

الملك فوق القمة .

ان الملكين الأخيرين - لكى لا نتكلم الاعنهما - كانا يشتهيان بإخلاص خير

الفلاح ، ولكنهما كانا بعيدين الى حد مغال ، وكان كثير من الوسطاء يمنعونهما من رؤية الحقائق الواقعة .

ثم الوزراء الذين يشتغلون بالسياسة أكثر من انشغالهم بالحكومة والذين يسافرون إلى أوروبا أكثر مما يسافرون إلى الأقاليم . إنهم كما فى البلاد الحديثة يتغيرون غالباً فتتعطل تجديداتهم بوساطة أخلافهم ، ومع ذلك فلما كانت الحكومة جد متمركزة ، كانت توقيعاتهم ضرورية فى التفاصيل . وبهذا يتضح كثيراً من البطء . ولما كانوا لا يعرفون الأشياء إلا عن طريق التقريرات الرسمية ، فإن تصميماتهم فيما يتعلق بالفلاحين يعوزها غالباً الالتئام والاهتداء إلى الوقت المناسب .

ثم المصالح المكلفة بتطبيق هذه التصميمات وهي كثيرة العدد ، فنقل وتنفيذ المراسيم والأوامر والأحكام والقرارات يحققها جيش من ٢٠٠٠٠٠ موظف يبتلعون للقيام بهذه المهمة أكثر من ثلث دخل الدولة ( ١٣٥٧٥٣٨٨ جنيهاً فى سنة ١٩٣٦ ) وهو تقريباً ما يقدمه عمل الفلاح الى الحكومة ، وليس هذا التقريب صناعياً فقد قال مكرم عبيد وزير المالية فى غرضه الميزانية على مجلس النواب :

« إن هذا الوجود الطويل للنظام المكتبى كان العامل الأساسى فى بأساء الفلاح الدائمة رغم تقدم البلاد وهناءتها » . ثم اقترح « أن يوضع حد لهذه الحالة المهينة التى جعلت من الشعب خادماً للآلة الحكومية التى هى مع ذلك صنعت لتخدم » (١)

غير أن ثقل هذه الآلة الهائل يتلخص فى نظر الفلاح فى المقدرة العظمى لمديره ومأموره وعمدته ، وسنضع كل واحد من هؤلاء الإداريين فى إطاره .

تنقسم مصر السياسية الى ثلاثة وعشرين قسماً : خمس مناطق مدنية تدعى

---

(١) ١٩٣٦ . النص الرسمى . المطبعة الاميرية

بالمحافظات وهي : القاهرة ، والاسكندرية وبور سعيد ، والسويس ، والقنال ، وأربع مناطق على الحدود ، وهي : مركز البحر الأحمر ، وسينا ، والصحراء الغربية التى تشمل واحات : سيوة والبحرية والفرافرة ، والصحراء الجنوبية ، وتشمل واحتى الداخلة والخارجة . وأخيراً وعلى الأخص أربعة عشر إقليماً زراعياً تدعى بالمديريات : البحيرة ، والغربية ، والدقهلية ، والشرقية ، والمنوفية ، والقليوبية ، وهي تتفتح في الدلتا على هيئة مروحة ، وكل واحدة منها مأهولة بعدد من الأنفس يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و ٩٠٠٠٠٠ ويزيد . وهذه المديريات الست المعينة على هذا النحو منذ عهد العرب هي الأشد عمراناً والأفضل رياً . وفي مصر العليا تتتابع المديريات الثماني الجنوبية على طول النيـل مصطفة كخرزات المسبحة ، ومعينة بأسماء المدن التى هي عواصمها ( البنادر ) وهي : الجيزة ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقنا ، وأسوان . وعلى رأس إدارة كل مديرية يوجد موظف كبير يحمل عنوان مدير هو تابع لوزارة الداخلية ، وينقل من مكانه غالباً ، ويقترب من القاهرة أو يصير وزيراً إذا كان مميزاً ، وهو بالعكس يطاح به نحو الجنوب إذا فقد الحظوة .

يقيم المدير في المدينـة التى تختلف أهميتها كثرة وقلة وإن كانت ليست شديدة المرح والتى هي له كعاصمة يمثل فيها السلطة المركزية .

ولما كان أكثر التفاتاً نحو الأكابر منه نحو الأصاغر ، فهو لا يعرف الفلاحين بطريقة مباشرة ، على أنهم هم لو أرادوا الوصول إليه لما استطاعوا . إنهم يسمعون التحدث عنه ، ويؤدون الحق الواجب له ، ويلمحونه حين يحدث أن يزور قريتهم . هم يحكمون أنه من مولد سام ويجلونه كإله ، وهو في نظرهم يمثل الرئيس المطلق .

وفي خارج عاصمة المديرية يباشر المدير سلطته العليـا بوساطة المأمورين ، وكل مديرية تنقسم إلى عدة مراكز من ثلاثة إلى سبعة ما عدا الغربية الأشد ازدحاماً فإن فيها اثنى عشر مركزاً .

يتصرف المأمور في قوة من البوليس موزعة في الثلاث أو الأربع قرى الأساسية من مركزه ، وهو العامل التنفيذى وسلطاته واسعة جداً ، ولكن الفلاح يعتقد انها غير محدودة ، وبسببِ ذلك هو يرهب كثيراً من هو قابض عليها .

إن ملك الفلاح هو المأمور ، ولم لا ؟ أفلا يروى حادث ذلك الفلاح الذى تمنى بحسن نية للخديوى عباس قائلا : « الله يحفظك ويجعلك مأموراً عندنا » ؟

غير أن المأمور نفسه لايعرف الفلاحين وشواغلهم وأسرهم إلا عن طريق العمد، وما يعرفه الفلاح – وهو المواطن الناخب – من السياسة والإدارة لا يعرفه إلا عن طريق العمدة الذى يتلخص فيه القانون .

يحكم العمدة في كل واحدة من الـ ٤٠٠٠ قرية المصرية ، وهو يعين من بين أعيان القرية التى يحكمها ويملك غالباً جزءاً منها . على أنه لا يستطيع تقديم ترشيحه إذا لم يكن مالك عشرة أفدنة على الأقل ( قانون سنة ١٨٩٥ ) وتسبق تعيينه مباريات تتحول الى منازعات تتبعها أحقاد تمادى إلى القتل .

على أن العمدة في وظيفته يعرف جيداً كيف يدافع عن نفسه ، بل كيف ينتقم لنفسه ، لأنه هو الوحيد الذى يقدم المعلومات الى المأمور ، وهو السيد الفرد لعشرين أو خمسة وعشرين خفيراً ( حراس القرى ليلا ) . في الواقع إن وظيفته الجوهرية تنحصر في تحقيق الأمن فيالقرية وفي الحقول التابعة لها اكثر منها في السهر على الجمال والصحة اللذين ليس ما لديه من الانشغال بهما أعظم مما لدى مرءوسيه .

إنه يمثل ( ناحيته ) لدى المأمور ويسأل عن الجنايات - المبلّغ عنها - التى ترتكب ويساعد الصراف في تسلم الضرائب ويحقق الاستيلاء على الرجال للمهمات ، ولديه مكتب بريد وتليفون ، وهو يراقب حمل السلاح والحالة الصحية للأناسى والحيوانات ويقيد المواليد والوفايات .

لاتدفع الحكومة اليه أجراً ولكنه - فوق الأثر الفخم المكافيء المرتبط بوظائفه - يستمتع بامتيازات عديدة مثل المعافاة من ضريبة خمسة أفدنة ، ومن السخرة والخدمة العسكرية هو وأولاده . وعملياً إن لم يكن ذلك حقاً من الحقوق تعد هذه الوظيفة ميزة الأسرة .

إذا كانت القرية هامة ، فإن العمدة يعاونه مشائخ وهكذا يناقش ويحكم . ولقد وصف لنا أحد تلاميذنا ، وهو ابن عمدة في مصر العليا ، سير هذه الوظيفة فقال : « يوجد ٢٥ خفيراً تحت أمر والدى ، هم يقومون بحراسة الحقول (١) من الخامسة مساء الى الخامسة صباحاً ماعدا اثنين يحرسان بيت العمدة . وطريقة الحكم بين الناس هي أن العمدة يجلس في المتنزه مع بعض المشائخ ويتقدم الخصمان فيشرح كل منهما حالته ، وهو يحكم ويجتهد في أن يصلح بينهما ، فإذا لم يرضيا حكمه يحبسهما في حجرة إلى الغد ليرسلهما الى المركز مع خفيرين » . يستطيع العمدة أن يحبس أربعاوعشرين ساعة وأن يفرض غرامة قدرها خمسة عشر قرشا .

لايوجد في القرية مركز للعمدية ، وإنما منزل العمدة هو محلها ، فهو يستقبل فيه طول النهار زبائنه حينما لا يرافق أحد الموظفين أو لا يراقب حقوله . وفي أغلب الأحايين هو يذهب الى المركز أو الى المدينة لأعماله أو . . . للهوِه .

إن هذا النظام الذى لا رقابة فيه إذا كان يقدم كثيراً من الفوائد لمالية الحكومة فإنه مليء بالأضرار على الفلاح الذى يسلم بدون دفاع الى سيد قليل التعود على حياة المجالس البلدية بقدر ماهو قليل التعود على العدالة الوطنية فيما عدا استثناءات نحن أول

---

(١) لعل ابن العمدة الراوى قد التبس عليه خفراء الملكيات الخاصة الذين يحرسون الحقول بخفراء الحكومة النظاميين الذين هم معينون لحراسة المساكن ، وهم يقضون الليل ساهرين داخل القرية لا يتعدونها إلا لضرورة . « المترجم »

من يقدرها ، وكذلك هو ملىء بالأضرار على الأمن العام . اذ كثير من الجنايات يمكن أن يخبأ في سهولة أو يعزى زيفا الى أبرياء بوساطة هـذه السلطة المطلقة وذلك فضلا عن أن الأحقاد القروية تتولد في أغلب الأحيان وتخلد حول هذه الوظيفة .

في ناحية البارود التابعة لمركز أبي تيج كان تعيين عمدة جديد سيحدث وكان بين المرشحين ذوى التأثير اثنان على الأخص ممتازان ، وهما الشيخ أحمد أبو زيد ، والشيخ أحمد فرغلي ، وكان أحدهما قد فصل من وظيفته عن طريق الإدارة ، وكان الآخر عمدة منذ سنة ١٩٣١ ثم فصل في وزارة نسيم باشا ، وكان المرشحان مهيبين في البلد ، وكل واحد منهما له أنصار متأهبون لمساعدته ، وكانت اللجنة التي يجب أن تحصى عدد الأصوات ثم تتم عمليـة الانتخاب مؤلفة من المأمور ومن ممثلى القرى المجاورة ومأذون القرية ، ولـكن المأذون كان قريباً لأحد المرشحين ، وبالتالى عدوا للثانى ، فاستبعده هذا الأخير ، وإذ ذاك أعلنت سلطة المركز أن مأذون ناحية أولاد إلياس سيخلف في اللجنة المأذون المستبعد ، غير أنه لما حل موعد الانتخاب - وكان شفهياً - لوحظ أن المأذون المستبعد قد بقي في اللجنة فتظلم أنصار خصمه وأيده أنصاره ، واشتبك الحزبان بالأيدى، وبأشر من ذلك أيضاً، إذ قد لجئوا الى استعمال كل مايقع تحت أيديهم وتبادلوا ضربات وحشية . وحينما تدخل البوليس كان ثلاثة رجال قدقتلوا وآخرون قد جرحوا جروحاً خطرة فقبضت السلطات على المرشحين وأمر مدير أسيوط بتأجيل انتخاب ناحية البارود والقرى المجاورة لها الى أن يعود استقرار الهدوء ( ١١ يولية سنة ١٩٣٧ )

يتخذ الفلاح بإزاء رؤسائه - مُلاكاً كانوا أم موظفين - هيئة رهبة ممزوجة باحترام وخضوع وحذر ويقبل منهم أسوأ المعاملات قسوة ، وهؤلاء الذين يحتقرونه سواء أكانوا مصريين أم أجانب يعتقدون أن هذه الطرق ضرورية .

ولقد قال لنا أحد أثرياء الملاك من أصدقائنا - وهو رجل لطيف في غير ذلك -

« ان الفلاحين يجب سوقهم بالسوط » .. ولقد كان أحد معاونى البوليس يوسع أحد المتهمين ضربا أثناء دخولنا مكتبه ، فاجاب على دهشنا بقوله : « تنبغي معاملة الفلاحين على هذا النحو لأنهم بهائم » . هُوَّةٌ بين المدينة والحقول ، فبين الفلاح الذى ظل بربريًا ، والمدنى الذى يختلف تأغر به كثرة وقلة يوجد حاجز سميك مانع ضارب فى القدم. وقد جاء فى رسالة خاصة كتبت فى القرن الثالث قبل المسيح ما يلى : « لاتنظر إلى كفلاح مصرى » . وفى ذلك الحين كما هو اليوم لم يكن ممثلو الطبقة الثرية يظهرون فى القرية إلا ليطالبوا بدخل ضياعهم أو يتقاضوا الحقوق الواجبة للحكومة (١)

نحن لن نحكم فى الوقت الحاضر على نفسية الفلاح ولكننا نستطيع أن نلاحظ كخاتمة لهذا الفصل أنه إذا كان متبوعًا ومتعقبًا كدافع للضريبة وكمنتج ، فانه ظل مجهولا كرجل ، ومهجوراً كمواطن .

إن الهرم الأكبر لمصر الاقتصادية والسياسية ينوء فوقه بكل ثقله ، والطبقة الحاكمة التى تتكىء فوق القمة يمكن أن تكون وجوهها قد تغيرت ، ولكن الضغط على الأساس أى على عمل الفلاح لم يقل .

إن جهل هذا الرجل وعزلته والتحامه بالأرض تمنعه من أن يقوم برد فعل ضد هذا السحق، وهذا السحق يطبع كل حياته.

---

(١) ب . جوجيـه ، مصر فى القرن الثالث . فى تاريخ مصر . المجلد الاول صفحة ٣٩٣ .

# الفصل الرابع

## عمـــل الفلاح

كانت الفصـول السابقة تحاول أن تقيس المحيطين : الطبيعى والاجتماعى للقرية المصرية ، فكان ذلك وضعاً للمشكلة واقتراباً منها . ومن الآن فصاعدا نستطيع أن نواجهها مباشرة بدراسة الفلاح نفسه . وقبل كل شىء فى عمله ، لأن من يتحدث عن الفلاح يتحدث عن العمل . إذ أن هذه الكلمة العربية التى صارت دولية والتى نجدها فى قواميس جميع اللغات هى النعت بصيغة المبالغة من فعل فلح الذى معناه بالضبط : حرث في معناها الأصلى اللاتينى « Laborare » أى تعب واشتغل . . . لأن الناس عملياً ، كما لابد أن يكون ذلك قد لوحظ ، يرون فى الفلاح على الأخص - إن لم نقل إطلاقاً - اليد العاملة : الآلة الزراعية . وفى قضية الحياة الاقتصادية لرجال الاقتصاد العصريين هو يمثل العمل ، لأن من الممكن أن يكون عمل الفلاح قد تحدد فى الإطار الذى عرضناه أكثر من جسمه ونفسه ومسكنه . وفى الواقع يبدو لنا أن هذا العمـل ليس إلا النتيجة البسيطة للسهولة والتحديد اللذين تضعهما له الأرض والجماعة .

وعلى هذا النحو يقودنا ذلك العمل إلى معرفة الفلاح كإنسان ، لأنه هو الذى يجتذب على التبادل فعل الأرض ويؤنسنه . ونحن نلاحظ هنا بطريقة جد واضحة مجموعة سير عمل القوتين ورد فعلهما .

### -١- أنواع العمل

الأرض السوداء تستمر فى الإنتاج وفى الحاجة من يناير إلى ديسمبر ، والفلاحون الذين لا يرغمهم القرآن على الراحة الأسبوعية يظلون يعملون طول السنة ولا يتعطلون

إلا فى الأعياد الكبرى أى نحو عشرة أيام في العام ، والشمس تسطع على الأقل إحدى عشرة ساعة ، وفى مايو ويونيو ويوليه خمس عشرة ساعة فى اليوم . والفلاح يمضي فى الحقول أكثر أجزاء وقته ، ولبعض المشاغل يمضى فيها الليل ومختلطاً بالعناصر فى الصيف ( ومتوسطه ٦ ، ٢٦ درجة ) كما فى الشتاء ( ومتوسطه ٥ ، ١١ درجة ) . هو يعمل عارى الرأس حافى القدمين ، ولشغله ـ وكله عمل عضلات ومجهود بدنى ـ يستعمل يديه ، ولكي يطيلهما يستخدم بعض الأدوات البدائية التى هى مع اعتبار تربة مصر وكثرة الأيدى العاملة فيها كافية .

(١) **كيف يعد الارض** ـ بالفأس التى يستخدمها بمهارة ويستعملها استعمالات شتى هو يقلب ويسحق مدر الأرض ويحفر الخطوط ويعزق . . . والفأس هى معول طويلة متينة ثقيلة يمكن أن يستخدم جزؤها الأمامى العريض كمجرفة . وأفقر العمال يملك على الأقل هذه المتممة الضرورية لذراعيه .

يمكن أن يقال إن جميع حقول مصر هى على هذا النحو معدة بالأيدى حتى حين يشتغل الفلاح بالمحراث ، لأن المحراث المصرى هو أداة أكثر منه آلة ، أداة زنتها أربعون كيلو تحمل وتعاد على ظهر حمار ، وهو النوع الذى لا عجل فيه ولا مجرفة والذى نجده فى فلسطين وسوريا وكل افريقيا الشمالية أى محراث البلاد العربية .

هو يتكون من قطعة من الخشب فى أسفلها سكين مسطحة ، طولها خمسة وعشرون س م ، ومجر ، طوله ثلاثة أمتار ونصف تقريباً ، وبه تربط حيوانات الجر بوساطة نير مستقيم معتمد على غوار بها لا على جباهها كما فى أوروبا ، وهذه الحيوانات هى جاموستان ، أو جاموسة المالك الصغير وحماره ، أو جملان مستأجران لهذا الغرض ، أو جمل وحمار . والحراث يعتمد على يد المحراث الوحيدة ، ليغرس السكين ويتعقب سير الحيوانات مقتاداً إياها بصوته ويده ، لأنه لا يكاد يستعمل العنان ولا يستخدم

السوط إلا قليلا . وهكذا يحرث فى كل يوم من ثلث فدان الى نصف . وإذا كان من الملاك ، وماشيته مطعمة جيداً ، فإنه يصل إلى أن يحرث فى نفس الوقت حوالى ثلاثة أرباع فدان ، وزمن الحرث يستمر لكل حقل مدة تتراوح بين عشرة أيام وخمسة وعشرين يوما فى العام . وفيما عدا جهات الرى بالحياض يستطيع أن يحرث فى كل فصل من فصول السنة .

ولقد كتب المسيو ، أوديبو ، والمسيو، موسيرى ، فى خاتمة دراستهما « على الحرث فى مصر » [١] ما يلى : إن المحراث المصرى هو الأداة بالمعنى الكامل فى هذه الجهة التى يكفى فيها خدش الأرض بقصد دفن البذور ، والسماح لها بالنبت قبل جفاف الطبقة السطحية ، وهذا المحراث هو مطلوب عندما يكون من الضرورى — على أثر الرى بماء محدود — منع تبخرات الماء السريعة من الأرض . . . ولا يوجد بين المحاريث الأجنبية التى جربت إلى الآن أى محراث ظهر أنه أفضل عملياً من المحراث القومى من جميع الوجهات الميكانيكية والزراعية والاقتصادية فى الوقت نفسه .

ولما كان المحراث المصرى محدودا بطبيعة التربة وبمقدرة العامل المالية — إذ لا يكاد يساوى أكثر من مائة قرش — فانه نتيجة لهذه الملاءمة المزدوجة . واذ كان فى منتهى البساطة فإنه لا يلغى مجهود الحراث ولا يبعده عن الخط المشقوق ، وهو يحتفظ بمتانة التماس بين الانسان والارض .

ولكى يزيل الفلاح نواتىء خطوط المحراث ويفتت المدر الذى تخلف عنه يستعمل الزحافة — وهى كتلة من الخشب أو جذع نخلة بسيط ، طوله من ثلاثة أمتار ونصف الى أربعة - فيقف فوقها ويجرها زوج من الماشية ، وهكذا تلعب هذه الأداة المغرقة فى البدائية دور الأدوات الأوروبية المستعملة لتسوية الأرض وتفتيت المدر ،

---

(١) نشرة المعهد المصرى . القاهرة ١٩١٦ ص ٨٣ - ١٢٧ .

وتستعمل أحيانا أيضًا لتغطية البذور الملقاة نثرا ، وتجرى هذه العملية بعد الحرث ، ويمكن أن تعد فى اليوم أربعة أفدنة . ولتوحيد مستوى الأرض التى لسقيها بوساطة الرى ، يجب أن تكون مسطحة بقدر الإمكان ، يحضر الفلاح القصابية ، وهي كصندوق زنته من خمسين إلى ستين كيلو ( وثمنها خمسة وسبعون قرشًا ) مقفلة من عرضها ، مفتوحة من طولها ، ولها يدان يقبض عليهما الفلاح ويرفعهما ليزيل نواتىء الأرض ويزيد رفعهما ، ليضع فى الحفر الأتربة المجموعة فيها (١) .

لقد ذكرنا وسنذكر غالبًا الجاموسة والحمار ، ذينك المساعدين المتينين للفلاح والمتئمين مع حاجاته ومع مصر ، فينبغى أن نقدمهما هنا :

إن الجاموسة « بقرة الفقير » لونها كرواسب النيل ، وإذ كان جنسها أكثر قوة وصلابة من البقر ، فهى تقاوم الأمراض وهى تأكل أكثر من جميع حيوانات العمل . وبسبب خدماتها المتضاعفة يعنى بها الفلاح أكثر من نفسه ، وإن كان ذلك ليس عظيم الشأن .

حينما تطعم الجاموسة على مقتضى الحكمة أى فى الشتاء والربيع ببرسيم ثمانية عشر قيراطا ، وفي الصيف بعشر أقات الى اثنتى عشرة أقة من الكلأ ( التبن المكون من قش القمح والفول وورق القطن . . . ) وبدون انتقال مفاجىء من النظام الغذائى الرطب المحمل بـ ٨٧ ٪ من الماء إلى النظام الجاف الذى يستمر خمسة أشهر ، فإنها تعطي من اللبن أكثر من أية بقرة فى مصر أى : ٤٠٨٠ رطلا فى السنة فى مقابل ٢٣٤٠ رطلا فى السنة . ويلاحظ أن اللبن يباع بالوزن ، ونوع هذا اللبن هو أحسن

---

(١) فى دائرة المعارف (الفرنسية ٧ ، ٣٤ - ٩) م شارل باران يتحدث عن اسطوانة مزودة بأسنان من الحديد يدعوها بالقنفذ . ونحن لم نرها مستعملة ولا مذكورة لدى المؤلفين الذين يعالجون الزراعة فى مصر

من لبن البقر ، إذ هو يحتوى على ٧٪ من المادة الدهنية في مقابل ٥ ، ٣٪ وأخيراً لحم الجاموس أجود من لحم البقر .

كل هـذه الفوائد تصير من الهام تربية الحيوانات ، وصناعة الألبان فى مصر ، ولـكن الفلاح لا يقوم بهـذه التربية ، فليس له مصلحة فى تسمين جاموسته ، فهى مع ما تعطيه له تكفي لشغل الأرض والماء ، وهـذا هو ما ينتظره منها قبل كل شيء . ويتراوح ثمن الجاموسة بين اثنى عشر وخمسة وعشرين جنيهاً .

أما حمار مصر فلـكونه أكـثر متانة من الجواد كما أن الجاموسة أكـثر متانة من البقرة ، هو أيضاً حيوان اقتصادى لا يتطلب شيئاً غير عادى ، ففى الدلتا الحمار « البلدى » ( وارتفاعه متر ، وهو على العموم اسود ) له الغلبة ، ويمكن ان يحمل مائتى رطل ، وثمنه من جنيهين إلى ثلاثة جنيهات ، والحمار الأبيض أو الرمادى الموجود في مصر العليا والمسمي بـ « السورى » والذى يركبه السياح حول الاهرام هو أكـثر رشاقة وارتفاعاً ( ١ م و ٢٠ س م ) ويمكن أن يساوى اثني عشر جنيهاً .

والجمل والبغل لـكونهما لا يصلحان لعمل كل شيء ، هما قليلا الاستعمال عنـد الفلاح .

**عمل الماء** – بعد إعداد الأرض يجب على الفلاح أن يرويها وأن يغذيها ولا ينتظر ماء السماء عاطلا قلقاً كما يفعل قرويو شرق الأردن ، فالماء هنا على مقربة منه فى النهر ، أو فى القناة ، ولـكن ينبغى إحضاره وتسييره ، وما دام أن الفلاح لم يرو خطوطه فهو لا يهدأ .

هناك كأوردة جسم كبير وشرايينه توجد ١٩٠٠٠ كيلو متر من القنوات توزع النيل بطريقة صائبة على المزارع و ٧٧٠٠ كيلو من القنوات الاخرى تقود مياه ( التصافى ) بعد الفيضان و تصرفها فى النيل وفى البحيرات .

وفى وقت الجفاف [١] فى يناير يتعاون فريقان من العمال أحدهما على شاطىء القناة والآخر فى مجراها فينتزع عمال الفريق الأدنى بأيديهم قطع الطين والأعشاب ثم يقذفون بها الى عمال الفريق الأعلى فيتلقونها بأيديهم أيضاً و يلقون بها بعيداً.

ولكن لكى يؤتى هـذا النظام ثماره ينبغى أن يستطيع الماء الوصول الى الحقول. ولتحقيق هذا يجب على الفلاح أن ينشىء نظاماً من المجارى التى تقود الماء الى النبات، وهو يعمل بدون فتور في تنظيف هذه المجارى والاحتفاظ بها.

وعندما يأتى دور رى حقل الفلاح - وهو خمسة أيام فى كل خمسة عشر يوماً فى وقت زيادة النيل، وستة أيام فى كل ثمانية عشر يوماً في وقت نقصانه - يسهر ليالى كاملة، لكى لا يفقد شيئاً من نصيبه.

وحينما يكون الماء عالياً يراقب سيره فى المجارى و يفرغ جهده فى إزالة العقبات من طريقه، ولكن الماء يكون منخفضاً فى مدة تتراوح بين خمسين ومائتى يوم فى العام حسب الجهات، وفى تلك الأحيان هو يشتغل بقوة ذراعيه ليرفعه. ولما لم يكن هناك أيضاً آلات، فهو يستعمل أدوات جد بسيطة، وهى صنو التاريخ في القدم.

الماء مثلا منخفض خمسين أو ستين س م، و ينبغى رفعه الى الحقل الظامىء، فكيف ذلك؟ هناك طريقتان: أولاهما صارت نادرة وهما:

---

(١) الجفاف هو عهد يبوسة صناعية تكون فى العموم فى شهر يناير وهى أربعون يوماً تقريباً لا تترك الحكومة أثناءه ماء فى القنوات لكى يستطاع تنظيفها بعناية عمال متخصصين على نفقاتها. وفى نفس الوقت يستفاد من أن الزراعة فى هذه المدة من السنة تكون غير محتاجة الى كثير من الماء، لملء خزانات (أسوان وجبل الأولياء)

وعلى العكس وقت التحاريق هو المدة التى ترى فيها مياه النيل بطبيعتها منخفضة المستوى بهيئة محسوسة ويلحق جريانها الحد الأدنى.

(١) يقف رجلان متواجهان فى مكان منبسط منحوت من الشاطىء على مستوى الماء ، وكل واحد منهما يمسك بوساطة حبلين من القنب أو من ليف النخل إناء ذا فتحة واسعة بالقدر الكافي ( قطره ٤٠ س م وعمقه ٢٥ س م تقريباً ، وهو سلة خفيفة تختلف صفاقتها كثرة وقلة ) وينبغى لهذه العملية حركتان .

الحركة الأولى هي أن يتجه العامل نحو القناة منحنياً قليلا و يقذف بالسلة في الماء فيملأها ، والحركة الثانية هي أن ينتصب ويتحول قليلا نحو الحقل ويرفع الإناء بمجهود ساعديه متعاونتين و يصبه في مجرى مدخل الحقل .

هذا العمل الذى يجرى في جماعة ونظام ميكانيكيين يحرك الجذع والذراعين تحريكاً جوهرياً . إنه عمل شاق ، وأمتن الرجال لا يستطيعون أن يحتملوه أكثر من ثلاث ساعات متتالية ، وإذ ذاك يتبادلونه مع فريق آخر .

وبمقتضى الإحصاء الذى أجرى يكون مقدار ما يُصعَد على هذا النحو في يوم قدره اثنتا عشرة ساعة ستين متراً مكعبا تقريباً ويروى أقل من ٥٠٠٠ متر مربع قليلا .

وهذه النتيجة كما يشاهد لا تكاد تكون متناسبة مع المجهود المبذول فيها ، ولكن لا توجد أية ( ما كينة ) أقل منها نفقة ، وهى ستبقى ما بقي الفقر ، وتدعي بالنطالة ، وكان فلاحو مصر القديمة يستعملونها [١] من قبل ، وقرويو اليابان في «سيكوكو» مثلا يستخدمونها .

(٢) ينحنى رجل أو رجلان على الشاطىء ، ويُديران يد اسطوانة تبتدىء على ارتفاع مجرى المدخل فيصعد الماء سالكا سبيله في اللولب الخشبى ( وقطره ٤٠ س م تقريباً ) ويدعى بـ ( الطنبور ) أو لولب أرشيميد ، وهو أنبوبة من الخشب تحيط بها دائرة

---

(١) هارتمان « الزراعة فى مصر القديمة » صفحة ١١٩ .

من الحديد ، وطولها من متر وسبعين س م الى مترين ، أو من مترين وسبعين س م الى ثلاثة حسب ما تكون إدارتها بوساطة رجل أو رجلين ، وهذا اللولب مثبت بين الحاجز الداخلى والمحور الحديدى الذى ينتهى أحد طرفيه باليد بينما يستند الآخر على دعامة خشبية مثبتة فى الماء . ويروى ( الطنبور ) أكثر من النطالة مرتين أو ثلاثاً ولكنه أكثر نفقة و ثقيل فى إدارته ، وفوق ذلك فإنه لما كان يشغل الساعد باستمرار ، فهو يتعب و ينهك بسرعة ، ولكن استعماله لايزال مطرداً كما لاحظنا ذلك

هاتان « الآلتان الرافعتان » تلائمان حينما لا يكون الماء شديد الانخفاض ، ولكن فى الغالب ينبغى البحث عنه على عمق متر أو مترين إلى عشرة أمتار بالنسبة الى الحقل الذى يراد ريه .

وفى هذه الحالة لا يكون شىء أصلح من تثبيت آلة ميكانيكية ، ويوجد ذلك فى الضياع الكبرى ، ولكنه لا يوجد فى المستغلات الصغيرة . ولما كان الفلاحون كثيرين و تقليديين ، ولما كانوا فقراء فى المال وأغنياء فى الزمن ، فان هذه الصلاحية لا تفرض نفسها عليهم ألبتة . إنهم قد حلوا مشكلة الرى منذ زمن بعيد بطريقة متناسبة مع مقدرتهم ، وهم لا يشعرون بأية ضرورة لقطع هذا التوازن الكافى من أجل توازن أعلى ، ولكنه مستقبل وغير محقق .

وهكذا لكى يرفع الفلاح الماء الذى هو أخفض من متر يستعمل طريقة بدائية بقدر ماهى بسيطة. هو يغرس فى الارض على شاطىء النهر و تدَيْنِ خشبيين ، ارتفاعهما متر وعشرون س م وتفصل بينهما مسافة مقدارها متر . وعندما يعوزه الخشب يبنى عمودين من حطب الذرة أوقصب السكر مغموساً فى الطين ، وقمتاهما متصلتان بوساطة غصن أفقى على نحو ما يثبت للعبة « الفوت بول » . وفى وسط هذا الغصن المخترق تتحرك عتلة تختلف استقامتها كثرة وقلة ، وطولها ثلاثة أمتار تقريباً. وفى نهاية ذراعها

الصغرى حجر كبير ، أو قطعة من طين صلب ، وتنتهى ذراعها الكبرى بعود رأسى ، طوله متران ونصف تقريباً ، وفى نهايته يعلق الإناء وهو سلة من جلد ، أو ( جردل ) أو ( صفيحة ) ، وهذه الأداة كلها يثبتها الفلاح على محور المجرى المراد ملؤه .

فإذا انتهى التثبيت يقف العامل فوق المكان المنبسط المعد على منتصف ارتفاع حافة الماء ثم يخفض العتلة بجذبه العود إلى أن ينغمس الإناء فى الماء ويمتلىء ثم يدفعه إلى أعلى دفعة خفيفة تُبْرِزُ نتيجَتَها عَوْدَةُ الثقل المضاد فترفع إذ ذاك الإناء إلى المجرى حيث يصبه العامل .

كل هذه الحركات تجرى فى بطء مطبوعة بنغمة أغنية وحيدة ، ويبدو أن تنوعها يقلل من المجهود ، ومع ذلك فهذا العمل يحمل الفلاح على الأنين أكثر من الأعمال الأخرى . وقد يكون حزن أنشودته هو الذى ترك الناس يتكهنون بهذا ، ولكن الذين كان لديهم الصبر على جمع كلمات هذه الأناشيد يؤكدون لنا ذلك (١)

وعند نهاية نهار ذى اثنتى عشرة ساعة يكون الفلاحان اللذان يتناوبان كل ثلاث ساعات قد اغترفا خمسمائة متر مكعب من الماء . وآلة « ميكانيكية » من هذا النوع تحقق رى فدان ، ومصدر الماء يمكن أن يكون بئراً كما يمكن أن يكون قناة ، وهذه الطريقة هى التى يستعملها قرويو الشرق والشرق الأقصى وعلى الأخص العرب إذا كانوا فقراء ، ولكن النهج هو مصرى محض ، ونحن نجده مصورا فى أقدم النقوش ولا يستخدم فى أى مكان آخر بهذا المقدار .

ذلك هو الشادوف ، ويمكن الاشتراك فيه ، ففى جهة قنا أو دندره فى مصر العليا

---

(١) ج . ليجران ، الأقصر تحت حكم الفراعنة ، الخرافات والأغانى الشعبية فى مصر العليا ٢٢٤ صفحة و ١٠٠ صورة . فرومان ، بروكسيل سنة ١٩١٤ ص ١٧١ .

لا نزال نرى مجموعات مؤلفة من اثنتين أو ثلاث أو أربع من هذه الأدوات مزدوجة أو مدرجة لرفع الماء ، ولكن لإصعاده إلى مثل هذا الارتفاع – وقد يصل الى اثنى عشر مترا – تستعمل الساقية بكثرة .

والساقية هى آلة ميكانيكية حقيقية وإن كانت بدائية وسيئة التكوين ، ولما كانت مصنوعة من خشب السنط أو الجميز ، فهى لا تدار بوساطة الانسان ، وإنما بالقوة الحيوانية . وعجلتها الأفقية المتحركة من اليمين الى اليسار بوساطة الثور أو الحمار الذى يدور فى ميدان تحرك بوساطة اشتبا كها الفظ عجلة رأسية تحمل سلسلة من القواديس وهذه القواديس المنقلبة والممتلئة تحت تصب ماءها فوق المجرى باطراد عند وصولها إلى مستوى الأرض (١) .

الساقية بسبب ثمنها ( من عشرة جنيهات الى عشرين جنيهاً حسب الارتفاع ) تملكها غالباً عدة أسر ، وكل واحدة منها تأتى فى دورها لتستقى بحيوانها دون أن ينقطع العمل أبداً . وهكذا يروى فدان فى كل أربع وعشرين ساعة ، وتكفى ساقية لرى خمسة أفدنة وينحصر عمل الفلاح هنا فى إثارة الحيوان ومراقبة حركات العجلة والماء وتجنب إسرافه عند الوصول أو فى الطريق ، لأن الساقية يمكن أن تدور لحقل على بعد خمسمائة متر ، وفى العادة يخصص لتلك الرقابة شيخ أو طفل ، وفى أثناء الصرير الدائم لهذه الماكينة التى لا تشحم هو يتغنى بسرور قلة المجهود .

تعد السواقى وأنواعها كالتابوت وما شاكله بالآلاف ، ونحن نجدها تحت اسم « نوريا » مستعملة لدى زراع سوريا وافريقيا الشمالية واسبانيا وإيطاليا وإغريقا .

يشغل عمل الماء الفلاح كثيراً كما نلاحظ ذلك . إنه عمل صبر لا يكتفى فيه بالقدر الضرورى ، بل هو يلام على أنه يسقى الأرض أكثر من اللازم .

---

(١) يرجع تاريخ استعمال الساقية ولولب أرشيميد الى عصر البطالسة .

إنه لا يفهم أن الرى المتكرر الغزير يرفع الطبقة المائية التى هى تحت سطح الأرض وأن هذه الطبقة عند ما لا يكون بينها وبين ذلك السطح إلا متر وخمسة وعشرون س م تخنق الجذور وتصير النبات أصفر . هو لا يؤمن إلا بشر الجفاف ولذلك هو فى دوره يسقى الحقول بقدر ما يستطيع وبدون أن يفقد دقيقة ، لأن قلة الماء عنده هى الغلة الضائعة أو الناقصة . نحن لا نرتاب فى العذاب والإهانات الكثيرة التى يحتملها الفلاحون فى سبيل الحصول على الماء الضرورى لحقولهم الصغيرة ، فمراقبو الرى فى الأقاليم والحراس المعينون عند فتحات السدود يسخرون غالباً من الأوامر والقواعد التى هى عادلة والحظوات المشتراة والأعساف والانتقامات الشخصية ليست في هذا المجال استثنائية ولا معاقباً عليها .

**الأسمدة** - إن الرى لا يكفى فينبغى تقوية التربة المطعمة ، والفلاح يعرف جيدا أن سلطان أرضه المخصب فى حاجة إلى تجديد قواه ، فهو يتفنن مع زوجته وأولاده فى أن يعثر بدون إنفاق على أكثر ما يمكن من سماد طبيعى أو صناعى

إن زبل الحمام - وليست الد من الانسانية ألبتة - وحمأ التطهير المستخرج من القنوات ، وعلى الاخص التراب المشرب بفضلات الحيوانات المأخوذة من الحظائر ( السبخ البلدى ) وهو السماد الأساسى ، وكذلك خرائب القرى وتراب القرون . كل هذا يقدم الأزوت الى حقل الفلاح . فى الواقع أن خرائب المدن الميتة ( الكوم ) قد صارت مقطع سماد يستمد منها الفلاحون ، وهو السبخ الكفرى ، ويوجد في كل مكان منه الجيد والردىء ، والآن يوجد الردىء على الاخص .

وكذلك يوجد في مصر العليا إلى جانب الصخور رمل ( ماروج ) وصلصال ( طفل ) يحتويان على سماد فقير ، وهو يحمل إلى الحقل بمشقة ، ولكن كل هذه الأسمدة غير كافية فى الكمية والكيفية ، فالأرض المتعبة فى حاجة إلى تنشيط صناعى

وعلى الرغم من جمود عقل الفلاح وبسبب صلاته بالتربة قد فهم حاجتها . ومنذ مبدأ هذا القرن - لان السبخ الكفرى الجيد قد نفد تقريباً - قد شرع فى استعمال الاسمدة الكيميائية . وقبل الحرب كانت مصر تستورد اكثر من نصف مليون طن من نترات شيلى الطبيعية وهى أقدم الأسمدة المعروفة ، ومن نترات المانيا وانجلترا الصناعية وهذه النترات تستعمل لجميع الزراعة ما عدا البقول كالبرسيم والحلبة والفول التى هى فى حاجة الي سو بير فوسفات .

يحقق توزيع الأسمدة بهيئة جد مرضية بنك التسليف الزراعى الذى يبيع بالكيس وبالأجل ، والجمعية الزراعية الملكية ، والشركات الكبرى المستوردة ، وهكذا يوجد ألفا مستودع موزعة فى جميع البلاد . والزبائن هم بديا كبار الملاك ومديرو أملاك الحكومة الذين يقدمون إلى مستأجريهم وشركائهم الكمية الضرورية لمستغلاتهم فى مقابل جزء من الغلة . ولقد كان الكيس قبل الحرب يباع بثمن يتراوح بين خمسة وستين قرشاً وسبعين قرشاً تسليم القرية .

يتطلب القمح أغلى الأسمدة ولكن أكثرها اقتصاداً يكفى للبرسيم .

الآن يتعلق الأمر بوضع «خميرة الأرض» : يحضر ابن الفلاح على الحمار وبطريق طويل فى أغلب الأحيان عشرين مرة فى اليوم - وليس هناك ( عربة ) نقل ولا ( عربة ) يد - فى قفة أو فى كيس الأسمدة الى الحقل ويعود به للتحميل بينما يضع الزارع بسخاء السماد الطبيعى أو الكيميائى ويسويه بيده حول النبات الذى يجب أن ينمو .

**( ٤ ) كيف يجنى ثمار الارض** - كل تلك العنايات الممنوحة للأرض هى للثمار التى يجب أن تؤتيها . وإذاً ، فعمل الفلاح يستمر من البذر الى الحصاد . وفى الواقع لم يعد موجوداً ذلك الوقت الذى لم يكن عليه فيه إلا أن يبذر وينصرف ، وبعد بضعة شهور يجنى . والجهاد فى سبيل الحياة قد صار جهاد جميع اللحظات .

والفلاح بسبب دخول القطن - وهو نبات عسير - واستقرار الرى الدائم أو الزراعة فى جميع الفصول لم يعد متعطلا .

ابتداء من القطن تتتابع الغلات على النحو الآتى منظمة في سنتين أو ثلاث.

| | |
|---|---|
| فبراير - أكتوبر | قطن |
| نوفمبر - مايو | قمح أو برسيم أو شعير |
| مايو - يونيو | بائر بعضه |
| يونيو - نوفمبر | ذرة أو أرز |
| ديسمبر - فبراير | برسيم |
| فبراير - اكتوبر | قطن |
| نوفمبر - مايو | حبوب الشتاء أو برسيم |
| مايو - نوفمبر | بائر أو ذرة |
| نوفمبر - مارس | برسيم أو حبوب الشتاء |
| مارس - يونيو | بائر بعضه |
| يونيو - اكتوبر | ذرة أوأرز |
| نوفمبر - مارس | برسيم |

هذا الحساب الزراعى الذى نحن نترجمه إلى حساب غربى - لأن الفلاحين لديهم حساب عريق فى المصرية - يلاحظه كل حقل مع شيء من التباين يختلف كثرة وقلة حسب حاجة وتجربة من يطبقه.

لا يزال الزراع إلى اليوم يتمسكون بالحساب القبطى ، لان هذا الحساب الذى يصعد إلى قدماء المصريين هو نيلى ، فهو يبتدىء فى الواقع بشهر ( توت ) سبتمبر

الذى يلحق فيه النهر نموه الأعلى ثم يستمر اثنى عشر شهراً حسب نظام السنة الشمسية وهناك أمثلة شعبية معبر عنها بعبارات عربية ، ولكن أصلها يصعد إلى مصر القديمة ، تبين الاستعمال الزراعى لكل شهر . يتحدث فى هـذه الأمثال غالبًا عن القمح الذى كان إذ ذاك الزراعة الأساسية ، ولـكن لا يتحدث عن القطن الدخيل حديثًا [١]

ينظم هذا الحساب أيضًا الحياة الدينية للأقبـاط ، إذ لم تغير المسيحية فى مصر ماكان يوجد قبلها ، ولـكن نقطة البدء فيه هى سنة ٢٨٤ وهى أولى سنى حكم الامبراطور « ديوكليسيان » التى لا تزال تدعى بعصر التعذيب . وفي الواقع أن الاضطهادات الشهيرة قد حدثت في سنة ٣٠٤

والمسلمون يبدءون من الهجرة ويحسبون بالسنة القمرية .

ومنذ سنة ١٨٧٥ أضافت اليهما مصر الرسمية الحساب الغـربى الذى يتغلغل في الشعب ببطء ، ولم يحتفظ هذا الشعب بالأسماء القومية للشهور ولم يترجم كذلك أسماءها الرومانية ، وإنما لاءمها مع نطقه . وقد اعتمدت الحكومة هـذا الاستعمال فقيل : يناير فبراير مارس ابريل مايو يونيو يولية اغسطس الخ ولا تراعى وزارة الزراعة إلا هـذا الحساب الذى إن لم يكن مستعملا من جميع الفلاحين ، فهو مفهوم على الأقل من أكثريتهم العظمى .

من الملائم أن نصف هنا الزراعات الجوهرية لمصر العصرية التى تشغل أغلبية الفلاحين ، وهو القطن الذى يؤلف ثروة البلاد الاقتصادية ، والذرة والقمح اللذان

---

(١) م. تيسو . « دراسات على الحساب القبطى ونتائجه الزمنية » ، موريس ، الاسكندرية ١٨٦٧ . ى. أرتين باشا « الأمثلة التى ترافق أسماء الشهور القبطية فى اللغة الشعبية العربية فى مصر » ، فى نشرة معهد مصر ١٨٩١ ص ٢٥٠ - ٢٦٧ .

يحققان القوت اليومى ، والبرسيم الذى هو كلأ الماشية ، ولن نقول عن الزراعات الأخرى إلا كلمة للتتميم .

## (١) زراعة القطن

لم يكن القطن مجهولا لدى قدماء المصريين ، ويبدو أن بعض أقمشة العصر الفرعونى منسوجة من الخيوط القطنية ، و« بلين » يشير الى استعماله في مصر ، ولكن هذا النبات الصناعى لم يتخذ فى مصر أهمية كبرى إلا منذ أواسط القرن التاسع عشر أى منذ تجارب « جوميل » .

إن الرى الدائم الذى تحقق حوالى ذلك الوقت نفسه ، ونمو الشعب المتواصل ، والبيوع المفيدة في الأسواق الانجليزية لم تلبث أن صنعت من القطن الغرس الأساسى فى البلاد . ولقد استطاع الناس ان يتحدثوا عنه كزراعة وحيدة ، ولكن أزمة ٩٣٠ العالمية التى جلبت سوء بيع القطن اضطرت الحكومة المصرية إلى إنقاص الأراضى المنزرعة قطناً الى الربع .

غير أنه رغم هـذا الاقتصاد المدبر قد بقى القطن الزراعة الأساسية فى مصر العصرية ، وهو يزرع في جميع المديريات من البحيرة الى اسوان .

بديًا ، لكى تتجنب وزارة الزراعة اختلاط القطن المصرى وفقد سمعته ، وهو المبحوث عنه لطول تيلته ، فانها تحتفظ لنفسها بمراقبة البذور في وقت الحلج . والفلاح يشتريها مقدماً من وكلاء الجمعية الملكية الزراعية أو من متاجر الحبوب .

هو يحمل بذوره (التقاوى) إلى الأرض المعدة بحرثتين أو ثلاث متقاطعة والمقسمة الى خطوط ، وهناك في كل عشرين س م على الحافة الجنوبية للخط يدفن قبضة من البذور من ست وحدات الى عشر حسب الاختلاف في حفرة يعـدها بالمغرس الذى هو يستخدمه أيضاً كمسطرة .

وبعد ذلك بنحو خمسة عشر يوماً يزور المزرعة ، وبالقرب من الحفر التى لم تنبت يعيد غرس بذور أخرى يرويها باليد . وبعد ستة أسابيع حيث يكون الغراس قد نبت ، بل نبت أكثر من اللازم ، يشرع الفلاح فى « تطليق الباقات » كما يعبر الزراعيون أى أنه لا يدع فى كل حفرة إلا نبتتين مقتلعاً جميع الأخريات

وفي أثناء المدة يروى النبات في كل خمسة عشر يوماً إلى خمسة وعشرين إبان مايو ويونيو ، وفى كل اثنى عشر يوماً إلى خمسة عشر فى يولية . وإذ ذاك يسهر الفلاح على سير الماء فى جميع الخطوط ، وبعد مروره ينتزع الأعشاب الخبيثة ثم يقتطع من كل نبتة البراعم الطرفية ، لتسهيل نمو القطن بوقف نمو الخشب.

تلك هى عناية البساتين فى عدة آلاف من السكيلومترات

تتطلب زراعة القطن كزراعة البساتين يداً عاملة وافرة مستعدة . وإذاً ، فهى تفرض أو تقتضى زحام السكان على الأقل ما دامت الآلة الميكانيكية لم تحل محل العدد كما في الولايات المتحدة ، وهذا العدد سهل المنال بقدر سهولة العمل في القطن والنساء والاطفال يعملون هنا كالرجال سواء بسواء ويضاعفون دخل الاسرة ، وليس هذا الاستعمال للجميع أجنبياً عن نجاح القطن فى مصر.

وبعد إزهار سريع يبتدىء في يولية : يتفتح اللوز وينمو الثمر وينبغى جنيه . وفيما بين أواخر أغسطس وأوائل اكتوبر تهب القرية مرتين متتاليتين منقسمة إلى فرق تحت إدارة (الريس) المتعقبة وتنشط للجنى .

ومع الرد على أدوار المغنية المعينة ( وتلك إشارة من إشارات العمل ) ينبغي تجريد كل شجيرة بسرعة من باقاتها البيضاء بدون نسيان أية واحدة منها ، ولكن أيضاً بدون أخذ ورق . وحينما يمتلىء الجيب المصنوع من ( الجلبية ) مرفوعة إلى الحزام يذهب العامل ليفرغه فى العراء المعد فى وسط الحقل ويعود إلى صفه .

ومن هذا العراء تحمل سلسلة غير منقطعة من الفلاحين القطن إلى مستودع (شونة) المالك أو مستودع المصرف ، ومن هناك بعد قليل من الوقت يذهب به على ظهر حمار أو جمل الى المحلج . فالمكبس[١] حيث آلاف من الفلاحين - ولا سيما الاطفال[٢] - من سبتمبر إلى ابريل ينظفونه ويزيلون بذوره ويفرزونه ويحملون الآلات الميكانيكية ويفرغونها في وسط غبار غير صالح للتنفس.

بعد الجنية الثالثة لا يبقى فى الحقول إلا أدغال تنزع بالايدى أو تقطع على مستوى الأرض وتجمع في حزم وتوضع فوق سقف المنازل لتستعمل وقوداً .

## ب - قوت الفقراء

تشغل الذرة بعد القطن أكبر مساحة منزرعة فهى تبلغ تقريباً مليوناً ونصفاً من الأفدنة . ورغم أنها عمت قبل القطن فليست زراعتها ولا أهميتها ضاربتين في القدم . وفى عهد المماليك كانت تغرس كأنها فى وطنها . ولقد كتب عنها « سيلفيستر دى ساسى » فى سنة ١٨١٠ ما يلى : « ان زراعة الذرة هي إحدى الزراعات الاكثر

---

(١) هناك نحو مائة من هذه المصانع التى تحضر للتصدير تعمل فى مصر ويشتغل فيها الفلاحون فى حالات أسيفة : « قد زار حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول إبان رحلته الحديثة الى الغربية تفتيش سخا التابع لإدارة أملاك الحكومة .. فلاحظ جلالته فى كبس بالات القطن أن عملية الكبس بالأيدى والأرجل تتعب الفلاحين تعباً عظيما وأنها ضارة بصحتهم ... » ( صحيفة لاباترى ، القاهرة ١٠ نوفمبر ١٩٣٦.

(٢) حسب تحقيق ابنة الشاطىء المنشور فى الاهرام فى ١٧ و ١٨ و ١٩ فبراير سنة ١٩٣٧ كان ٢٥٠٠٠ طفل تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشرة مستخدمين فى هذا العمل الغير الصحى أياماً تبدأ فى الخامسة صباحاً ولا تنتهى إلا فى التاسعة مساء بدون راحة متفق عليها .

ترجمنا هذا الهامش ، لانه ورد فى النص الفرنسى وإن كنا نحن شخصيا نرى أنه نوع من الديماجوجية الصحفية التى لا تمت الى الحقيقة الواقعية بصلة . « المترجم »

عادية فى مصر السفلى كما فى مصر العليا التى يعيش قسم كبير من الشعب فيهـا من خبز الذرة » .

إن لفظة الذرة هي الاسم العربى لهذا النوع من الحبوب وتدعوه وزارة الزراعة بالذرة الشامية أى الآتية من سوريا لتمييزها عن الذرة الرفيعة أو العويجة التى هي الغراس القديم .

فى افريقيا ، فى البلاد التى تروى رياً كافياً والتى هى خصبة التربة تتراجع الانواع المختلفة من الذرة لتفسح مكاناً للذرة الشامية ، وهي حبوب أمريكانية سهلة الزراعة ، سريعة في الإنتاج ، قابلة لزراعة ثانوية .

تنطبق هذه الملاحظة بنوع خاص على مصر : ففي الواقع أن الذرة الرفيعة التى تشغل ٣٠٠٠٠٠ فدان تقريبا والتى زراعتها قابعة فى مصر العليا ( حيث نظام الحياض ) تقل بتقدم الرى الدائم .

احتلت الذرة الشامية وادى النيل لأنها تلتئم مع الفلاح ومع التربة الى حد أن اشتهرت بأنها أفضل ذرة فى العالم ، وذرة موزمبيق هي وحدها التى يمكن ان تشبه بها

يبذرها الفلاح في يولية نثراً ويخصص لها كثيراً من السماد ويسقيها سبع مرات وبعد ثلاثة عشر أو خمسة عشر أسبوعا يقتلع باليد الأحطاب الطويلة المحملة بالسنابل الضخمة والتى هي أعلى منه .

ذلك هو الاجتناء : ففي أكداس النبات المتراكمة يقوم العمال والنساء والأطفال بالفرز الأول فيضعون فى جانب رؤوس الذرة التى لا تزال مدثرة ، وفي الآخر الأحطاب مجردة .

يصل دخل الذرة بالتعبير الزراعى الى عشرة أرادب أو اثنى عشر اردبًا للفدان، ولكن الدخل المتوسط في البلاد هو سبعة ونصف .

وعلى أثر ذلك يقيمون من هذه الأحطاب منصوبة ومحبوكة شبه سياج دائرى حول تل الثمار . وداخل هذه الدائرة وفي وسط الحقل يقشرون السنابل ثم يضعون الحبوب الصفراء التى هى أكبر من الفاصوليا فى قفف ، والأحطاب أيضًا يحملونها على حميرهم القصيرة فيقوون بها سقف المنازل و يستعملونها كوقود ، ويجب ألا يضيع شىء .

## ج - القمح

إن القمح هو في أقدم تقاليد مصر الزراعية ، وهو يستعيد اليوم قليلا قليلا الأهمية التى أفقده القطن إياها ، وهو يستفيد من سياسة تعدد الزراعات . ففى سنة ١٩٣٤ كانت المساحة المنزرعة قمحًا ١٣٨٨٦٧٣ فدانًا . وفي سنة ١٩٣٩ كانت ١٤٦٦٠٠٠ فدان ، وكان ذلك يمثل إنتاجًا مجموعته ٨٦٠٠٠٠٠ إردب أى أن متوسط الفدان ٩٦، ٥ وكل هذا القمح تقريبًا مستهلك فى البلاد بوساطة ذوى اليسار من الوطنيين وشعب المدن [1] اذ الأوروبيون وأثرياء المصريين يفضلون الدقيق الأجنبي الذى هو على الأخص مستورد من استراليا وكندا .

يبذر الفلاح القمح فى نوفمبر ويسرع فى التسميد والرى قبل وقت الجفاف ثم هو لا يرويه الا مرة أو مرتين قبل الحصاد .

هو يحصد في أبريل بمنجل بدائى أو باليد ثم تحزم الحصيدة حزمًا تنقل على ظهر

(١) القمح المصرى قليل الصلاحية للتصدير بسبب ضعف احتوائه على المادة اللزجة وتفوق نسبة الحصى فيه ، ومع ذلك فقد كانت المانيا فى سنة ١٩٣٧ تفاوض لتستورد منه .

حمار أو جمل الى البيدر العام ( الجرن ) حيث تحل ، وكل أسرة تمد فيه غلتها عند ما يجيء دورها ، وتأتى الجاموسة لتدوس السنابل الراقدة على الأرض ، والأكثر فقراً يدقون قمحهم بعصيهم ( النبابيت ) ولكنهم فى أغلب الأحايين يملكون بالاشتراك ( نورجاً ) وهو عربة ثقيلة من الخشب تمسكها ٤ عجلات + ٣ + ٤ متوازيات ، وهى اسطوانات لدرس القش مركبة فى أسفل العربة . يقطع ( النورج ) تجره الجاموسة سائرة في حركة دائرية وتحت قيادة فلاح جالس فوق مقعد ، السنابل التى داسها الحيوان بينما يجدد عامل آخر الأعواد تحت الآلة .

تساوى هذه العربة الخاصة بمصر ثمانمائة قرش . وحينما تكون اكثر بساطة وبدون اسطوانات، تساوى ثلثمائة تقريباً .

لكي يذرى الفلاحون - ككل زراع البحر الأبيض المتوسط - يقذفون إلى أعلى بالسنابل المداسة المتقطعة في مهب الريح ، وهم يستخدمون لهذه العملية مذراة من خشب ذات إصبعين أو أربع ، وهي الجاروف . وبنورج واحد وبضعة جواريف يصلون إلى إعداد حصيدة خمسة وعشرين فداناً .

وأخيراً تغربل النساء الحبوب في غرابيل واسعة ، وعند ذلك توضع فى أكياس وزلع وقفف معدة للبيع .

## د - البرسيم

إن القش المداس مخلوطاً بالفول ، والشعير يكونان الغذاء الصيفي للماشية ، ولكنها في الشتاء تتغذى بالبرسيم . وقد ترجمت هذه الكلمة إلى الفرنسية بنفل الاسكندرية

يزرع البرسيم في كل مكان بنسبة ٢٠ ٪ من مجموع المساحة ، لأنه يغذى الأرض كما يغذى الحيوانات ، ولما كان أحد البقول التى تحجز أزوت الهواء فى

التربة وكان كلأ جيداً ، فانه ينبت بسرعة وبحالة اقتصادية .

لا يتطلب البرسيم عملا كبيراً : فالفلاحون يبذرونه فيما بين سبتمبر ونوفمبر ، وفى الغالب بعد الذرة أو القطن أو الأرز ، وقبل رفع الأحطاب التى هي على هذا النحو تحمى البذور ، وبعد نحو خمسين يوماً تجرى الجَبَّة الأولى ثم تليها أربع جبات أخر فى كل خمسة وثلاثين يوماً واحدة ، والحيوانات تطعمه في مكانه بقدر الحاجة ، وثلثا فدان يطعمان ثورين ، ونصف يطعم جاموسة طول الفصل ، وربع يكفى لحمار .

## ٥ - المزروعات الغذائية

لكن عمل الفلاح يجعل تربة مصر تنتج أطعمة أخرى ، فلنذكر منها فقط للأهمية ما يأتى :

الأرز الذى أتى به من الهند فى عهد الخلفاء والذى يزرع في الجهات الرطبة كدمياط وشمال الدلتا . هو يشغل تقريباً ٦٪ من المساحة المنزرعة ، ولكن مقدار مساحته يتعلق بغزارة الفيضان ، والحكومة تحدده ، وهكذا في سنة ١٩٣٥ كان ٤٧٠ ٣٧٥ فداناً . وفى سنة ١٩٣٧ كان ٢٤٠٤٦٩ فقط . وفي سنة ١٩٣٩ كان ٤٧٦٤٥٤ . إنه جيد النوع ، وهو لهذا يصدر إلى الخارج.

الفول هو طعام لماشية الحرث من يونيو إلى ديسمبر ، وحينما يكون جيداً هو - معداً بالزيت أو بالسمن - طعام لذيذ للشعب .

البصل وقصب السكر ، وهما من غراس مصر العليا ، والشعير والعدس والتمر ، وذلك فضلا عن الخضر والفواكه التى تنمو حقول استغلالها في كل عام ولو أنها محدودة.

يستبقى الفلاح لاستهلاكه الخاص قطعة من الحقل الذى يستغله ، فيغرس فيها

بدون سماد خضر الفصل كالباميا فى الشتاء ، والفول فى الربيع ، والملخية فى الصيف ... وسنتحدث عن ذلك بمناسبة طعامه .

ولكن هذه المنتجات فوق أنها تشغل مساحة أقل كثيراً من المنتجات الأخرى ، هى لا تتطلب طرائق كثيرة الاختلاف عن الطرائق التى رسمناها .

صارت مصر بلداً متعدد الزراعة ، ولكن هذا الاختلاف لم يخلق من الفلاح متخصصاً ، ولا من عمله تخصصاً ، بل ظل عاملا عاماً « الرجل الذى يعمل فى كل شئ » وتحت ذلك الاختلاف الظاهرى فى الوسائل ظل عمله بسيطاً ومتشابهاً ، وبدون هذا التباين الذى تخلقه المهن ، وكذلك بدون ذلك التخصص « التيلورى » الذى يحدد النشاط بإشارة هى دائماً بعينها .

وهكذا يلتئم الفلاح مع كل زراعة جديدة . هو لا يبتكر ، ولكنه يسلم نفسه الى الزراعة التى أمر بها بامتنان يتضاعف بزيادة الثمار . ولقد لاحظنا ذلك لمناسبة زراعة الكتان .

على أنه ليس كذلك بإزاء التجديدات الميكانيكية ، ولابد أن يكون القارئ قد لاحظ فى كل ما سلف أن الأمر لا يتعلق بالسيارة الحراثة ، ولا بالحصادة الرباطة ، ولا بالجبّابة ، ولا بالدراسة ، ولا بسيارة النقل ، ذلك لأن الفلاح لا يكاد يستعمل اليوم هذه الآلات الميكانيكية أكثر مما كان يستعملها بالأمس لأنه فقير ، ولكن على الأخص لأنه ليس فى حاجة الى هذه الوسائط بينه وبين الأرض .

نحن نعلم أن أجهزة جد عصرية تعمل فى الممتلكات المستغلة فى الزراعة المباشرة ، وأن هذه الآلات يديرها فلاحون ... ولكننا لا نتحدث عن الاستثناءات ، فالفلاحون لا يستخدمون الماكينات .

أجود ؟ أجهل ؟ لكي نشرح ذلك نقول : إنه بالأحرى غريزة حفظ الذات ، وإذا كانت الآلات الميكانيكية لم تجلب إلى حقول مصر أكثر مما حدث ، فذلك لأن المستغلين بعد أن حسبوا حسابهم ألفوا اليد العاملة أكثر اقتصاداً ، فوجهتا النظر فى الوقت الحاضر تلتقيان .

غير أن الأمر لن يكون دائماً على هذا النحو ، فغداً ستزيد الصعلكة القروية فى مطالبها ، وإذ ذاك تلائم الآلة الميكانيكية المستغلين أكثر من غيرها .

يجب أن تكون الصدارة رغم هذا للعمل « اليدوى » لأن تصيير الزراعة فى وادى النيل ميكانيكية سيكون ملاشاة للتعادل الحيوى الذى استقر بين الزراع والزراعة ، وقطعاً للتوازن الذى تحتفظ به طريقة العمل ، وهى طريقة شعب كثير العدد .

## -٢- حالات العمل

هذه التربة التى يعجنها الفلاح بكل أعضائه يسلم إليها نفسه بدون احتياط وبهوى حينما تكون ملكه ، ولكنها لا تكاد تكون ملكه أبداً ، فهنا تملك الأرض الرجل وليس هو الذى يملكها ، وهذا فى الحق هو مفتاح سر كسله ، ففى الواقع أنه لا توجد من بين الحالات التى يعمل فيها أية حالة تحرره، ولنلاحظه فى كل واحدة من حالاته وهى جميعها توجد اليوم .

### الفلاح قابلا للتسخير

إن السخرة قد ألغيت في سنة ١٨٩٣ ولكنها بقيت قانونياً وعملياً فى بعض حالات « المنفعة العامة » وحينئذ يُستولى على الفلاح إلزاماً فينتزع من حقله وقريته ويرسل إلى الموضع الذى تطلب فيه ذراعاه من البلاد ، وذلك كالاحوال الآتية:

(١) عندما يكون فيضان النيل سيصير كارثة يعمل عدة مئات من آلاف الفلاحين نهاراً وليلا تحت عصى الموظفين والمراقبين لرفع الضفاف أو الجسور أو إعداد المصارف أو السهر على الخزانات .

إذا كان هناك مثلا جسر سيغمره الماء يقذفون بأنفسهم جماعات كثيفة إلى نقطة الخطر مسلحين بالفؤوس والمقاطف فيرفعونه ويقوونه مستعينين بالتراب والقصب وجذوع النخل ، وعند الحاجة بحطب الذرة وقصب السكر.

وفي سنة ١٩٣٤ كانوا يشتغلون على هذا النحو فى الماء لإنقاذ البلاد. وقد اعتمدت الحكومة مائة وخمسين ألف جنيه لمكافحة البلاء أى لشراء المواد اللازمة ودفع انتقالات الرؤساء ومنحهم مكافئات . أما الفلاحون فلم يتسلموا أى أجر على مشقتهم ولا أى تعويض لاغترابهم الجبرى .

كل مصرى بمقتضى القانون يمكن أن يؤخذ ليساعد على دفع الخطر ، ولكن الواقع هو أن الفلاحين هم وحدهم الذين يساهمون فى هذا العمل ، ومع ذلك « فمنذ الآن لم يُستَخدَم أحد فى ضفاف النيل أو جسور الحياض أثناء الفيضان دون تسلم أجر[١] ملائم ».

(٢) ثروة البلاد قد هوجمت : القطن مريض ، فمن الساعة السادسة إلى الظهر، ومن الثانية إلى السادسة ينحنى على شجيرات القطن جحفل من الرجال والنساء والأطفال ينقبون ويفتشون صفاً صفاً وشجيرة شجيرة وورقة ورقة ، ليزيلوا الشر، فالورقة المصابة تنتزع برقة وتوضع فى الثوب ، ولكن إذا أفلتت ورقة معدية ، فان المراقب الذى يتبع الفرقة يلاحظها ولا تلبث عصاه أن تهوى على ظهر العامل الجانى.

---

(١) خطبة العرش فى مايو سنة ١٩٣٦

« لقد اقتربت من أحد هؤلاء التعساء الذين يشتغلون تحت حرارة الشمس والضربات وسألته : كم يتقاضى على تعبه فى كل يوم ؟ فأجاب : — قرشين » . [١]

وهكذا فى يونيو سنة ١٩٣٦ بمقتضى قانون سنة ١٩١٠ [٢] قد سخر مليون من شباب الفلاحين لإنقاذ ٤٣٥٧٨٥ فداناً قد هاجمها الدود الأحمر [٣] الذى يأكل لوزة القطن و يتجدد خمس مرات فى العام . ومع ذلك فالجمعية الملكية الزراعية قد وعدت من يكتشف الدواء ويقى مصر من هذه الكارثة بعشرين ألف جنيه ، وفى ذلك اليوم ستلغي إحدى السخر .

(٣) فى كل خمس سنين تقريباً ، والمرة الأخيرة كانت فى سنة ١٩٣١ ( إذ قد أمكن أن يوقف فى الصحراء غزو سنة ١٩٣٧ ) تغزو أرض مصر سحب هائلة من الجراد ، وكان من الممكن أن تتلف المزروعات لولا أن كثرة أخرى تعترضها ، إذ هناك قرى تنقل بأكملها إلى الجهات الأكثر إصابة ( أمر ١٦ يونيو سنة ١٩١١ ) لإجلاء الجراد نحو الصحراء أو نحو البحر .

فى هذه الحالة ينحصر العمل فى حفر خنادق ، وفى الاحتفاظ بخطوط للدخان ، وفى الصياح ، وفى الهياج وتحريك النبات لإقلاق راحة الجراد وتعجيل هجرته .

---

(١) المصور ٢٨ يونيوسنة ١٩٣٥

(٢) المادة الثانية - يجوز للسلطة الادارية أن تكلف كل ذكر يزيد عمره عن تسع سنوات ولا يتجاوز خمسا وعشرين سنة كاملة ويكون معتاداً على أشغال الزراعة بأن يساعد فى الأعمال المذكورة بأجرة يقدرها المدير لكل مركز من مراكز المديرية حسب السعر الجارى فى الجهة المصابة . ( الوقائع المصرية فى ٢٠ أبريل سنة ١٩١٠ ) .

(٣) Gelechia Gossypiella ساندرس . دودة اللوز بالمعنى الدقيق هى : L'eàrias Insulana ودودة الورق . وهى كذلك ضارة جداً ، هى : La Prodénia Litura F.

(٤) وأخيراً ، لنشر إلى السخر العادية والغير المشروعة والتى هى لصالح العمدة ، فلكى يحتفظ الفلاح بحظواته أو يتجنب إعناته يخصص له عدة أيام بدون مقابل .

**الفلاح مياوما** – إن فلاح هذه الحالة إذ يستأجره (ريس) لحفر إحدى القنوات أو تحسين أحد الطرق أو للجنى ، وإذ يجند مع كثيرين آخرين ، يحمل فأسه وينفذ العمل الذى يؤمر به فى زمرة وتحت رقابة ضيقة على طريقة المساجين ، وفى الغالب يكون جد بعيد عن قريته ( الترحيلة ) [1] . ومن أجل يوم ذى اثنتى عشرة ساعة تقطعه فترة قصيرة فى الظهر يدفع إليه قرشان أو ثلاثة . ولقد قال لنا أحد كبار المُلاك ما يلى : « عندنا يدفع الى الفلاح فى العموم ثلاثة قروش فى اليوم سواء أكان ذلك للحرث أم للقطن » .

توجد هذه الحالة على الأخص فى مصر العليا حيث زراعة القطن أقل انتشاراً ، واليد العاملة أكثر تهيؤا ، والملكية الكبرى سائدة وكذلك فى ممتلكات الحكومة المستغلة فى الزراعة المباشرة .

وحينما لا يكون هؤلاء العمال مرتبطين بملكية ما . وفيما عدا الأشغال الكبرى التى تستأثر بهم يكونون معرضين للتعطل والبأساء . وهناك آخرون اكثر سعادة مرتبطون مسانهة وهم يشبهون « الأوبليجاتى » فى إيطاليا . وفى هذه الحالة يدفع غالبًا جزء من أجر عملهم أعيانًا طبيعية ، وجزء عملة . فمثلا يؤجر المالك للعامل فدانًا بالأجل ويسقط أجر الايام الممضاة فى خدمته من قيمة الإيجار ، وفي آخر العام يكون الفلاح مدينًا أو دائنًا حسب أجر الايام المقدمة منه ، أو أن الفلاح لا يتقاضى إلا قرشًا فى اليوم ، ولكن له فوق ذلك غلة فدان ذرة .

---

(١) الترحيلة هى استيراد رجال يستأجرهم (ريس) لحقل محتاج الى أذرعة .

إن الفتنة الكبرى هنا هى أن يقوم الفلاح بأقل مجهود، ولكن ينبغى الاعتراف بأنه بسبب وفرة اليد العاملة قد ظل أجر المياومين منخفضا الى أدنى حد ، وأن جميع التغيرات التى جلبتها الحرب لم تزده ، وأن ( الخمسة قروش ) تمثل حداً أعلى لا يلحق إلا نادراً.(١) ولقد عرفنا مالكا كان الناس ينظرون اليه كمجنون لأنه كان يدفع الى عماله على هذا الأساس .

لم يكن هذا الأجر ليكفى لمعيشة الفلاح وأسرته ولكن التكميلات التقاليدية من الأعيان الطبيعية كجنيات اللاقطات ، وكهبات الذرة وأحواض الخضر تعوضه في رخاء .

**الفلاح شريكا** ـ إن حالة المياوم مرتبطة بالاستغلال الكبير ، وحالة الشريك مرتبطة بالاستغلال الصغير . يشترك المالك مع الفلاح ليستغل بوساطته قطعة ذات خمسة أفدنة أو عشرة على الأكثر ، وهو يدفع الضرائب وتكاليف الرى و يقدم المواد الزراعيـة والماشية والبذور والأسمدة ، والفلاح ـ وهو رب الأسرة ـ يقدم شغله أى اليد العاملة الضرورية لكل زراعات السنة من الحرث الى الحصاد ، والغاية خارجة ، وهو لهذا يتسلم الخمس أو الربع من مجموعة إنتاج القطعة ، أو هو يحتمل نصف جميع التكاليف ، وإذ ذاك يأخذ نصف الغلة ، والعقد ـ وهو دائماً شفهي ـ يحمل عدة تغيرات .

لا يشتمل هذا النظام على مخاطرة ، وهو يحقق للمالك اكبر قدر من العمل ، وللفلاح قوت يومه ، ولكنه ضئيل الربح بالنسبة الى هذا الأخير ، لانه مع مساعدة أسرته إياه ، ومع عناية جميع اللحظات ومعونة كل الاذرعة المستعدة لا يستطيع أن يزرع إلا خمسة أفدنة على الاكثر. وفي نهاية العام لا يربح الا إنتاج فدان أو فدان وربع أى حوالى اثنى عشر جنيهاً مقابل شغل الجميع طيلة اثنى عشر شهراً . . . وهـذا

---

(١) هذا هو الحد الأعلى أيضاً للعمال المستخدمين فى النقل وفى الحرف الصغيرة .

اذا كان كل شيء على ما يرام ، لانه ليس من النادر أن ينقص هذا المبلغ ، فعند ما لا يكون لدى الفلاح مال قبل موسم الغلة يطلب مقدماً من المالك ، ليشترى لنفسه ( جلبية ) أو ليقوم بدفع تكاليف ختان أو جنازة الخ ، وهذه الاقتراضات التى تزيدها الفوائد تفوق أحيانا حصته فى الشركة ، واذ ذاك لا يتقاضى فى وقت إجراء الحساب شيئاً من المال ، وليس هذا فحسب ، بل هو يصير ايضاً رهيناً الى السنة التالية (١).

## الفلاح مستأجرا

ان الفلاح هنا مقاول اكثر منه فى الحالات الاخرى ، فهو يستأجر حقلا بشرط كمال التصرف من ستة جنيهات إلى اثنين وعشرين حسب الجهات ، وهو يلتزم بكل النفقات ، ولكنه يحتفظ بكل الغلة ، والمالك ليس عليه إلا دفع الضرائب ، وعقد الايجار فى هذه الحالة واسع المدى ، فهو في العادة يشمل عصر الترتيب الضرورى للزراعة أى سنتين أو ثلاثا .

ها هو ذا فلاح من ميت غمر ، وهى جهة غنية ، يستأجر فدانين بعشرين جنيهاً للسنة الزراعية ، ويزرع أحدهما قطناً فينتج اربعة قناطير(٢) وكل قنطار يساوى ثلاثة جنيهات ونصفا تقريباً فيذهب القطن الى المالك أى ان اربعة عشر جنيها تسقط من قيمة الايجار ، والفدان الآخر يزرع الفلاح نصفه برسيما ، ونصفه قمحاً في زراعة الشتاء .

---

(١) فى نشرة اتحاد الزراع المصريين بالقاهرة يثنى المسيو كازيفليس على نظام الايجارات الصغيرة كشىء أكثر فائدة للمالك والفلاح ( مارس ١٩٣١ ص ١٧٩ - ١٨٥ ) ويثنى المسيو ابراهيم رطل على زراعة الشركة ( مايو سنة ١٩٣٢ ص ٢٧٠ - ٢٧٤ ) . وكل شيء يتعلق بشروط المؤجر والمستأجر . هذان المقالان ذويا النغمة المضبوطة يبينان ضرورة منح بعض الفوائد للفلاح لكى تغل الارض أحسن إغلال .

(٢) ينتج الفدان من أربعة قناطير الى خمسة حسب درجة البذور . وفى سنة ١٩٣٦ كان المتوسط ١٦ ، ٥ وهو إنتاج استثنائى .

فأما البرسيم فتستهلكه الماشية ، وأما القمح فينتج إردبين ونصفا ، ثمنها ستة جنيهات تقريبا ، ولكن المؤجر يحتفظ منها باربعة للدفعة الثانية . وأخيراً يزرع المستأجر ذرة في الفدانين ، ولكنه قبل الغلة يجب أن ينتهى مما عليه للمالك وهو جنيهان ، وإذ ذاك يستطيع أن يتصرف في الذرة . وقصارى القول إن إنتاج هذه الغلة الاخيرة هو الذى يعود إلى الفلاح رب الاسرة وبذلك يحقق قوت داره ثم يبيع ما زاد . فاذا سار كل شىء حسنا استطاع أن يربح عند نهاية الحساب ستة جنيهات .

إذا سار كل شىء حسنا . . لأنه اذا كانت الغلة رديئة أو تلفت أو بيعت سيئا فان المستأجر يجب أن يدفع رغم ذلك القيمة المحددة كما تنص على هذا المادة ٣٩٢ من القانون المدنى المصرى . واذ ذاك يحدث الخراب . وأحيانا يكون عاما الى حد أنه لا يكون للحكومة بد من أن تصدر مراسيم بقوانين تعين تخفيض الايجارات بنسبة ٢٥٪ أو ٤٠٪ حسب تاريخ العقد ( السنون الزراعية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ و ١٩٣٠ - ١٩٣١ و ١٩٣١-١٩٣٢ ) ولكن الحكومة لاتستطيع التدخل دائما ، والارض بسبب الطلب تؤجر بأثمان مرتفعة ، ونتيجة ذلك بالنسبة الى الفلاح هى فى الغالب الدمار .

شرح مستأجر تعس كان قد حجز على جاموسته حالته لأحد المحققين على النحو الآتى : « استأجرت فدانين كل منهما باثنى عشر جنيها وأنفقت على كل واحد خمسة جنيهات في بذور وسماد وما شا كل ذلك ، ولا أقول شيئا عن شغلى وشغل أولادى ولا عن مساعدة حيواناتى طيلة السنة ، وهذه هى النتيجة :

أنتج فدان أربعة قناطير من القطن بيعت باثنى عشر جنيها ، والآخر خمسة أرادب من القمح وسبعة من الذرة بيعت بثلاثة عشر جنيها . وقد أنفقت من هذا الانتاج الذى مجموعته خمسة وعشرون جنيها عشرة جنيهات فكيف أدفع الايجار وهو (١٢ x ٢) ؟ لم يكن بد من بيع الجاموسة .

- ولكن ما دمت خاسراً ، فلماذا تستمر على أخذ أراض بالايجار ؟

- لأن الزراعة هي المهنة التي ورثتها عن آبائي ؛ ولانى لا أعرف أن أعمل شيئا آخر .

- ولكن لماذا تستأجر الأرض بهذه القيمة المرتفعة ؟

لأن ملاك الجهة قد اتفقوا معا على تثبيتها فى هذا المستوى ، ولان الفلاحين لا يعرفون كيف يخفضونها » .(١)

ولقد أضاف الى ذلك قوله :« مادام أنه قد أخذ منا كل شيء فسنسرق(٢) »

## الفلاح مالكا

لقد رأينا اكثر من مليونين من الفلاحين يملك كل واحد منهم قطعة من الارض وهي بالنسبة الى أربعة أخماسهم صغيرة جداً ( من قيراطين الى فدان ) الى حد أنها لا تكفى لشغل الأسرة ولا لقوتها ، ومع ذلك فالمالك الصغير بين الصعلكة القروية يمثل الطبقة الممتازة ، والمثل الاعلى لكل فلاح هو أن يصل الى هذا المستوى كما هو أن يتزوج وتكون له أولاد و يملك جاموسة .

ان مالك الحقل الصغير عليه نفس النفقات التي هي على المستأجرين من بذور وسماد وماشية ومواد زراعية ( وغالباً هو فى شركة ) وليس عليه ايجار يدفعه . ولكن عليه الضريبة ، وهى فى أغلب الأحايين ديون ، لان الفلاح - وهو مالى ردىء وليس لديه فى العادة ادخار - يستدين ليشترى بذوراً أو أسمدة ، أو ليستأجر الحقل المجاور الذى

---

(١) ينبغى أن نشير الى أن تزاحم العمران يؤثر فى قانون العرض والطلب .

(٢) الأهرام فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ . نحن نترجم

يكبر حصته الغير الكافية (١) بل - بدلا من أن يدفع ديونه القديمة - هو يشتريه .

ولما كانت المصارف لا تقرض مبالغ صغيرة ، فهو يقترض من الافراد الذين هم - رغم قانون سنة ١٩١٢ الذى حدد النهاية العليا للفوائد بنسبة ٩ ٪ - يقرضونه بنسبة ٣٠ ٪ بل ٥٠ ٪ .

غير أنه يجب عليه أن يسدد فوائد هذا الدين إن لم يسدد الدين نفسه ، ولكنه عبثا يشتغل شغلا قاسيا مع أسرته الكثيرة العدد ويبذل وسعه بلباقة فى أن ينتج الحقل أكبر قدر ممكن بأقل نفقات ممكنة - وتلك هى ميزة الملكية الصغيرة - فإنه فى أغلب الأحيان يوجد في موقف سيء وقت الدفع . واذ ذاك يجب أن يسلم ثمار عرقه أو يبيع جزءاً من أرضه .

هناك قانون ( ٣ ديسمبر سنة ١٩١٢ ) يعلن أن ثروة الأسرة (Homestead) أى خمسة أفدنة فأدنى غير قابلة لتوقيع الحجز عليها ، ولكن هذا الاحتياط بانتزاعه من المصارف ضمان قروضها ، قد وقف القرض المشروع عن صغار الملاك وقذف بهم الى المرابين .

الفلاح فى حاجة الى القرض ، نعم انه بخطئه غالبا لا يعرف كيف يستثمر مالا ليس ملكا له ، ولكن الطريقة التى يقرضونه بها تغوص به ، وكل قرض جديد يعمله لمحاولة الخروج يزيد من الغوص به : فالدين العقارى هو السرطان الذى يلتهم الملكيات الصغيرة (٢).

---

(١) أو ليأخذه بالشركة . ولقد هيأ لنا سكرتير الجمعية الزراعية الملكية أن نلاحظ أن الفلاحين فى هذه الحالة يحولون الاسمدة والماء والمجهود الى صالح ارضهم

(٢) أن تدفع الحكومة دينه الى المرابين حالة محله ومستوفية تدريجا مجموعة ديونها من دخله السنوى ، ذلك هو الحل الذى تعرضه .

ومع ذلك فلما كان هو مالك الحقل كان بعنوان ذلك مالك منتجاته ، مالك القطن الذى كان أفراد الطوائف الأخرى من العمال يرونه يؤخذ من أيديهم . تلك البضعة المملوكة له من قناطير تلك الغلة النفيسة يستطيع أن يبيعها لصالحه .

إن الفدان الذى أنفق عليه ثلاثين قرشاً للبذور ، ومائة قرش للسماد الكيميائى وسبعين قرشاً للضريبة والرى وشؤون مختلفة يمكن أن يأتى له بعشرة جنيهات ربحاً . واذا كان الفلاح أكثر ذكاءاً ، فانه يستطيع منذ سنة ١٩١٢ أن يحمل غلته الى سوق القطن ( الحلقة ) في المدينة المجاورة، وهناك الوزن والثمن تراقبهما الحكومة فلا يستطيع التجار أن يخدعوا . وعند ما لا تكون الحاجة الى المال طاغية ، فان المالك الصغير لا يبيع قطنه بعد الجنى مباشرة ، و إنما هو يودعه فى ( شونة ) أحد كبار الملاك ، أو أحد المصارف ، أو أحد الحاج فى مقابل عربون به يستطيع أن يدفع ديونه الأكثر إلحاحا وعروض الشراء فى المستودع هى بالقرش والقنطار ، ولكن القطن يشترى أحياناً مقدماً ، أى أنه منذ البذر يتعهد المالك الصغير بأن يسلم الى فلان كمية كذا بدرجة كذا ، وفى هذا الوقت يحدد الثمن أو يحرر عقد أساسى لبيع جزء صغير ، والجزء لآخر يتبع سير ( الكونتراتات ) فى ( بورسة ) الاسكندرية فى اليوم الذى يلائم البائع ، على أن يكون ذلك فى المدة المعينة في العقد .

غير أن جميع الاحتياطات التى تبغي حماية الزارع الصغير لا تمنعه من أن يظل مخدوعاً فى أغلب الأحايين بسبب جهله وانفراده ببيع قطنه ومنتجاته الأخرى أيضاً

يقرض ( بنك ) التسليف الزراعى مثلا على القمح ، ولكن ذلك لصغار الزراع فقط الى أن يستطيعوا بيع غلتهم بثمن أعلى. هذا حسن جداً ، ولكن هناك تجاراً في القرى يحصلون على شهادات من العمد - وهو أمر هين - تثبت أنهم أيضاً مزارعون وإذ ذاك يشترون من الفلاحين الحقيقيين بسعر مائة وعشرين قرشاً للإردب . ولما

كان هؤلاء يجب عليهم دفع الضريبة والالتزامات ولا يدرون إلى من يتجهون ، فانهم يبيعون لأولئك التجار « المحسنين ». وفى مبدأ موسم الغلة يمكن أن يبدو ذلك صفقة حسنة ، ولكن الإردب فى القرية يوازى مائة وخمسة وسبعين كيلو ، على حين أن ( بنك ) التسليف الزراعى يأخذه على أساس مائة وخمسين كيلو كما في المدينة ويقرض عليه مائة وثلاثين قرشاً ( ١٩٣٧ ). هاهم أولاء إذاً ، تجارنا المهرة يودعون فى ( شون البنك ) قمحهم الذى يزعمون أنهم حصدوه . وعلى هذا النحو يربحون عشرة قروش مضافة إلى خمسة وعشرين كيلو فى كل إردب . وهم ينتظرون بدون مخاطرة أنهم - عند البيع الموكول الى عناية ( البنك ) الزراعى - يتقاضون متمما لربحهم

كما أنه لا يوجد بين حقول مصر حواجز ، وإنما توجد حواش وجداول ، كذلك لا توجد بين الصور المختلفة للعمل الذى حللناه آنفاً أسوار صفيقة ، فكل واحد من هذه الاصناف - لعدم كفايته - غير متنافر مع الآخر ، وقليلون من الفلاحين أولئك الذين لا يتجاوزون أحدها الى الآخر أو الذين لا ينتسبون فى الوقت ذاته الى أحدها والى الآخر . وحالة الفلاحين نفسها تسبغ عليها جميعها شيئاً من التشابه

(١) بديا التشابه فى الفقر : بسبب أن الفلاح لا يعرف التدبير ولا الادخار ، ولكن على الأخص بسبب أنه ضعيف ومنفرد وجاهل ، فإن الاكثر منه قوة وثروة يجني ثمار عمله ، إذ أن المصرف أو المرابى أو الحكومة أو العمدة أو المالك يجنى أكبر جزء إن لم يكن كل ما أوصله إلى النضوج بعرق جبهته ، أما هو فإنه يظل فقيراً كـ« الأبرة التى تكسو الناس بينما هى تبقى عارية » ( عبارة فلاحية ).

(٢) التشابه فى التبعية : لا يستطيع الفلاح أن يغرس ما يريد ولا متى يريد ، فهو اذا كان مياوما يعمل مع زمرة في مهمة جد محدودة تحت أمر المراقبين الضيق . واذا كان شريكا أو مستأجراً ، فان زراعاته ينظمها رسم المالك ، واذا كان هو نفسه

مالكا فإنه يتبع فى التواريخ وفى أنواع النبات أوامر وزارة الزراعة وليس لديه أية حرية ولا أى ابتكار لا فى الطريقة ولا فى الزمن ولا فى الاختيار.

(٣) التشابه فى تحقق أقل قدر ممكن : مهما كان استغلال الفلاح سيئاً ، فإنه على الأقل متأكد من قوته ، إذ لا يموت أحد فى القرى جوعا ، وفى أسوأ حالات العمل تظل وسائل الأرض باقية .

(٤) التشابه فى التعاون الأسرى : ينبغى أن يعتبر المرء دائماً كمماد لعمل الفلاح عمل أسرته ، ففى الطبقة القروية المصرية تؤلف المرأة والأولاد والجاموسة والحمار رأس المال العادى للاستغلال ، والخلية الريفية المتوسطة الآتية :

الفلاح - وهو رب الاسرة - : يقدم أيام عمله .

زوجته - وهى اليد العاملة المساعدة للبذر والجنى - : تربى طيور المنزل وتصنع الزبد والجبن وتبيع هذه المنتجات .

أولاده : يشتغلون بالماشية ويقتادونها إلى الحقول وإلى موضع الاستحمام و يلتقطون الأرواث و يراقبون الساقية و يبحثون عن الأسمدة . وفوق ذلك فانهم إبان خمسة أسابيع أو ستة يستخدمون فى مقابل أجر للجنى أو مكافحة دودة القطن أو للحلج فى المصانع .

جاموسته : تجر المحراث وعجلة الساقية وما شابه ذلك ، و تدوس القمح وتنتج اللبن والسماد ( وهو بول وتراب ) والوقود ( وهو روث وقش ) .

حماره : ينقل الأسمدة والغلة والفلاح . . .

هذه الخلية الريفية يمكن أن تحقق عملياً القوت اليومي - وهو الأجر الطبيعي بالمعنى

الضيق - فان عمله في جميع السنة يظفر بنحو عشرة جنيهات على أكثر تقدير .

غير أن رأس مال الاستغلال يستهلك ، وهذا المال الذى كان يجب أن يكون ربحه ينفق في الضرورات الآتية :

| | |
|---|---|
| زيت للطهي ، وخضر متممة ، ولحم أحياناً ، وسكر وشاى | ٢٠٠ قرش |
| زيت أو بيترول للمصباح وتجديد للمواد المنزلية ( كالقلة والصحفة ) أو الزراعية ( كالمقطف ) وكلأ الصيف للجاموسة والحمار | ١٠٠ « |
| كساء جديد ( جلبية أو فستان ) لكل عضو من الأسرة فى فرصة العيد | ١٥٠ « |
| نفقات المرض والخرافات والمتع والغرامات | ٥٠ « |
| نفقات فوق العادة | ٥٠٠ « |

وتحت هذا العنوان الأخير الذى هو الإمكان الوحيد للاقتصاد توجد دائماً إما نفقات الختان ، أو نفقات الجنـازة ، أو نفقات الزواج أو المهر ، أو نفقات الفدية العسكرية ، وأحياناً تطبع الميزانية بطابع العجز .

بينما حددنا فيما يتعلق بالدخل النقدى عشرة جنيهات كحد أعلى ، فإن إنفاق عشرة جنيهات هنا يمثل الحد الأدنى . وهذا هو السبب فى أن توازن ميزانية الفلاح يتصدع بسرعة الى هذا الحد ، وأن الديون والفوائد ترهقها فى أغلب الأحايين .

وإذا لم يتحتم لحسن الحظ أى واحد من تلك الإنفاقات الغير العادية ، فإن الفلاح بجمعه قرشاً قرشاً فى قدر يدفنه فى الأرض يستطيع فى النهاية تحقيق حلمه وهو شراء جاموسة أو بضعة قراريط من الأرض .

هذا الإمكان الأخاذ - لأنه دائماً قريب - يجعله يستأنف فى كل عام بدون كلل نفس العمل . . . مثل الأرض ومعها .

# الفصل الخامس

## جسم الفــــلاح

شغل مادى ، وعمل جسم ، بل عمل كل الجسم . هكذا رأينا عمل الفلاح فَلْنَعْتَبر الآن الأداة فى ذاتها ولْنُلاَحظ جسم الفلاح فى أرومته ، وفى نموذجه ، وفي حياته ، وفى زينته ، فانا سنجد فيها فعل الماء والأرض والشمس ، وهى عوامل مادية تشرح بنية الفلاح الجسمية وأحياناً تحددها .

ومع ذلك ففى وسط هذه التبعية المادية تبدو حرية الانسان فى عدم تطابقها مع البيئة ، ولكنها إذ ذاك تخضع لقيد آخر ، وهو قيد التقاليد ، فتظل النتيجة كما هي ، وهى الثبات .

### ١ – الأرومة والنموذج

ألى أية أرومة ينتسب الفلاح العصرى ؟ ما هو سلفه ؟ وأين موضع أصله ؟ نحن نضع هنا أسئلة لم يستطع أحد إلى الآن أن يجيب عليها أية إجابة نهائية ، ومع ذلك فانا لم نعدم الباحثين ولا النظريات الفرضية ، ولا الأخيلة فى هذا الموضوع ، ولكى لا نصعد إلى ما وراء القرن الثامن عشر ، فان « فولنيه » مثلا يؤيد أن المصريين هم من أصل أسود ، و « فيفان دينون » يعزو اليهم أصلا قوقازيا ، « و پوانسينيه دى سيفرى » يظن – تبعاً ل « بلين الأصغر » – أنهم ينحدرون من السيلت . ويرى « و ينكيلمان » أن هجرة صينية هى التى توضح المشكلة ، ويلجأ « موروودى جون » إلى البولينيزية ، ليجد مهد الأرومة المصرية .

وفى نهاية القرن التاسع عشر أخذ علماء الأرومات – بوسيلة أكثر علماً ورجحاناً – يبحثون فى جوار مصر : فى افريقيا أو فى آسيا عن مفتاح المعضلة .

ولقد أيدت « هارتمان » ثم « ف. بيترى » و « ماسبيرو » الأصل الافريقى ،

وهذان الأخيران يربطان المصريين بالايتيوبيين .

أما « شانتر » فبعد إجراء مقاييس علميـة على أجسام بشرية تبلغ عدة آلاف من العصرية والقديمة قد استنتج أن المصريين ـ دون أن يكونوا من أرضهم نفسها بهيئة إطلاقية ـ هم افريقيون جوهرا ( أى من أرومة ليبية ) وأنه إذا كان هناك تسرب آسيوى ، فإنه لم يؤثر فى الأصل . (١)

ويظن « شو ينفورت » معتمداً على علم النبات ان شبه جزيرة العرب الجنوبية هى نقطة ارتحال الأرومة المصرية . على حين يُعْتَقَدُ أن «أميلينو» و « دى روجيه » و « ج . دى مورجان » ـ وسلطانه العلمي أقوى من سالفيه ـ معتمدين على الدراسة الموازنية للغات والفنون والأخلاق والخصائص البدنية يرون فى كلدان أرومة الأسرة المصرية . (٢)

والنظرية السائدة فى الوقت الحاضر ـ لأنها أقل بساطة ـ هي التى قد تـكون أكثر قرباً من الحقيقة ، ونحن نوجزها فيما يلى : قبل التاريخ لابد أن يكون آسيويون ( سواء أكانوا عرباً أم بابليين ) قد احتلوا وادى النيل فانماعوا رغم سيادتهم فى السكان الذين كانوا مستقرين من قبل، وهم خليط من بني البلاد ومن الإيتيو بيين.

هذا الرأى الجامع الذى أتى بعد القضية وضدها فيه ميزة الإلمام بالأسـانيد المتناقضـة التى عليها تتأسس الآراء المتعارضة ، وهو يسمح بإدخال المصريين فى مفهوم « إنسان البحر الأبيض المتوسط » السامى الحامي الذى يشغل إفريقيا الشماليـة

---

(١) « إرنست شانتر » . « بحوث علمية حول مقاييس الجنس البشرى فى مصر » وهو ٣١٨ صفحة ويشتمل على ١٥٩ رسماً ، ليون ، « ريه » سنة ١٩٠٤ .

(٢) « ج . دى مورجان » « بحوث حول أصـل المصريين » باريس ، « ليرو » سنة ١٩٠٩

وجزءا عظيما من آسيا الدنيا وشواطىء البحر الأبيض والذى ينم أحيانًا عن بعض مشابهات إيتيوبية عند حدوده مع الأصول السوداء .

إن دراسة جوانب الأوجه المرسومة فى الصور الحائطية والهياكل المكتشفة فى الحفائر المختلفة تضطر المرء إلى الاعتراف حقًا بثلاث أرومات مبدئية : الساميون "dolichocéphales" دوليكوسيفال ( أى الذين تفوق أطوال رؤوسهم أعراضها بنحو الربع ) وهم ذوو قامات متوسطة ، وأبناء شواطىء البحر الأبيض المتوسط "brachycéphales" براكيسيفال ، ( أى الذين تكاد أعراض رؤوسهم توازى أطوالها ) وهم ذوو أنوف مستقيمة قصيرة ، واللوبيون وهم براكيسيفال وأنوفهم مقوسة ، ولكن الحياة الزراعية والمناخ قد مزجا هذه العناصر الوطنية بالأجنبية ليكوّنا الجنس المصرى بالمعنى الكامل أى الفلاح ، وهو جنس واحد فى جوهره كوادى النيل .

ومهما يكن من الأمر ، وإذا كنا لانعرف بالضبط من أين أتى المصريون القدماء فإننا نعرف بهيئة يقينية أن سكان البلاد الحاليين ، أو الفلاحين على الأقل ، وهم الذين يعنوننا قد انحدروا من الشعب القديم الفرعونى ، وهم يخلفون ـ دون انقطاع إبان خمسين قرنا ودون اختلاط تقريبا خلال الفتوحات ـ المصريين الأسريين الذين يعرفهم التاريخ

نحن نقول بدون اختلاط تقريبا ، ففى الواقع أن العبودية والاحتقار اللذين كانا الشعب الأصلى يرسف فيهما منذ بدء زوال عصر الفراعنة قد حفظا جنسه : فالفرس والإغريق والرومان والعرب والترك والفرنسيون والانجليز قد تبعوا فى هذا الشأن سياسة واحدة وهى سلب ثروات مصر والسيادة عليها بسبب ذلك ، ولكن دون أن يشاركوا الشعب المنتج أو يختلسوا مكانه . ولما كانت مصر مأهولة بقاطنيها فلم تكن قط مستعمرة معدة للتعمير ، ولم يكن المتسعمرون كثيرى العدد إلى حد يكفى لتغيير الجنس ، فبقى نوع حياتهم مختلفاً وظل الاتصال مقصوراً على المعارضة .

ومع ذلك فقد وجب التغلغل بوساطة الجوار من الرُّحّل والسود . وثبّتَ الغزو العربى الناشىء من الفتح الإسلامي ( فى القرن السابع ) كثيراً من الرحل فى المدن ، ولكن أيضاً فى القرى المصرية . وقد فرض العرب بقوتهم كفاتحين على سكان البلاد لغتهم ودينهم وطائفة من عاداتهم بإزاء النساء وصلابتهم ، غير أن الأهلين الأكثر عدداً مائة مرة - ولا سيما فى القرى - ونساءهم الأعظم خصوبة والأشد قوة ، ونوع حياتهم وثباتهم ، كل ذلك قد طبع العناصر العربية بطابع النموذج المصرى . فعند ما استقر العرب على الأرض السوداء اعتنقوا تقاليد الحراثين القروية . ولا يزال المرء يلاحظ ذلك إلى اليوم فى الدلتا العليا التى كانت الهجرة العربية فيها أكثر قوة ( وهى أراض أكثر غنى ) وفى الدساكر الطارئة التأسيس على هامش الصحراء . وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال لم تعد الطعمة تمتاز عن الشجرة ، أو إذا كانت شديدة التباين معها ، فإنها لا تنال من مائها ، إذ الامتزاج بالنموذج فى الواقع مرتبط بالامتزاج فى نوع الحياة . فالعرب الذين ظلوا رُحّلاً والذين يكلفون بنقل القطن على الجمال والذين يقودون القطعان والذين ينهبون ويقتلون ، وهم الذين يدعون فى مصر بالبدو ، هم يختلفون بوضوح عن الفلاحين بتقاسيم وجوههم الأكثر دقة وأمزجتهم الأشد عصبية .

هناك اختلاط آخر ينتج فى الجنوب بين السود والفلاحين . ولما كانت العناصر هنا أعظم تبايناً ، فإن الاختلاط يبدو بهيئة فائقة ، ولكن النموذج المصرى هو الذى يسود ، وكذلك ابتلاعه العناصر المجاورة والتى هي بالتالى تشبهه قليلا . هذا الانمياع فى شعب مستقر أكثر صلابة وأكثر عدداً ، هو ظاهرة منطقية ولو كان الغزاة أو المهاجرون ملايين أو كانوا قد أتوا من بلاد الجيرمان أو البلقان ، لكان من الممكن أن يفرضوا نموذجهم رغم تأثير المناخ ونوع الحياة . وفوق ذلك ، فإن الصحراوين : الشرقية والغربية وعمق الجنوب وبعد وادى النيل عن المركز الافريقى قد حفظت

البلاد من كل هجرة شاملة بقدر ما حفظها ازدحام السكان الأُصليين .

ساعدت هذه الأسباب الجيوغرافيـة والتاريخية على حفظ النموذج المصرى ، فالأهلون القرويون على الأخص يحتفظون بسحنة تميزهم عن الاختلاطات التى لا تحصى مع الشرق الأدنى .

قيل إن الأقباط يمثلون بهيئة أتم نقاءا النموذج القديم ، وهذا حق فى المدن حيث الأقباط هم الوطنيون على حين أن المسلمين فيها ينحدر أكثرهم من العرب أو الترك ، وهم يرتبطون بنساء من جميع الأقطار . وفى هذه الحالة يكون الفرق العنصرى والبدنى جلياً ، ولكنه فى القرى لا يتحقق ، فالفلاحون الذين ظلوا مسيحيين والذين صاروا مسلمين ( وهم ٨٨ ٪ من الأهلين ) هم من أرومة واحدة . وإذا كان أولئك لا يتزوجون إلا فيما بينهم لأسباب دينية ، وبهذا يحتفظون بالجنس ، فهؤلاء يسلكون الخطة نفسها بدافع التقاليد ، إذ النفور بين الفلاحين والبدو يجعل الزواج بينهم نادراً إلى أقصى حد ، ومصاهرة الأجنبى الذى تلجئه حادثة ما إلى الثواء فى القرية هي أشر الفضائح . وهكذا كان النموذج العام متوحداً بهيئة تكفى لإمكان وصفنا إياه دون هوى شخصى .

الفلاح ذو بنية سميكة ، ولكنها ليست بَدِينَةً ، وجمجمته ووجهه عريضان ، وجبهته ضيقة ، وعيناه وشعره سود ، ووجنتاه بارزتان إلى حد ما ، وأنفه سميك ، وشفتاه ضخمتان ، ولكنهما ليستا مقلوبتين ، وفكه ثقيل ، وتقاسيمه غليظة فى مجموعتها ، ولكنها ليست فظة ، وهى ليست كثيرة التحرك ولا عظيمة الدلالة ، ومواضع الربط من جسمه قوية ، وهي تميزه من البدوى ، فعنقه ورسغاه وكعباه ربعة ، وظهره مقوس ، وكتفاه ليستا منخفضتين ولكنهما منحنيتان على الصدر ، أما ردفاه فمضغوطان ، وقدماه كبيرتان ومبسوطتان ، ومتوسط قامته متر وثمانية وستون سنتيمتراً

وعلى هذا النحو النساء مع الاحتفاظ بجميع النسب ، ومع ذلك فيبدو أنهن قد احتفظن بنقاء النموذج أكثر من الرجال (١)

هذه هى خصائص جنس ونموذج . نعم لم تنعدم المغايرات كما هو الشأن فى كل كائن حى ، ولكنها لاتصل إلى حد التضاد ، بل تبقى فى حدود الفوارق الدقيقة .

وهكذا يستطيع المرء أن يلاحظ :

أولا أن الجمجمة ( ٧٥ تقريبا ) وهى أقوى من ذلك بوحدة فى مصر السفلى

ثانيا أن هناك انعطافا طبيعيا إلى السواد بقدر مايتقدم المرءنحو النوبة . ولقدسجل ذلك المقريزى وعبد اللطيف فى القرن الرابع عشر . وكل الرحالة الذين يصعدون إلى أسوان يستطيعون أن يلموا بذلك .

ثالثا أن الصعيدى أكثر سمرة بسبب الحرارة ، وأكثر صلابة ، وأقوى عضلا ( لجفاف المناخ ) وهو أطول من فلاح الدلتا .

## - ٢ - معاملة الجسم ولباسه

إن الجهاز الشعرى قليل النمو ، والفلاح يحمل شعراً قصيراً إلا متى صدم الموت ذكراً من منزله ، ولكنه يحتفظ عن طيب خاطر بشاربيه كإحدى علائم الرجولة ، فإذا صار شيخاً موقراً أرسل لحيته . وعندما كان طفلا كان أهله يحلقون رأسه تماماولا يدعون منه إلا الخصلة الطقوسية .

أما شعر النساء فلعدم العناية به يظل ضئيلا ، وهن يطلن بحبال صهباء أو سوداء

---

(١) الدكتور أبات باشا « ثبات الجنس فى المرأة المصرية » نشرة الجمعية الجيوغرافية ، القاهرة مجلد ٦ من صفحة ٤٦١ إلى ٤٧٠ .

غدائرهن الهزيلة التى هي دائماً مخبوءة تحت النقاب أو محتواة فى منديل ، و إزالة الشعر هى - منذ أقصى العصـور الأثرية - عامة لدى الجنسين ، وهى تُؤدَّى بالموسى ، أو بوضع و نزع ( كرملة ) من سكر وشبة ( وهي الحلاوة ) .

كـكل الشعوب القديمة التى تحتفظ بنفسها يختص الفـلاحون بشراتهم بتجميل وصحة و تقاليد يتلقونها ويتناقلونها منذ زمن لاتعيه الذا كرة : فالتشريطات واللزقات والطلاءات كلها ترمى دفعة واحدة إلى التجميل والوقاية والعلاج .

تثقب شحمتا أذنى الفتاة الصغيرة و يثقب أحيانا أحـد حواجز أنفها ، وإلى أن تنال هذه الثقوب أقراطها تحفظ بخيوط .

أما الغلمان جميعًا سواء أ كانوا مسلمين أم أقباطًا ، فإنهم - فيما بين السادسة والعاشرة - خاضعون للعملية ، للتقليد الاحتفالى ، تقليد الختان ويجريه حلاق القرية

وفي بعض الاحيان - وكان ذلك فيما مضى أ كثر وقوعًا - تجرى عمليه البتر للفتيات (١) . وعلى الضد من ذلك في بعض الحالات وفي بعض الجهات تثقب اذن الغلام اليمنى .

لايشرط الفلاحون وجوههم كالنو بيين ( البرابرة ) ولـكنهم يلونونها .

بديابالوشم الذى يؤلف العلامة المميزة للشعب : فالرجال والنساء موسومون بها منذ المراهقة . فى وسط الجبهة ، أو فى وسط الذقن ، أو على الصدغين ، أو على ظهر اليد ، وهى نقط أو صور هندسية ، وعلى الصدر ، وعلى الظهر أو على المعصم ، وهي

---

(١) يدهشنا أن يعلن المؤلف أن ختان الفتيات لايجرى إلا أحياناً ، وأنه كان فيما مضى اكثر وقوعا ، لأن الذى نعرفه هو أنه يحدث دائماً وبدون استثناء . « المترجم »

رسوم ساذجة وغير ماهرة كسيف أو شجرة أو اسم أو تاريخ ، وعنـد الاقباط صليب يختلف تزيينه بالزهور كثرة وقلة . لايكاد وشم الفلاحين ينخفض عن الخاصرة ، وهو ليس ماجنا ألبتة . والذى يصنعه اختصاصى ، وهو فى أغلب الاحيان بدوى : رجل للرجال ، وامرأة للنساء ، وهو يقوم به فى الهواء الطلق في احدى زوايا الطريق وفى يوم السوق . وطريقة عمله بدائية ، وهى تحدث تورما مؤلما . فى المـكان المعين وحسب النموذج المختار يرسم الفنان بقوة ، الخط فوق الجلد بآلة مدببة مؤلفة من خمس أو سبع إبر جد محبوكة ، أو بنوع من الأختام معد لطبع الوشم ثم يلون الرسم الدامى بسوا د الدخان ممزوجا بالزيت أو بالـكحول فيحصل بهـذا على لون أخضر ثابت .

أما صبغة الحناء للشعر والأيدى والأقدام أو للأظافر فقط ، فهي تجمل مصرى عريق ، إذ هى تصعـد إلى الأسرة العشرين . وقد قوى العرب [١] استعمالها . استعمال الحناء شىء دقيق ، فمن مسحوق ورقها الناعم تصنع لزقة ويجب أن توضع حارة و يحتفظ بها حسب ـ درجات الجودة ـ من ثلاث ساعات الى أربع وعشرين ساعة . واذ ذاك يحدث منها لون أحمر برتقالى أو أسمر يبقى نحو خمسة عشر يوما .

تصبغ الأيامى شعورهن بالحناء لاستعادة الشباب وللعثور على أزواج ، والشابات لتنظيف رؤوسهن ولقتل القمل ومنع سقوط الشعر وللتجمل . وكذلك تصبغ بالحناء جماجم الأطفال المحلوقة للصحة ، ولـكن أيدى النساء وأقدامهن وأظافرهن لا تلون على هذا النحو إلا فى الحفلات الـكبرى مرة أو مرتين في العام .

---

(١) « فوند يرهيدين » « الحناء عند مسلمى افريقيا الشمالية » فى مجلة الإفريقيين ، باريس سنة ١٩٣٤ مجلد ٤ صفحة ٣٥ — ٦١ و ١٧٩ — ٢٠٢

أما الكحل[١] فيبرز بالسواد الأهداب والحواجب ويوسع العيون التى هو يستعمل فى تجميلها كما يستعمل فى وقايتها ٠ وليس هناك امرأة لاتستعمل هذه الزينة الاقتصادية لها ولبناتها . ففى يوم العيد أو التعب تضعه فى مهارة بالمرود المغموس في المكحلة .

الختان هو فن من فنون العلاج ، والوشم هو طائفة من التشريطات الطبية ، والحناء لزقة صحية ، والكحل من أدوية العيون (قطرة) لأن هذه التجميلات الصناعية التى نصفها تمثل فى الوقت ذاته بالنسبة إلى الفلاحين علاجاً للوقاية أو للشفاء ، وأيضا هى كفعل سحرى فالختان يكرس ، والوشم يرمز والحناء تعيد الذكرى ، والكحل يقصى العين الحاسدة ، وليس هناك ترف بدون مغزى أو منفعة .

لايستحم الفلاحون للتلذذ أو للنظافة ، فحسبهم انغماسهم فى الماء لعملهم أولدينهم ( التطهرات الاسلامية ) .

في كل مساء الوضوء التعبدى الذى يشمل الأيدى والأرجل والوجوه والأعضاء التناسلية يحقق للرجال على الأقل الحد الأدنى للاستعمال الصحي للماء . أما الأطفال فهم يعيشون فى الماء عندما يستطيعون ذلك أو حينما ينبغى إحمام الحيوانات ، وأما النساء فينغمسن فيه جماعات وهن فى لبسات المتفضل ليغسلن الملابس ويغتسلن في الوقت ذاته . بالطمى أو بقطعة من الخشب أو الصابون وهناك قرى عديدة لايغتسل فيها النساء حقا إلا فى فرصة زواجهن ثم مرة في كل عام يوم العيد الأكبر . [٢]

---

(١) تراكيبه متعددة ولكن الغالبة فيها أساسها من الأثمد مع خليط من نباتات محترقة ومن سواد الدخان ورماد الكندر وهكذا .

(٢) يدهشنا هذا التعميم حتى فى بعض القرى لانه لابد للمرأة المسلمة من تطهرات شرعية ضرورية تتكرر كثيراً وترغمها على الاغتسال . ( المترجم )

**كيف يلبس الفلاحون ؟** - هنا نعثر على غرابة مصر ، فاذا كان كثير من أفعال وعادات الحياة اليومية عاما لدى جميع قرويي العالم أو على الأقل لدى جميع القرويين الفقراء أو القرويين المسلمين فان الفلاح - في طريقة لبسه - يمتاز بوضوح ويعرف في الحال . فكما يوجد فى الأرض والنموذج كثير من الوحدة كذلك لايوجد هنا أيضا أى شيء من التنوع الذى يميز الحداثة ولا من التعقد والتوشيةاللذين يجملان الملابس القروية في سوريا وفى فلسطين ولكن الأولى بنا أن نذكر شيئا من التفصيل :

غطاء الرأس عند الرجل يتحدد إلى أبسط مظاهره ، فهو يغطى قمةالرأس، ولكنه لايحميه من الشمس ، وهذا الغطاء المصنوع من الصوف الكستنائي اللون (لبدة) يميز الفلاح المسكين إلى حد تعين نموذجه ، إذ هو في الواقع يدعى بـ « أبو لبدة » وهو البطل الشعبى لقصص عدة ، وهذا الغطاء يصنع أحيانا - وللاطفال دائما تقريبا - من البيكة البيضاء ( طاقية ) . وعندما يكون الفلاح أكثر سعة أو أكثر تدينا ففى الظروف الكبرى - وذلك في الجنوب على الأخص - هو يحيطغطاءه بقماش أبيض ( أثر عربى ) وهو يستعمله أيضا لتغطية العنق . واللبدة الجيدة هي العميقة التى يجب أن تصل إلى الأذنين تقريبا . وفى هذه الحالة تتكلف ثلاثة قروش ونصف قرش .

أما ( الجلبية ) فهى الجزء الأساسى من ملابسه ، وهى ثوب أزرق قاتم أو مائل إلى البياض مصنوع من القطن . هو نوع من الاقمصة بدون رقبة وبدون حزام، مقفل إلى أسفل الصدر، وطويل الى الكعبين، (وكماه) طويلان وهو أميل الى الاتساع. ولما كانت مفتوحة قبالة الصدر ، فهى تسمح برؤية أزرار الصديرى وخطوطه . يلزم لثوب الشاب خمسة أمتار من النسيج المتوسط الذى يساوى من ثلاثة قروش إلى ستة ، والخياط يتقاضى ثلاثة قروش على خياطته .

وعند الشغل يقلب الفلاح جلبابه ويثنيه إلى ركبتيه ويرفعه إلى حزامه على صورة

قميص قصير ، أو ينزعه و يطويه و يضعه فى مأمن إلى أن يستعمله كوسادة فى ساعة الراحة . وإذ ذاك يبدو فى لباس أبيض وسروال واسع يغطى ساقيه مربوط فوق الخاصرة بحبل صغير، وصدرة فوق القميص الذى يهفهف طرفاه على منتصف الفخذين فوق السروال ، ولكن عندما يشتد الحر ينتزع الفلاح صدرته ، بل قميصه و يشتغل عارى النصف الأعلى .

وقدماه أيضاحا فيتان دائما ، ومع ذلك فهو يملك بوجه عام نعلين سميكين ضخمين من جلد أصفر ، هما تحميان القدمين الى الكعبين ولكنهما تدعان العقبين مكشوفتين. وهو يلبسهما فى الأعياد أو بعد الوضوء ، وهذه الأحذية هى صناعة محلية وتدعى : بلغة (١)

أما الأطفال فهم عراة تحت جلابيبهم التى هى أقصر وأميل الى البياض من جلابيب الرجال.

وملابس البنات اكثر تعقداً إذ تبقى فيها الخاصرة متميزة. هن يلبسن ألوانا صارخة وأنسجة قطنية ذات نقوش متعددة الألوان ، وشعورهن دائما محجوزة فى منديل من شاش موصلى معقود من زواياه ، وأحيانا يضعن كأزر فوطا جميلة يشترينها من السوق . أما النساء فحين يخرجن يغطين رؤوسهن ، وعندما يلتقين برجل يحجبن أسفل الوجه بنقاب طويل أسود (٢) لماع أو منطفىء يمتد إلى القدمين و يُصَيِّرُ أشباحهن مرنة.

أما ثيابهن فهى فى الغالب أقل قتوما منذ أن بدأت الأسواق تعرض منسوجات

---

(١) ليس انتعال البلغة عاماً فى قرى مصر كلها ، وإنما هو شائع فى مصر السفلى ، أما مصر العليا فالشائع فيها انتعال ( المركوب ) وهو نعل فظ أحمر . ( المترجم )

(٢) هذه ( الملايا ) هى ذات لون كستنائى قاتم فى جهة قنا .

أجنبية ، وهى مقفلة عند العنق والرسغ ولا تضيق عند الخاصرة ، وهي فى أغلب الأحايين تنتهى بوشى يلامس الأرض . وتتألف الملابس الداخلية من قميص طويل أحمر أووردى أو منقوش بعدة ألوان ، وسروال واسع ملون كذلك ، والفلاحة هى الخائطة لكل هذا بلامهارة ، ولكنها ليست هى الناسجة

فى الواقع - ماعدا بعض المستثنيات التى ستقل ندرتها شيئا فشيئا بانتشار مصانع النسيج المصرية أن المنسوجات القطنية والأقمشة الأخرى التى تستعمل ملابس للفلاحين ترد على الأخص من اليابان وإيتاليا والهند. وصبغتها الزرقاء أو السوداء تصنع في البلاد وكذلك عمل الملابس : فأما ( الجلبية ) والفستان فيصنعان بالقياس ، وأما القميص والصدرة والسروال و ( اللبدة ) وماشاكلها فتصنع جملة وهناك وسطاء من اليهود يأخذون على عواتقهم تموين القرى الكبيرة بالأنواع والكميات الضرورية و يجرى البيع قرب الاعياد الكبرى . وأما النساجون والشيوخ الذين يغزلون الصوف فهم يقدمون إنتاجا ضئيلا .

وعلى الملابس النسائية حلى صارخة تبدى عبوسها ، وعلى العنق عقد من أحجار صفراء أو زرقاء ، وحول المعصمين ، حسب الثروة ، عدة أساور من الزجاج أو الفضة أو من الذهب ، وحول الساقين الخلخال وهو حلقة صفيقة من النحاس أو من الفضة ، وهو يحل محل خاتم الزواج ويجب على المرأة أن تحمله دائما ، وهى تستطيع أن تبيع كل شيء ماعدا خلخالها . وللحداد العائلى هى تنزع قرطها وعقودها وأساورها ولكنها لا تنزع الخلخال إلا عند موت مولاها وسيدها . وقد ماها لاتحملان جور بين طو يلين او قصير ين ولكنهما فى بعض الاحيان تنتعلان نعلين كنعلى الرجال

هذه المجموعة من البساطة الظاهرية تشف عن شعب متمدين منذ زمن طو يل كما تنم أيضا عن مطابقة مرنة للمناخ والحاجات . ولما كانت ملابس الفلاح رخوة

وواسعة و بسيطة فهى تحقق لجسمه التنفس ، ولأعضائه الحرية وهى تحفظ للشبح ذلك الخط الانسانى الذى ينسجم مع المنظر الطبيعي ، ولكنها على العكس لما كانت قاتمة وجالبة للحرارة - وعلى الأقل بالنسبة إلى النساء واغطية رؤوس الرجال - فهى تجتذب حدة الشمس بدلا من ان تكسرها . ولافراط طولها هى تثقل المشية وتجمع التراب ومع ذلك ففوائدها تفوق اضرارها والعادات التى تحتفظ بالملابس الريفية كما هى تُثَبِّتُ حِكمة

## - ٣ - الصحة والمرض

ليست ملابس الفلاح أكثر عزلاً له عن العناصر الطبيعية من عمله ، فهي لا تفصله عن الهواء ولا عن الشمس ولا عن الأرض ولا عن الماء ، وبالاندراج فى هذا الوسط هو يتلقى قوة الحياة الطبيعية كاملة ، فجبلته المتينة الصلبة المقاومة هى على وفاق مع الطبيعة ، ونومه ليس فى حاجة إلى حشية ولا إلى رفهنية أخرى ، والجروح الفظيعة فى جسمه لا تجعله يصرخ ، وأنواع الزكام والصداع والروائح المقيئة لا تضايقه ، ورغبته فى الأكل ( شهيته ) لا تعرف التقزز ، وعلى العكس من ذلك سمعه الدقيق يسمع أقل ضجيج .

غير أن هذه الطبيعة الصديقة ، فى أغلب الأحايين مع الأسف ، تنقلب ضد جسمه الغير الحذر وتنقل إليه أمراضاً عفنة تشوهه وتضنيه . نحن نقصد التحدث عن الأمراض المحلية المتوطنة فى الطبقة الريفية . لن تقول شيئاً عن السل والجذام الوراثيين اللذين يعيشان فى رفقة طيبة مع الفلاح ، فالبلهارسيا والانكلستوما والملاريا تحدث أتلافاً وتصيب في بعض المديريات أكثر من ٨٠ ٪ من الأهالين ، وهى كلها تأتى من عدم النظافة ومن الاتصال القوى بين الرجل والأرض ، ولكن أول ما يلفت أنظارنا هو أمراض العيون . فإذا كان لون الحقول الأخضر يريح الأعين، فإن حدة

الشمس وسطوع الضوء ، وأ كثر من ذلك أيضاً الغبار السميك الذى ليس هناك أى مطر يصرعه ، والريح الرملية الهابة من الصحراء القريبة ، والوحل والذباب ، كل ذلك يتضافر على إلهاب الأعين منذ الطفولة و يقيحها إن لم يطفئها . لا يجتاز المرء أية قرية دون أن يسترعى انتباهه عدد العميان والعور الذين يسيرون فيها ، وهم ٦ ٪ من الوطنيين ، ففى سنة ١٩٣٧ مثلا أثبت الإحصاء الرسمي وجود ٢٦٦٥٥٠ شخصاً سلب كل منهم إحدى عينيه و ١٠٠٠١٠ مصابين بالعمى الكامل . وفى سنة ١٩٣٧ بلغ عدد العور والعمى فى مديريتى المنيا وأسيوط ٥٠٠٠٠ والعدد الواقعى هو أ كثر من ذلك ، لأن الأعين الرمداء والدامية والمحجبة بخضرة البياض وبالحبوب غير قابلة للحصر .

إن الوضوء التعبدى الذى يؤدى بأى ماء كان (١)، وفي الغالب فى جماعة ، وحفاء الأقدام فوق الارض المبلاة أو فى أوحال القنوات يدخلان بوساطة الجلد إلى أجسام ٩٠ ٪ من الفلاحين طفيلات البلهارسيا ، (٢) لأن ديدانها المحلية الأصلية تنمو فى الرطوبة وفى مياه القرى الراكدة . ومنذ مشروع الرى هي تنمو في مستنقعات المياه الناشئة من المصارف والقنوات السيئة التكوين والتجفيف .

ليس البول الدموى خطراً في ذاته ، ولكنه في الغالب يتعقد بسبب عدم العلاج ويجلب الحصى في المثانة والقروح والنواسير فى القضيب ويمكن ان يصعد التقيح الى الكلى والكبد ، بل الى العين ، وعلى الأخص هو يبقي سنين طويلة : ثمانى عشرة أو عشرين سنة . . ويتعود الفلاح على ان يتبول دماً كرفاقه وان يعانى حياة ضعيفة .

---

(١) يقصد المؤلف الماء الذى تتوفر فيه الشروط الصحية الكاملة وأن كان مشتملا على شروط الطهارة الشرعية .

(٢) الدكتور « تيودور بيلهارس » المتوفى فى سنة ١٨٦٢ ألمانى الجنس ، وكان أستاذاً فى مدرسة الطب بالقاهرة اكتشف فى سنة ١٨٥٨ الطفيلى الذى كان الى ذلك الحين سراً والذى يسبب ذلك المرض المتوطن فسهل محاربته .

تنتقل البلهارسيا بوساطة البول ، والانكلستوما بوساطة البراز والارض ، وهي كالبلهارسيا من أمراض المجتمع ، ووباء دائم ، وهي مثلها تدخل بوساطة دودة من مسام الجلد ، وهي أقل عموماً من البلهارسيا ، ولكنها اشد منها خطراً ، لأنها تستهلك الكرات الحمراء [١]

ولما كان الفلاحون لايستعملون الدمن الإنسانية للتسميد ، ولا يستخدمون الكنف لجهلهم هذا العمل ، أو لعدم استطاعتهم التعود عليه . فإنهم يضعون أبرزتهم في كل مكان . فاذا كانوا مصابين بالطفيليات . فستوجد بعدد تلك الابرزة مراكز تهدد الرفاق الذين يسيرون حفاة أو يتمددون بدون احتياط على الارض . لان الديدان تنتقل عدة أمتار فى الظلام وتقيم في بقعة مرطوبة . ومنها تسلك سبيلها تحت الجلد إلى الامعاء

٦

لقد رأينا من هؤلاء الفلاحين وتلك الفلاحات أفرادا ممتقعين منتفخين ضعفاء بسبب ذلك المرض الفظيع الذى لم تستطع جبلتهم المتينة ولا سنهم - وهي من ٢٥ إلى ٤٠ سنة - ولا العلاج الذى منحوه أن يقاومه .

أما الملاريا المنتشرة بوساطة حقول الأرزو (البرك) فهي تهاجم ٦٥ ٪ من الفلاحين وفي بعض قرى الشرق يصل هذا العدد إلى ٩٠ ٪ والذى يصير هذه الأمراض الثلاثة مرعبة أكثر من خطورتها هو انتشارها ونموها ، وذلك التآمر اللاشعورى ذو النتائج الذى يساهم فيه الفلاحون أنفسهم بعملهم وحياتهم لإدامة الامراض .

---

(١) مصلحة الصحة العمومية ؛ تقريرات وملاحظات . «الانكلستوما والبلهارسيا فى مصر» مطبعة الحكومة القاهرة فى سنة ١٩٢٤، ١٩٦ صفحة مصورة ، وهذا السفر يحتوى على مراجع كاملة عن هذين المرضين ، وهو يبين أضرارهما فى قرى مختلفة من مصر والمجهود الذى تحاوله الحكومة لتقليلهما .

وينبغى من ناحية أخرى أن ننوه بذلك القدر اليسير من نتائج الاحتياطات التى تتخذها الحكومة لمحاربتها .

لقد أسست في كل بندر ( عواصم المديريات والمراكز ) ضد هذه الأمراض المتوطنة الثلاثة مستشفيات خاصة ولكنها لاتفيد إلا مرضى القرى المجاورة مباشرة، فالآخرون لايغادرون قراهم إلا بصعوبة ، وليس في القرى مؤسسات صحية أفيذهبون إلى المركز ؟ وإذا ذهبوا إليه ، فإن طبيب الحكومة وصيدليته الرسمية لن يكفيا . وفي المحادثة الآتية صورة صادقة لهذه الحالة : « قلت مايردده رجال مصلحة الصحة : ماعذرك والبلاد يحتلها جيش من أطباء الرمد ؟ وفيم السكوت والمستشفيات تملأ المدن وتقدم إليك العلاج مجانا وترد إليك بمشيئة الله نور البصر ونور الحياة ؟ فاجاب وهو يبتسم ابتسامته الحزينة : لا طبيب فى القرية ؛ وحتى لو وجد فلا طاقة لى بأجره وثمن مايصف لى من دواء ، أما المستشفيات فلن أستطيع أن أترك أطفالى وزوجتى ، وأين أعيش فى بنها ؟ وأنى لى ثمن طعامى واجر مسكنى ؟ إنى أفوض أمرى إلى الله[1] ولقد قال لنا عمدة من أصدقائنا : « إنه فيما مضى كان حتما على الفلاح لذهابه إلى المستشفي أن يقطع ثلاث ساعات على الحمار رغم حالته . والآن نحن أنشأنا صيدلية مجانية فى القرية نفسها ، والطبيب يأتى إليها أربع مرات فى الأسبوع ، وفي أثناء غيابه يستطيع المريض أن يدعوه بالتليفون . وهكذا صار علاجه أسهل من ذى قبل »

إذا كان الفلاحون يستغيثون بالحلاق إلى أن يموتوا من معالجته ، فذلك لأنه هو الطبيب الوحيد الميسور الوصول إليه كما قلنا ذلك عن المرابى بالنسبة إلى المصارف ومن آيات هذا أنه حين تصل المؤسسات الطبية المتنقلة إلى قرية ما، يسرع كل الفلاحين ليعجالجوا ، وهم يذعنون في ثقة وبدون تأفف لكل معالجة . وهاك مثلا مستشفى طحطا المتنقل : استأجرت وزارة الصحة العمومية قطعة أرض لمدة ستة اشهر ثم أقامت

---

(١) ابنة الشاطىء « الريف المصرى » ص ١٢٥

عليها خيام قسم الأوبئة ، وهو فى مجموعته نظيف ، وقبل افتتاحه أعدت له دعاية واسعة فى القرى المجاورة وكان الافتتاح رسمياً ، وظل طبيب وكيميائى وستة ممرضين في خدمة المرضى الذين يعالجون مجانا ، فجعل ثمانون شخصا يردون إليه فى كل يوم منهم خمسة وعشرون مصابون بالانكلستوما ، و ثلاثة فقط بالبهارسيا ، ولكننا فى مصر العليا .

ومع ذلك فهذا المجهود القيم من وزارة الصحة يتلاشى فى ضخامة الحاجة ،وذلك فضلا عن أن عادة الفلاح تقف مفعوله فى أغلب الأحيان . لهذا السبب لا تفلت الأمراض القرويين . ولو أنهم – إلى أن تتحسن الحال – كانوا يلاحظون النصائح والوصفات التى تقدم اليهم بإسراف ! ونحن نجيب بأنهم : لو أرادوا ذلك لما استطاعوه، لأن حالة حياتهم الوقتية تعارضه بكل الوسائل . وهنا توجد كل المشكلة

## – ٤ – مايشربون وما يأكلون

إن مشكلة الماء هي في المحل الأول ، ولكن لا تحت مظهر رى الأرض ، فقد درس ذلك بطرق عدة ، وإنما تحت مظهر غذاء الإنسان الذى هو أكثر حيوية . مصر بلد حار ، وعمل الفلاح يجعله يتصبب عرقاً ، فيكون في حاجة أكثر من غيره الى ان يروى غلته .

أى ماء يشرب به الفلاحون ؟ أماء البئر (الارتوازى)؟ حينما يثبت مالك العزبة مضخة (طلمبة) أم ماء النيل الحمىء وان كان جاريا ؟ وذلك فى القرى التى يمر بها النهر . ولكنهم في أغلب الأحاين يشربون ماء قناة الرى المتعطن الراكد هناك حيث تستحم وتتبول الماشية والأناسى وحيث تغسل الخضر والأوانى والملابس ، وهناك حيث تلقى جثث الحيوانات تذهب النساء ليغترفن الماء «الصالح» فيحضرنه فى جرارهن وصفائحهن في الساعة

المعينة لميلأن (الزير) وهو جرة كبيرة مسندة إلى حائط المنزل . فى كل مساء تحضر الفلاحة حوالى ثلاثين لتراً لاستهلاك اليوم التالى وتضيف هذا الماء إلى ما يبقى دون أن ينفد أو ينظف القاع ، ويسكن الماء طول الليل فيصفو قليلا بوساطة الرسوب ويبرد ايضا بوساطة التهوية من خلال مسام الفخار ، أما القطرات التى تنفذ بوساطة الترشيح والتى يمكن أن تملأ (القلة) بماء جد نقى لشرب الصباح ،فهى تضيع على هيئة بركة أو تستعمل لشرب الدجاج .

ومع ذلك فالحكومة تدرس فى نشاط مسألة تعميم الماء الصالح فى القرى ، والمشروعات تتكدس ! .

قد أضاف الإنسان للذته فى كل زمان إلى الماء بعض المشروبات ولم يشذ الفلاح عن هذه القاعدة . هو لايشرب النبيذ ، لأن دينه يحرمه عليه ، وثروته لا تسمح له به ، ورأسه لايكاد يحتمله .

لايستهلك الفلاح مقداراً كبيراً من البن الذى جلبه إلى مصر صوفية اليمن فى نهاية القرن الخامس عشر ، هو يستعمله أقل من سكان القاهرة كثيراً ، ومع ذلك فحين يذهب إلى السوق يتذوق ممتناً فنجالا صغيراً أثناء لعبه النرد مع رفاقه (١)

إن الاستعمال المفرط للشاى منذ الحرب العظمى - وتلك بدعة سرت من طرابلس - قد حل محل استعمال القهوة ، وهو ليس منتشراً فى اجتماعات الرجال فحسب ، بل فى صميم الأسر القروية

إنها قد تعودت على أن تشربه عدة مرات فى اليوم وبكمية كبيرة : أطفال ومراهقون ، رجال ونساء ، كلهم يلزم له الشاى . وبعض الفلاحين يحملون معهم

---

(١) فى سنة ١٩٣٥ استوردت مصر ٧٨٨٨ طنـا من البن الأخضر من جاوا ، وسانتوس واليمن .

(بكارجهم) إلى الحقول . وأشدهم فقراً ينفق على الأقل ثلاثين قرشاً فى الشهر ثمناً للشاى والسكر الضرورى له . وحينما لا يكون لديهم نقود لشرائه يتمددون على الأرض ولا يستطيعون عمل شىء . « لقد سألت فى إحدى القرى : لماذا لا يرى المرء المواشى وهى ثروة القرويين ؟ فأجابنى المسئولون بأنها لم تعد موجودة ، إذ أنها قد بيعت واشترى بثمنها شاى ، فالشاى قد صار ضروريا كالخبز » . هذا هو تصريح لمولاى خزام أسقف طيبا .

يغلى الشاى حتى يسود لونه فيحصل منه على مغلى قوى سميك غنى بـ (التانين) وبالقلويات يحدث مع طول الزمن اضطراباً فى المعدة وفي الجهاز العصبي ويضعف التكوين العام ، ويترك في الخلق أثراً سيئا ، ولكن هذا قليل الأهمية مادام أنه يسلى وينسى . إن الشاى الأسود قد أضحى مذهل الفلاح ، وفى بضع سنين صارت الواردات منه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه [1] وكذلك صيرت الحكومة رسوم الدخول ثلاثة أضعافها حيث رفعتها من قرشين ونصف القرش إلى سبعة قروش ثم إلى ثمانية قروش و نصف عن كل كيلو ، لكى تصير الشاى متعذراً من الناحية المالية ، ولكن الشر لم يقل ، لأن من تعود عليه يستغني عن الأكل ويلجىء أسرته إلي الجوع بدلا من أن يتخلى عنه . وعلى الضد من ذلك لم يزد رفع الجمرك على أنه صير خطى خراب الفلاح وتدهور صحته أسرع من ذى قبل .

من نشارة الخشب وقشر الفول وأوراق (الملخية) وأشجار الحور اليابسة ، ومن الشاى المستعمل الذى يجمع من الفنادق والمقاهى والبواخر ، من كل ذلك ملونا ومحمصا يصنع التجار شايا مزيفاً يبيعونه للفلاح التعس حينما لا يستطيعون جلبه بوساطة التهريب

---

(١) ٧٨٨٣ طنا من الشاى قيمتها ٨٣١٢٣٤ جنيها استوردت من الهند وسيلان فى سنة ١٩٣٨

نحن نعتقد - مهما يبد ذلك نابيا عن المنطق - أنه يوجد اتصال بين نمو هذه الرغبة الحادة فى التسمم وانتشار مشروع الرى ، ففى الواقع أنه ثبت أن هذا الاختراع الذى ضاعف ثروة مصر قد هيأ الجو للبلهارسيا والإنكلستوما ونماهما . ولما أضعف هذان المرضان الفلاح وقللا من كفايته للعمل ، فقد لجأ إلى المنبه الذى تحت يده . وبما أن الرجال هم أكثر إصابة من النساء بسبب حياتهم في الحمأ والماء ، فهم كذلك أكثر استهلاكا للشاى « الأسود » (١)

أما التبغ الذى عود على الجو المصرى في مبدأ القرن السابع عشر فلم تعد زراعته مستطاعة منذ الأمر الصادر فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٠ وهو يستورد من إغريقا وتركيا واليابان ويحضر هنا (٢) . وهو يكلف الفلاح ثمنا باهظاً ، وهو كالقهوة استعماله أكثر إلفة بين شعب المدن .

بوجه عام يأكل الفلاحون ثلاث مرات فى اليوم : عند شروق الشمس قبل الذهاب إلى العمل ( فطور ) . وعند الساعة العاشرة (٣) في الحقل ( غداء ) ، وعند الشفق فى منازلهم ( عشاء ) . هم يأكلون جاثين ( والفلاح دائما يجلس على الأرض ) وبأيديهم . ويتناول العمال فى العموم غذاءهم فى الهواء الطلق ومع الجماعة ، فيجلس كل واحد منهم أمام صحفة من الصاج أو من الفخار أحضرتها له زوجته ، و ( قلة ) الماء تمر من فم إلى فم .

---

(١) أنظر التقرير السنوى عن سنة ١٩٣٨ للمكتب المركزى للمخدرات ومع ذلك ففى دراسة فنية ظهرت فى مجلة المسائل الاجتماعية ( يولية سنة ١٩٤٠ من صفحة ٩٤ إلى صفحة ١٠٦ ) تحت عنوان « هل الشاى الأسود مضر بالصحة والاقتصاد الريفيين؟ » يعتقد الكاتب المجهول أنه يستطيع الإجابة بالسلب .

(٢) لأن اللفافات المصرية الشهيرة مصنوعة من تبغ مستورد إذ قد أريد تجنب خطر الحشيش مع ارضاء تركيا .

(٣) إن الذى نعرفه هو أن الفلاحين يتناولون طعام الغداء بعد الساعة الثانية عشرة لا فى الساعة العاشرة . « المترجم »

والوجبة الأساسية هي وجبة المساء حيث تطبخ الاطعمة وتؤكل حارة مع لاسرة ، والطعام يطهى بالزيت [١] على ( وابور ) أو فى فرن المنزل بوقود من أرواث االبقر المختلطة بالقش ( الجلة ) .

ولما كان الفلاحون لا يربون الحيوانات ، وكان اللحم غاليًا نوعًا ، فإنهم قليلو أكل اللحوم بحكم الضرورة. هم يأكلون الضأن والبقر على الأكثر مرة فى الأسبوع وعلى الأقل فى العيدين : الأصغر والأكبر أو حين يذبح حيوان بحادثة . وإذ ذاك تكون وليمة يزدرد فيها كل واحد قطعًا ضخمة . وأشدهم فقرا — لكى يشبعوا على هذا النحو مجانًا — يترقبون أن يذبح ثرى بسبب نذر أو حداد ثوراً أو جاموسة ويوزع لحمها .

وإذا كانوا من أهل شواطىء النيل أو القنوات الكبرى أو البحيرات ، فإنهم يصطادون بالجابية أسماكا صغيرة يعدونها بالزيت ، ولكن مجموعة طعامهم عادة خالية من اللحوم ، وهى : بصل ولفت وفلفل وخيار ، ويؤكل نيئًا . والخضر المطبوخة هى البامبا والملخية [٢] والفلاحون فيهما جدشرهين ، والفول وهو طعام وطنى ، والدباء ، وأخيراً العدس والأرز اللذان يخلطان بنسبة الثلث والثلثين ( كشرى ) وهو أكثر تحضيرهم تعقداً .

---

(١) الطهى بالزيت مألوف لدى الاسر القبطية ، أما المسلمون فلا يستعملون الزيت إلا لقلى السمك وماشاكله «المترجم» .

(٢) هما مادتان لزجتان ، فالباميا التى تدعى فى فرنسية مصر بـ « القرن الأغريقى » تحمل الاسم العلمى : « hibis cus esculentus » والاسم الاسبانى « gombo » والاسم الانجليزى « Okra » . وقد وصف ابو العباس النباتى الذى زار مصر فى سنة ١٢١٦ بوضوح الباميا التى تؤكل مطبوخة فى الماء المالح (راجع و. بوا) ، «النبات الغذائى لدى جميع الشعوب ومن خلال العصور » وهو ٥٩٣ صفحة «وشفالييه» باريس سنة ١٩٢٧ .) كان المصريون القدماء يأكلون من هذا الخضار وكذلك الملخية : « torchorus olitorius » . راجع «هارتمان » « الزراعة فى مصر القديمة » ص ٦٣

وفى موضع الحلوى ، أى حينما تتاح لهم الفرصة يأكلون تمراً أو يقضمون بكل أسنانهم قطعة من البطيخ ، أو يمصون عوداً من القصب ، أو يقرضون (كوزاً) من الذرة الشامية .

تحدث الأمكنة والفصول بعض التغيرات . . . متتابعة لا مجتمعة . فالطعام العادى هو لون واحد يضاف اليه غالباً قطعة من المش ، وهو جبن حامض مصنوع من لبن الجاموس أو المعز ، ومحفوظ فى الماء المالح ، ويستهلك فى مصر من أقصاها إلى أدناها .

وأدم الفلاحين هو ملح دمياط الخام ، والعسل الأسود المصنوع من طبخ عصير القصب ، لأن الفلاح يستعمل فى الطعام العادى قليلا من الملح والسكر المكررين وفى يوم العرس أو الختان أو المولد يشترون أنواعاً من الحلوى الخشنة وتلك الملبسات الصغيرة (الأرواح) الحمراء والخضراء التى يحبونها هم وأطفالهم إلى الجنون ، ولكن أساس طعام الفلاح ينحصر فى خبز الذرة (البتاو) الذى هو فيما يتعلق بالحرارة يمثل ٨٠٪ مما تقدمه مجموعة أغذيته ، ونصف « البروتيئين » الموجود فى طعامه ، والشاب يأكل منه كيلو ونصفاً فى اليوم . ألفى الاختصاصيون بالإحصاء أن هذا « الخبز الكامل » يحتوى من (المغنيزيا) على ستة أضعاف ما يحتوى عليه خبز حوانيتنا

( MgO 1,988 , Ca O o,284 , K2 O 2,886. )

لا تدق حبوب الذرة فى الهاون كما يدق الدخن فى أفريقيا السوداء ، ولكنها تطحن على نحو ما يحدث فى كل الشرق الأدنى بين حجرين[١] ، وتلك هى الرحا البدائية التى توجد أيضاً فى المغرب ، وهى مكونة من أسطوانتين فى عرض ٥٠ س م ، وسمك ٥ س م والتى تلامس الأرض منهما ثابتة فى حين أن العليا تدور حول محور ، وفى وسطها ثقب يوضع منه الحب المراد طحنه . وهناك يد من الخشب مثبتة رأسياً عند

---

(١) كان الطحن على الرحا شائعاً فيما مضى . اما الآن فقد حلت محلها المطاحن البخارية المنتشرة حتى فى أقاصى القرى ولا توجد الرحا القديمة الا عند الرحل من البدو «المترجم»

حافة الطاحون المتحركة ، وهى تستخدم لإدارتها . وهذه العملية كجميع عمليات الخبز تقوم بها النساء . يعجن الدقيق المضاف إليه قليل من الحلبة والدخن والقمح ، أو الفول ، ويوضع فوق قطعة من الخشب على صورة قرص مستدير رقيق ، قطره ٣٠ س م تقريباً وهذا العجين المنضج فى فرن المنزل ينتج منه خبز أسمر ذو طبقتين بدون لباب ، وله طعم شهي . لا يوجد خبازون عموميون ، ولكن كل أسرة تعد خبزها مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع . وفى مصر العليا خبز الفلاح أصغر (١٢ س م تقريباً) وهو أسمك . وقد قال لنا أحد العمال من جهة أرمنت : انه يأكل منه حوالى عشرة أرغفة فى اليوم .

إن الخبز الذى يصنعه الفلاح من الذرة التى زرعها ، والخضر التى استنبتها فى أطراف حقله أو التى اشترتها زوجته من السوق ، وهى أقل جودة ، والجبن أحياناً عندما يكون لبن الجاموسة قد بيع كله ، وبالاجمال إن المنتجات الأكثر اقتصاداً فى الجهة التى يوجد فيها هى التى تؤلف الغذاء العادى له ، وهذا كله يجعل طعامه غير متغير وغير مستفيض ، ولكن هل هو من أجل هذا يأكل أقل مما ينبغى . يقال ذلك ويعاد . ويرى المسيو « شرومف - بييرون » على العكس أن فى المنتجات التى تؤلف غذاء الفلاح ، بل فى الماء الذى يشربه الرقم العادى للمعدنيات . [1] ويبدو أن عمل الفلاح وصحته ومقاومته البدنية تؤكد هذا الرأى . على حين أن انتشار « البلاجر » والنسبة العالية جداً فى رفض الشباب لعدم صلاحيتهم للجندية (وقد قيل : إنها ٨٠ ٪) يبدو أنهما يثبتان عدم كفاية التغذية . وهكذا اذا كانت الأرض السوداء التى تحتضن الفلاح مثل لسان « ايزوب » - أى أحسن الأشياء وأسوأها - تعطيه القوة والمرض : فما تحتويه الأرض من المعادن والنباتات الغذائية التى تنبت

---

(١) الأستاذ « شرومف - بييرون » محتويات غذاء الفلاح من المعادن ، مجلة معهد مصر ، القاهرة سنة ١٩٣٢ صفحة ١٥٣ - ١٧٥ .

فيها تقوى الأناس الذين يستهلكونها ، والعفونات الجرثوميـة الموجودة فى الأرض المبتلة وفي الطفيليات التى تتناسـل بكثرة تضعف الأناس الذين يعيشون فوق هذه الأرض ويستعملون ذلك الماء .

وهكذا يتكون فى الجسم بهذه الحركة الطبيعية المزدوجة توازن عملى يخلق من الارومة القروية جنساً متيناً كما يلاحظ ذلك رغم كل شيء . ولهذا نحن نرى أن عدم التدبير الصحى والمرض ونسبة الوفاة ، وبالاختصار هذه البأساء الجسمية التى وصفناها والتى سنراها أكثر من ذلك أيضاً فى سكنى الفلاح ليست هى أكبر تعاساته .

## الفصل السادس

## القرية والجماعة الريفية

من المستحسن أن يذكر المرء دائما الفلاح بصيغة الجمع ، لأنه يعيش عادة فى جماعة بل في جمهور ، ففى الحقل إذا كان شريكا أو مستأجراً أو مالكا هو يعمل مع زوجته وأولاده ، وإذ كان أجيراً فإنه يشتغل فى شرذمة من رفاقه غارزين بفؤوسهم أو باذرين باشارات متصاحبة .

وفى داخل هذا العالم المغلق الصفيق الذى تمثله له قريته هو يعمل فى الهواء الطلق وأمام العموم أكثر مما يعمله سراً فى منزله . فالنساء يذهبن جماعات لاغتراف الماء والأطفال يتلهون متزاحمين . والوجود اليومى هو جماعى واشتراكى ، ولكن لفهم الجماعة القروية جيداً ينبغى أن تعرف القرية .

إذا رأى المرء القرية من الخارج فى وسط الحقول أو إلى جانب الصخور الصحراوية البيضاء الفاها كومة طينية جاثية على الأرض ، كثيفة مشوشة متوجة بحزم . وهناك بضعة مبان أكثر أهمية مبيضة بالجص ( أبراج الحمام ومنازل الأعيان ) تنفصل من هذه الكثرة من الخطوط المنكسرة . وهناك أيضاً نخل أو سنط أو جميز أو لبخ يشرف على تلك المجموعة و يربطها ويخفى دمامتها . وهذه الباقات من الأشجار المجتمعة أو المنتثرة والتى هى فى أطراف القرى أو فى أوساطها تحدث تحت نور مصر تأثيرات فخمة . وقد خصص المسيو « برون » صفحة من «جيوغرافيته الأنسانية» (ص ١٥٠) لرسم هذه اللوحة . ونحن لانتبعه . إذ نريد — خلال هذه الشاشة السحرية التى يتوقف عندها المرء غالبًا — أن نلم بالحياة الواقعية .

ولما كانت القرية سابقة على تنظيم النهر ،فهي لاتساير شاطئه بالضبط ، و إنما هي تحتمى منه على بعد يتراوح بين مائة متر وكيلومتر ، وهى تمد على حافة الوادى عند حدود الصحراء (وذلك فى مصر العليا) أو تنكمش فوق كوم [1] ، أو تل وهو خرائب قرية قديمة ، أو تل صناعى أو مرتفع من الجسر ، وفى الجهات التى لم يعد الفيضان يخشى فيهاتؤسس القرية فى الزراعة وعلى مستواها . ولهذا تكون قليلة الظهور ، ولكنها دائماً مضغوطة .

القرية قائمة فى أى موضع كان ، وقد سلب قرب الماء و وحدة مستوى الأرض وتشابه طبيعتها الجيوغرافي كل إيضاح من شأنه تحديدها . وقد يكون لدى التاريخ فى هذا كلمته الحاسمة ، ولكن منذا الذى سيعرف يوماً ماضى هذه الأربعة الآف قرية المنتثرة طولا وعرضاً فى وادى النيل .

ومع ذلك فمن الممكن شرح انضغاطها بأنه قد اريد الا يضحى إبهام من الأرض و بالأولى إذا كانت أكثر خصوبة وأسهل ريا . و إذا ، فلكى ينتزع أقل قدر ممكن من سطوح الأراضى المنتجة فإنه يضيق إلى أقصى حد موضع السكنى الذى لاينتج شيئاً .

كانت الأرض والقرويون إلى القرن التاسع عشر كما رأينا ملكا للحكومة ولبعض كبار الملاك ولم يكن للفلاحين أية فائدة فى أن يعيشوا فى دساكر منعزلة ، وفوق هذا ففى ذلك العصر المضطرب كان العرب الناهبون وقطاع الطرق الكبرى يسلبونهم فى سرعة مالديهم .

ومن ناحية أخرى ، فلما كانت القرية - فيما يتعلق بالضرائب والتجنيد

---

(١) فى مصر مائة وعشرون قرية تحمل كل منها اسما مسبوقا بكلمة ( كوم)

والتحقيقات وسجل الأملاك - هى ممثلة الوحدة المسئولة فى نظر السلطة ، فقد كان يجب على القرويين أن يقيموا فيها . ولهذه الأسباب لم تكن الحكومة تسمح لهم بالثواء خارج البلد ولايزال ذلك معمولا به إلى اليوم .

إلى تلك الأسباب القديمة المدعمة بالعادات ينبغى أن يضاف نمو عدد الأهلين وارتفاع ثمن الأرض ، ونقص الأمكنة اذ أن سجل سنة ١٩٠٧ قد حدد نهائياً موضع كل قرية .

تلك القرى ذوات البضع المئات أو البضعة الآلاف - وذوات الخمسة عشر ألفاً ليست نادرة - تلوح عليها جميعها ملامح أسرة واحدة ، أسرة كبيرة العدد ، ففى الواقع لا شىء يشبه القرية المصرية أكثر من قرية مصرية أخرى . وهنا أيضاً نجد الوحدة وتماثل الأنساق التى لوحظت عدة مرات .

يستطيع المرء أن يميز قرى مصر العليا عن قرى مصر السفلى كما يميز فلاح هذه الجهة أو تلك ، ولكن التشابه هنا أكثر لفتاً للنظر . خذ صوراً لقرى مختلفة واسأل شيخاً مصرياً : هل هى من الصعيد أو من الدلتا . فإنه سينخدع فى أغلب الأحيان ذلك لأن نفس النوع من السكان ونفس اللون من الحياة هما اللذان يؤلفان عين القرى ، وهما اللذان يمنحان ذات المظهر للمواضع التى يشغلانها من أطراف عاصمة المديرية كالمنيا مثلا .

يمكن تمييز البلاد بدرجات الأهمية ، فعواصم المراكز ومقار الأسواق ، ومحجات الأولياء هي بلاد ضخمة ، بل مدن صغيرة بها أكثر من غيرها تجارة وحركة ومؤسسات ، ( مصارف ومحكمة وقسم بوليس ومحطة ) ولكن أحياء الفلاح منها لا تنم عن حضارة ولا عن رفهنية أكثر من القرى الصغيرة ، والدساكر وهي أجزاء منفصلة ، ولكنها تابعة كعزب كبار الملاك ، وكالنجوع القائمة على هوامش الزراعة

والتى هي تعين ثواء البدو ، تشف عن نموذج أكثر تواضعاً .

وهنا أو هناك لا يكاد مستوى الحياة يتغير ، ودراسة قرية متوسطة تقتاد الى معرفة جميع القرى الأخرى .

لنأخذ بلداً ما ، وليكن س مثلا ، وهى قرية كاملة ولننظر قبل أن نتغلغل فيها ما يوضح من الخارج حياتها العامة ، ولنقترب من « ضواحيها »

لقد قيل إن الكنيسة هي التى تخلع على القرية الفرنسية منظرها . وكذلك فى مصر يعتبر المسجد أوالكنيسة القبطية هما المؤسستان الأحسن بناءا والأعظم رحوبة، ولكن هندستهما لا تدلان على شيء جدير بالملاحظة وهما حتى مع المئذنة والناقوس لا يميزان القرية لأنهما لا يخرجان من الفاقة ولا من العامية المحدقتين بهما .

يسيطر دين الاسلام على خمسة وتسعين فى المائة من الفلاحين ، والأقباط حوالى مليون تقريباً ، منهم أربعون ألفاً كاثوليك وهم يعيشون مختلطين بالمسلمين في نفس القرى ، كل يعمل بعقيدته :

يلاحظ الفلاحون المسلمون بقدر المستطاع - وهنا لا تعتبر النساء ولا الأطفال - أركان الاسلام الخمسة التى هي : -

(١) الاعتقاد بالله وحده .

(٢) الصلاة .

(٣) الصوم .

(٤) الزكاة .

(٥) الحج.

هم مع جهلهم يعرفون ذلك على الأقل

وسنتحدث فيما بعد عن اعتقادهم بالله .

أما الصلاة فهم يقومون بطقوسها بعد الوضوء مساء[١] ، ويوم الجمعة مرات عديدة وإذ ذاك يدعون الحقول للنساء والأطفال ويلبون دعوة المؤذن فيتجهون إلى المسجد أو إلى الموضع الذى يحل محله ، وهو مربع من أرض مستوية محوطة بحائط ارتفاعه حوالى ثلاثين سنتيمترا على شاطئ الماء . وهناك يصلون جماعة أو على الأقل يصورون هيكل حركات الصلاة . هم يستمعون جاثين على الأرض أو على الحصير إلى المأذون [٢] الذى يقرأ لهم سورة من القرآن .

وأما الأقباط ، فهم يحضرون يوم الأحد القداس القبطى الطويل ، ولكن الجماعة هنا أكثر أسرية فالنساء والأطفال يشهدون الصلاة والأناشيد .

لايفهم المسلمون [٣] عربية القرآن الأدبية ، ولم يعد الأقباط يفهمون اللغة القبطية ، ولغة الجميع فى مصر من أقصاها إلى أدناها هى العربية المدعوة بالعامية ، وهى لهجة مختلفة عن لهجتى سوريا والمغرب بقسط عظيم من مفرداتها . ليس فى مصر نفسها لهجات محلية خاصة لهذا الاقليم أو لذلك ، ولكن هناك عدداً ضخماً من التعبيرات والكلمات المختلفة ، وفى الجنوب نطق حلقى ينبئ بالصعيدية ، والقافات تنطق جيمات .

---

(١) ليست صلاة المسلمين فى المساء فقط وانما هى خمس صلوات فى اليوم فى أوقات معينة ولا يمتاز يوم الجمعة عن غيره من الايام الا بصلاة ظهره الخاصة مع الجماعة . «المترجم»

(٢) المأذون هو الذى يقوم باجراء عقود الزواج بين المسلمين ولكنه فى كثير من القرى يؤدى وظيفة الامام فى الصلوات . «المترجم»

(٣) لا ريب فى ان المؤلف يقصد عوام المسلمين «المترجم»

الصوم : يؤدى الفلاحون المسلمون صيام رمضان بلا هوادة كما يؤدى الأقباط الصيام الكبير . فعند أولئك هو شهر حرمان كامل منذ الفجر إلى غروب الشمس ، وعند هؤلاء أكثر من مائتى يوم في السنة حرمان من كل طعام من منتصف الليل إلى الظهر .

والزكاة : أيضاً لاينفلت منها الفلاحون ، فهم يقومون بها فى حدود ثرواتهم بدون شح . هم لا يتصدقون بمال ، ولكن بأعيان طبيعية : هبات للعميان وخدمة العبادات ، ومن هم أشد منهم فقراً ، وهذا فضلا عن الهدايا الفرصية أو الاضطرارية .

أما الذهاب إلى مكة ، فلا يزاوله إلا النادر من الفلاحين ، وذلك فى حفلات بطلية [١] . وعند عودة الحاج السعيد بعد غياب ستة أشهر أو ثمانية [٢] يحتفل به كأنه بعث بعد موت ، وهو يحمل إلى قريته بركة الأماكن المقدسة . ومفخرته التقية تميزه من بين الجميع ، وأبناؤه يستفيدون من مجده ، ولا يعود الناس يدعونه من الآن فصاعداً الا بالحاج فلان ويسجل حجه على منزله ، إذ هو يبيض واجهته بالجص ويرسم عليها صوراً ساذجة لرجال أو عربات أو بواخر مصحوبة باسمه وبتاريخ حجه . وعلى هذا النحو نفسه يصنع الفلاح القبطى عند عودته من أورشليم ، وإذ ذاك يدعى بالمقدس .

والموضع الأكثر زيارة شعبية من المسجد ، لأنه لا تميز فيه السن ولا الجنس هو : ضريح «القديس» حامى القرية الذى يدعونه بالولى أو الشيخ أو سيدى فلان .

---

(١) يريد الاشارة الى حفلات الابتهاج التى تسبق رحيل الحاج الى الاراضى المقدسة « المترجم »

(٢) كانت مدة الحج تستغرق عدة شهور قبل إعداد المواصلات الحديثة أما الآن فهى لاتكاد تستغرق شهراً بل أياما اذا اراد الحاج ذلك « المترجم »

يقام الضريح خارج القرية فى ظل أشجار هى مبجلة ، وأحيانًا بالقرب من بئر أو قناة ، وهو على صورة مكعب ذى خمسة أمتار فى خمسة مسقوف بقبة ، والكل مبيض بالجص .

ليس جسم الولى دائما فى داخـل الضريح ، وانما يوجد فيه فقط قبر خال للذكرى ، وخوص ، وشموع ، وقطع من قماش ، وخصل شعر ، وكمية من طلائع الثمار كـنذور. والرجل الذى يعنى بالضريح تـكفله الجماعة أو يعيش من دخل مؤسسة ( وقف ) واحيانا تكون وظيفته وراثية .

إن يوم المولد السنوى للولى هو عيد كبير للقـرية يذهب فيه جميع السكان الى المكان المقدس ويقومون فيه بالطقوس التقاليدية من : رقص ودوران حول الضريح وتعاويذ وهلم جرا .

هناك وعلى بعد كاف من مدينة الاحياء توجد مدينة الاموات . تقوم المقبرة فى أرض قاحلة أى على خرائب ( تل أو كوم ) لقرى مهجورة أو فوق حافة الصحراء الى جانب الصخور فى وسط الرمال .

للوصول الى المقبرة ينبغي أحيانًا اجتياز النيل كما في المنيا ، وتتألف قرية الموتى من قبور فردية مضغوطة بعضها الى جانب بعض ، وهي مستطيلات مبنية ومخفوجة بـ (الاسمنت) ، وفوقها عمودان ، احدهما عند الرأس وثانيهما عند القدم أو أكمة بسيطة مميزة بحجرين أو بغصنين من سعف النخل يغرسان مستقيمين ويجددان فى كل عام أو طبقة من الاحجـار البيضاء منثورة فوق التراب الذى ردمت به الحفرة ، وليست هناك نقوش ولا زهور ، ولـكن كل أسرة تعرف مكان موتاها وتأتى اليه فى اليوم الاول من العيد الاكبر [١] حيث ينتقل كل القرويين الى المقبرة ، لكى يعظموا فيها

---

(١) ليست زيارة القبور قاصرة على العيـد الاكبر بل هى مألوفة كذلك فى العيد الاصغر . «المترجم»

موتاهم ويأكلوا ويستمتعوا فوق قبورهم . وفي ذلك اليوم تبدو القرية كأنها مهجورة على نحو ما يحدث في اكتوبر عندما يرتحل الجميع لجني القطن ، ولكن لنتوقف أيضاً عن الدخول .

فى اللوحات الفنية المرسومة للقرى المصرية تشاهد باقة الاشجار وجملة المنازل الرمادية وهى تتراءى فى مرآة أحد الغدران ، ولكن هذا الغدير في الواقع هو مستنقع أخضر اللون خارج عن المألوف بقدر ماهو ضار . وكل القرى تقريباً ممهورة بمثله ، ويمكن أن يقال : ان الضرورة هي التى دعت اليه . فلبناء المنازل ، ولصنع الطوب ، ولتحويل أحد تيارات المياه ، أو لتقوية أحد جسور السكة الحديدية ، أو احد حواجز الماء تؤخذ المواد من مواضعها أى من أقرب أرض ، وهكذا تخلق وتحفر وتنمو ثم تمتلىء ماءاً تلك المستنقعات الواسعة ( البرك ) التى تستخدم مساقي للحيوانات وحمامات للاطفال ، وأحياناً آباراً للمنازل يغترف منها النساء

ردمت الحكومة نحو خمسين من هذه المآوى للامراض ، ولكن لا بدون أن تلقي أية مقاومة من جانب الفلاحين[١] الذين تلغى بهذا العمل عاداتهم . ولقد تطلب ردم ثمانية عشر من هذه المستنقعات اكثر من عشرة آلاف متر مكعب من الارض

على مقربة من المستنقع وخارج القرية دائماً يمتد البيدر الذى تجفف فيه الحبوب وتدرس ( الجرن ) وهو موضع مغطى بأرواث البقر والتراب على مستوى واحد ومقسم الى مربعات متراصة ، ومساحته تلتئم مع عدد الأسر التى تستعمله ، و ( الجرن ) هو من المنافع العامة فلا يستطيع أحد أن يدعى ملكيته ، على أنه متسع بالقدر الكافى لأن يذرى كل فريق مؤلف من عشر شراذم حبوبه فى دوره وهو يستعمل أيضاً

---

(١) يسرنا أن نشاهد ان مقاومة مثل هذه الاصلاحات قد بدأت تقل بفضل الدعايات الصحية . «المترجم»

كميدان عام وكموضع للاجتماع ، ولكن فى أغلب الأحيان تضم إليه لهذه الغاية أرض خالية ، وعلى مد البصر بعد ذلك يلمح المرء كومة مكونة من القمامة وجثث الحيوانات . ولقد كان من الممكن أن تفوق تلك الكومة المنازل فى الارتفاع لولا أن الكلاب والحدأ تأتى بنظام لإقتاصها ، وأن الفلاح يأتى اليها لينقب فيها عن السماد ، وكانت تصير أكثر خطراً على الصحة العامة من المستنقعات لولا أن الشمس تطهرها .

فى خارج القرية أيضاً - ولا سيما فى الفيوم وفي مصر الوسطى - تنتصب الى ارتفاع عشرة أمتار أبراج مربعة وبها خطوط بيضاء وسوداء ، وأسسها القوية (٧ م x ٧ م) تخلع عليها مظاهر الحصون ، ولكنها ليست سوى أبراج للحمام.[١] ويلمح المرء ذلك عند غروب الشمس حينما يكون كل واحد منها محاطاً بسحابة مكونة من خمسة عشر أو عشرين ألف حمامة آوية إلى مسكنها بعد أن طعمت ناقرة في الزراعة .

ولما كان بناء هذه «المنازل» يتطلب ثروة كبيرة إلى حد ما (من مائتين إلى ثلثمائة جنيه) ويداً عاملة متخصصة ، فإنه يتجاوز وسائل فلاحينا ، ولايمكن أن يقوم به إلا العمدة أو بعض كبار الملاك . وفى الجنوب يبنى البرج على زاوية من المنزل ، وهذا يجعل شبح القرية أكثر ارتفاعا ، ولكن تلك المنازل ذوات الأبراج المتصلة أو المستقلة فى العموم لا تختلط بالقرية ، وإنماهى تقوم على مسافة منها وتمتاز بطوابقها العليا وبواجهاتها الشامخة وحدائقها ، وهى في الضيعة (العزبة) منزل المالك ، وفى البلد المأهول منزل أحد الأعيان أو أحد التجار الأثرياء .

---

(١) المسيو جان برون فى جيوغرافيته الانسانية ، وهو أول من أشار إلى خصائص المساكن القروية فى مصر (مجلد (١) ص ١٢٧ — ١٣٤ وص ١٤٥ — ١٥١) قد اهتم بهذه الابراج وقدم لهاعدة صور . وبعده درس المسيو هوج المبانى المبتكرة فى (الأبراج كأحد متممات القرية) . (ص ١٥١ — ١٥٥ المساكن القروية) .

وعلى مقربة من ذلك ، وفى موضع سهل الوصول فى واجهة الحقل توجد (الشونة) وهى المستودع أو مخزن الحبوب ، والمكتب ومساكن العمال والمدرسة الالزامية .

لندخل القرية ، فى زواية نظيفة ميسورة الوصول معنى بها أكثر من جميع المنازل تقوم أحياناً المضيفة ، وهى حجرتان أو ثلاث حجر يعتنى بها العمدة ، وتستعمل فندقاً للمسافرين والموظفين والعابرين . وتملك هذه البناية مصلحة الرى أو وزارة الداخلية . وتوجد مضيفة رسمية فى كل أربعمائة قرية تقريباً .

لم يعد باقياً أمامنا إلا أن نتغلغل فى قلب البلد نفسه ، فما رأيناه إلى هنا لا يحمل على التكهن به . إنه مقر سيادة الهمجية والتراب . لا يوجد فيه أى منهج ولا أى خط مستقيم ولا أية مدنية ، والصلة الوحيدة العامة بينه وبين المدن المزدحمة هى الانضغاط الناشىء من الاقتصاد فى الأرض ، فالدروب المنتثرة فيها الأبرزة والارواث وقطع القش ضيقة إلى حد أن ثلاثة رجال لايمرون فيها مجتمعين ، إذ لا يبلغ اتساعها مترين ولا يمكن السير فيها بسيارة ، بل ولا بحمار ، ومع ذلك فنى بعض الأمكنة التى فيها الحركة أكثر نشاطاً ، والاختناق أقل ، أى على مقربة من بيت العمدة مثلا أو من المدرسة أو من الحي التجارى تتكدس بالضرورة حوانيت : الخياط والبقال وصانع الفخار والنساج والمقهى .. . حينما تكون القرية مهمة . نحن نعرف قرى لا يوجد فيها حوانيت ، وبالتالى يكون من غير الممكن فيها شراء أى شىء إلى أن يمر التاجر المتنقل ، وقرى لايزال نظام التبادل مستعملا فيها : حبوب فى مقابل ملح مثلا .

لايشق القرية طريق كبير كما فى فرانسا ، وإنما هى تنكمش فى نفسها مبتعدة عن الطريق أو عن القناة أو عن النيل ، ولا يتغلغل المرء فيها بمركبة ، وهذا هو السبب فى أن الأجانب ، فيما عدا المرسلين ، والأثرياء الوطنيين ، فيما خلا العمدة والصراف لايعرفون حياتها الداخلية . ولكى نفهمها ينبغى أن نقدم بديا أولئك الذين يقومون فيها بدور أساسى .

نحن نعرف من قبل العمدة والصراف اللذين يربطان الفلاح بالحكومة ، والناظر الذى يربطه بالمالك . وهناك شخص آخر يصله قليلا بالعالم المتمدين ، وهو البقال الذى هو غالباً إغريقى والذى يشغل الوظائف النافعة، إذ يقوم بمهمات : البقال والصيدلى والقهاء والطاعم والمقرض وأمين الودائع . إنه أكثر الأورو بيين تمصراً ، إذ هو لايجد غضاضة فى أن يعيش فى وسط القرية وبين الفلاحين إن لم يعش مثلهم ، و بفضلهم إن لم يكن لأجلهم . انه قد جاب إلى هذا العالم المقفل : الفونوغراف وألعاب الغرب .هو يسرق الفلاحين و يعلمهم استعمال المخدرات ، ولكن بكرم خلق وحسن صنيع ، بمعنى أنه - ولو يقرض بربا فاحش - يفعل ذلك حالا و بدون أن يطلب كثيراً من الشكليات . هو يبيع مؤجلا ، وعندما يشترى يدفع الثمن فوراً ، فيقدر الفلاح هذا الرجل الذى يعرف كيف يتخلص من الورطات .

هناك أشخاص آخرون أقل اهمية واكثر شعبية يتميزون فوق لوحة الحياة القروية وهم يتقلدون منذ القدم وظائف اجتماعية ثابتة.

بديًا ( المزين ) وهوحلاق وصيدلى ، هو رجل كثير المشاغل ، فهو يحلق رؤوس ولحي الفلاحين العديدين الذين فى دائرته جاثيا أمام زبونه الذى هو جاث كذلك ، وبين ساقيه اناء مملوء بالماء ، وبين أصابعه آلة قديمة كأبيه وجده . هو يبل بمهارة وسرعة الرأس والوجه .

أسن تؤلم ؟ هو يخلعها. أأحد محتاج الى كؤوس هواء أو الى فصد أو الى مسهل ؟ كل هذا هو عمله ، وهو يمثل الصحة العامة . وبهذا العنوان هو مكلف بالحقن و بإنباء العمدة بالوفايات . وفوق انه موظف الاحوال المدنية ، هو أيضاً مدير الختان . ففى عشية ذلك اليوم أو عشية الزواج يتم حلق الشعر عن مظهر احتفال رسمى . هو يحوطه بأبهة ويجعل له قيمة باعلائه من شأن فنه . ولهذه الخدمات الكثيرة تدفع له اعيان طبيعية أو مليمات .

وسواء أكان الساحر الرقاء عابر سبيل أم مقيما بالقرية ، فانه كان بطلاسمه وتعاويذه وخرائطه وأدويته سينافس ( المزين ) لو لم يكن زبائنه على الاخص من النساء . اليه تتجه الفلاحات لنيل معاونة الجن ، أو لإلقاء السحر ، أو لإبطال نتيجة تأثير العين الشريرة ، أو لتحويل القلب ، أو لتصيير الجسم مخصباً . ولا يمكن حملهن على التصديق بأن هذا « القديس » ليس الا منافقا أو محتالا ، و بقدر ما تكون طقوسه أكثر غرابة تكون ثقتهن في الاذعان لها أشد ، ولكن هناك حالات عدة لا تزال باقية بحيث لا يستطيع الغش ان يشرح النتائج الناجمة عنها . وينبغي كتابة مؤلف كامل عن السحر فى القرية وعن قرابته ـ من خلال الاسلام والمسيحية ـ مع سحر مصر القديمة (١)

يؤكد الفلاحون هذه القرابة بتصديقهم لكل مايقدم اليهم كعتيق ، فهم لايجدون لكثير من خرافاتهم أسبابًا اخرى . لماذا كان الراهب القبطي مفضلا كساحر ؟ ولماذا يصير تماس التمثال الاثرى المرأة مخصبة ؟ ولماذا كان هذا الحجر أو ذلك المخطوط الغامض الذى يعطيها إياه الساحر يجعل رغبتها منتجة . ذلك لانه قديم ، لان فيه قوة العصر الغابر .

وظيفة الباكيات هى كذلك تقليد قديم .

لا يكاد أحد الفلاحين يتوفي حتى يعلن صياح النساء ذلك النبأ الى كل أهل الحي ، ثم يبحث عن النعش العام الذى يوجد على مقربة من ( الجرن ) خارج القرية وفي داخل المنزل يغسل النساء (٢) الجسم بالماء الحار ، بينما ترتفع فى الخارج أناشيد

---

(١) ( فى الآثار المصرية الحية (ص ٢٧٩ — ٢٨٧ مجلة الجمعية الجيوغرافية ، القاهرة فى ابريل ١٩٣٧

(٢) لا تغسل النساء الا جثمان المرأة ، اما جثمان الرجل فيغسله رجل ، وهو عند المسلمين يجب ان يكون له دراية بشروط الطهارة ، وقدجرت العادة ان يتخصص فى القرية رجل أو رجلان لتأدية هذه المهمة « المترجم »

الباكيات اللواتي في مراثيهن الجنائزية يطرين جمال المتوفى ومحامده ، ويؤنبن الاله على دعوته إياه ويسائلن الميت وزوجته واولاده ، بل والموت نفسه .. ويبدو أن هذه الأناشيد مرتجلة ، ولكنها ليست اكثر ارتجالا من دموع أولئك المحترفات المتدثرات بـ ( ملايات ) طويلة مخصصة لمثل هذا الاحتفال ، ووجوههن مصبوغة بالسواد أو بالزرقة اشارة الى الحداد ، ورؤوسهن مغطاة بالوحل . هن يدرن الرقص الجنائزى ، فينهضن ويضربن بايديهن ويتمايلن ثم يهوين منهكات ، فيتمهلن ثم يستانفن صياحهن بين النساء ، اذ النساء يقمن بالدور الاول ، أما الرجال في الجنائز أو فى العزاء فياتون جماعات - لان الموت جزء من الحياة العامة - ولكن مساهمتهم تظهر فى اجتماعهم فحسب لانهم لا يقولون شيئا . هم يتبعون النعش فى صمت ويصافحون أقرب الناس الى المتوفى ويظلون جالسين وقتاً طويلا أمام دار الميت ثم ينصرفون (١)

هناك فرص اخرى اكثر مرحاً ان لم تكن اكثر وقوعا تجمع الفلاحين وهى : الموسيقي والقصص . والرجل الذى يجلب اليهم هذه الساعات اللذيذة هو الشاعر ، وهو تال وقصاص ومغن فى الوقت عينه ، وهو واحد منهم .

ذلك الرجل المحوط بالاعجاب والذى قدر له صوته أن يقوم بدور شاعر القرية الجائل مصطحبا الربابة ، وهى آلة ذات وتر واحد ونغمة حادة يمدح محمدا أو المسيح ويصف وجه النبى بطريقة ساذجة ، وان كانت ذات لون خاص ، ولكنه في أغلب الاحايين يروى مفاخر أبى زيد الهلالى ورفاقه وجمال زوجته عالية ، أو شهامة عنترة ، أو الرغبات البدنية . يستند كثير من هذه القصص الغير المعقولة الى أساس جد قديم ، ويعيد ذكريات القصص التى كان القرويون الفرعونيون (٢) يستمعونها .

---

(١) أنظر الملحق فى آخر هذا الكتاب تحت عنوان ملاحظة على الحداد

(٢) محمد غلاب « الآثار الحية لمصر الغابرة فى الشعبيات المصرية الحديثة ، بوسك ورييو . ليون سنة ١٩٢٩

يستمع الحاضرون الذين ينتقلون الى عالم عجيب وقد تملكهم السرور، وكلما وصلوا الى نهاية مرحلة من القصة توجوها بقولهم : الله الله ، أوصحبوا الاغانى بتصفيق منتظم وعندما يبلغ التحمس أقصى حدوده ، ينتزعون لبدهم و يقذفون بها في الهواء ، واذ ذاك ينبغى الاستئناف .

وفى بعض الظروف الفخمة كالزواج ، أو استقبال أحد الاشخاص ، أو ليلة المولد تزدان الحفلة بالموسيقى التى تقدم بنغمة بسيطة حادة لحنا متماثلا إن لم يكن خاليًا من الانسجام ، فالفنانون الاميون يخترعون ألحانا مختلفة على موضوع ، أو يوقعون من ذاكراتهم نغمات معروفة ، أما آلاتهم ، فيمكن حصرها فى يسر وهى المزمار ، وهو آلة هوائية ذات قصبة وقربة ، والزمارة ، وهي قصبة بسيطة أومزدوجة ، والارغول والسلمية اللذان يداعبان بالاصابع، وتؤيد الموسيقي بدقات الطبل ، وهو آلة مستديرة ضئيلة العمق، والنقرة ( الدربكة ) وهي جلد حمار مركب على قمع من فخار ( ٣٥ سم ) وكل هذه الآلات هي صناعة محلية ، ولا توجد حفلة قروية خالية من ضجيجها .

يكون الجمهور اكثر ازدحاما حينما تضاف ملاه اخرى غير عادية الى برنامج الحفلة كحيل المشعوذين وعارضي القردة ، والحواة ، وكلعب الحطب أى المبارزة بـ (النبوت) بين فلاحين يديران عصويهما حول رأسيهما على شكل دائرة للدفاع أو الملامسة ، وكرقصة البطن ؛ أو لعبة الاشارات الواقعية وما شاكل ذلك .

تقام هذه الاجتماعات في ( الجرن ) أو على الارض المجاورة له ، أو على مقربة من ضريح الشيخ يوم مولده ، وهى تصل من الاهمية الى درجة غير عادية في تلك الزيارات الاقليمية التى تجذب نحوها مرة في العام عشرات الآلاف من الفلاحين (١) يأتون ليحيوا ذكرى الولى المحسن ان لم يتوسلوا اليه في الموضع المعتقد انه موضع

---

(١) «إيلى سيداوى » «المعارض أوموالد الاسلام» فى مجلة العالم المصرى سنة ١٩٢١

حياته أو موته ، وذلك مثل السيد البدوى في طنطا ، والشيخ يوسف أبى الحجاج في الاقصر ، والامام الشافعى في القاهرة ، والشيخ مبارك في اسيوط . وللاقباط (ستى) دميانة ، ودير القديس باكوم ، وابو سيفين ، واقلاديوس الاعزب ، ومارى جرجس وغيرهم .

وفيما عدا ذلك - كما في عيد شم النسيم [1] - يمتزج أشياع الديانتين غالباً في نفس الزيارات أو في نفس المتع .

تدوم تلك الحفلات عدة أيام ، وتتعاقب فيها المواكب الفوضوية ملوحة بأعلامها فى الهواء ، ويأتى البدو ، ليظهروا مفاخرهم فوق الجياد ، وتنصب للأطفال أراجيح وخيول خشبية ، وعجلات رأسية ضخمة قد علقت فيها قواسق تصعد وتهبط كقواديس الساقيـة . وتقام فى الهواء الطلق عدة حوانيت يشترى منها حلويات تذكارية ، والحلاوة السمسمية ، والحمص والفول السودانى وأشباهها .

يضحك الجمهور ويغنى ويلهو ، وينفق في يوم واحد ما ادخره في العام ، إذ هو قد ألقى بنفسه بين أحضان الحياة المحمومة في اللحظة الحاضرة .

يوجد الجمهور كذلك في السوق وهذا السوق هو قطعة أرض خالية يحيط بها أحياناً حاجز ، وهو يوجد خارج البلاد [2] المهمة ويظل كل أسبوع من الفجر الى الظهر ، ويتجه إليـه الباعة والبائعات في صفوف طويلة منذ تنفس الصبح يحملون

---

(١) هو عيد الربيع ، ويقع هـذا العيد المصرى القديم يوم الاثنين الموافق عيد الفصح القبطى .

(٢) أسست شركة الاسواق المصرية ( ١٢٣ ) سوقاً قروياً ، وهى تعرف بحواجزها الحديدية ، وأهم ما فى مصر السفلى منها أسواق : الملاحة ، وشبين الكوم ، وعلى الاخص سوق امبابه الذى يمكث ثلاثة أيام ، وفى الصعيـــد سوقا طما وطحطا اللذان يحدثان انتقالات عديدة . وفى جميع هذه الاسواق يفرض قرش أو قرشان على كل بائع .

منتجاتهم التى يمدونها و يظلون جاثين في الزوايا التى اختاروها في انتظار الزبائن ، فلا يلبث أن يرد المشترون من كل القرى المحيطة ، وإذ ذاك يتكون خليط متباين العناصر ذو ضجيج مؤلف من أناسى وحيوانات وأشياء . فأما القماش والسلع الحديدية ، فيقوم بعرضها تجار محترفون أتوا من عاصمة الإقليم أو من جولاتهم في القرى . وهؤلاء التجار يستوردون من تجار المدينة . وأما الخضر والطيور والزبد والبيض ، فيقوم بعرضها الفلاح المنتج ، أو بالأحرى زوجته التى تجيد المساومة أكثر منه . وعند ما يكون مضطراً يأتى لبيع جاموسته أو ماعزته ، ويقوم فلاحون آخرون بطلب كل ما لا يستطيعون إنتاجه من المصنوعات والمأكولات . فبقرشين يستبدل ( البلاص ) المكسور والقفة المحروقة ، وبثمانية قروش يشترى سروال كبير ، وبخمسة قروش ، قميص ، وبعشرين قرشاً يمكن الحصول على ( جلبيـة ) ، وبثلاثين على ( ملاية ) . وهناك أغلى من هذا للعمدة أو للقروى الثرى ، فجلبية أو (ملاية) بمائة قرش هي التى ترفع قدر الفلاح أو قدر زوجته.

كذلك ينبغى شراء القوت ، ويجرى هذا تبعاً للفرص والحاجات والاستطاعات ، وإليك بعض الأثمان مثلا :

| | مليم | ص |
|---|---|---|
| اللحم . الاقة من البقر : | | ٨ |
| « من الضأن : | | ١٢ |
| البترول لـ (الوابور) والمصباح ، الصفيحة ٨ ليتراً | | ١٠ ـ ١١ |
| الليتر | ٧ | |
| الزيت الحار للطهي الاقة | | ٦ ـ ٧ |
| الشاى وهو غال بسبب الجمرك ، الاقة | | ٢٥ أو أكثر |
| القهوة للضيوف ، الرطل : | ٥ | |

| | مليم | ص |
|---|---|---|
| السكر المكرر ، الاقة : | ٥ | ٣ |
| لفائف التبغ ، العلبة ٢٠ لفافة : | | ٢ - ٣ |

اما منتجات الدسكرة فتشتريها الطبقة الثرية المحلية او عملاء يصدرونها .هم يشترون من سوق القرية :

| | | |
|---|---|---|
| زوج الدجاج : | | ٨ ـ ١٥ |
| ( دستة البيض ) : | ٥ | ١ ـ ٣ |
| أقة المسلى : | | ١٢-١٤(١٦في الصيف) |
| أقة الارز : | | ٢ ـ ٣ |
| أقة العدس | | ٢ ـ ٣ |

أما الحبوب والقطن فيشتريهما تجار أو مندوبون عن كبار تجار القاهرة أو الاسكندرية .

وهنا الأثمان جد مختلفة ، فالقنطار من القطن يمكن أن يباع بمبلغ يتراوح بين ٣٠٠ قرش و ٥٠٠ قرش حسب جودة التيلة أو سير البورسة أو حاجة الفلاح ، وصغار التجار يشترون من الجنائين الرطل بـ ٧مليم ويبيعون القنطار بـ ٢٥٢ قرشاً . وإردب القمح (١٥٠ كيلو تقريباً) يباع بمبلغ يتراوح بين ١١٠ قروش و ١٤٠ قرشاً حسب تأثيرات الكيف والكم .

أما البضائع الأخرى ، فنسبة التباعد بين أثمانها أقل ، والأثمان فيها تسير من أعلى إلى أدنى تبعاً لقرب السوق أو بعده من النيل وحسب ما يكون الوقت شتاءاً أو صيفاً ، وحسب قوة الطلب أو قوة العرض وهلم جراً · وهناك بعض المنتجات لم تتغير أثمانها تقريباً منذ ثلاثين سنة .

ولايزال التبادل فى القرى يحدث مقايضة فى ربع ماتجرى فيه العمليات على الأقل ولكن استعمال النقود يسود باطراد .

وأخيراً ، وعلى أثر الانتهاء من الأعمال بعد مناقشات كثيرة يعود الواحد منهم إلى منزله قبل غروب الشمس بالشيء أو بالمال الذى يجب أن يجلب تحسناً عملياً إلى المنزل أو على الأقل هو يعود بسرور يوم ملىء بالمناظر والصياح .

تحدث الأسواق وزيارات الأضرحة مرورا ضخماً على الطرق الزراعية ، وهنا أيضاً نشاهد ميل الفلاحين إلى الاجتماع و إلى الانتقال جماعات وفى تكدس ، سواء أكان الأمر يتعلق باجتياز النيل أم باجتياز القناة للذهاب إلى القرية المقابلة . يصعد الفلاحون إلى القارب أو إلى السفينة (المعدية) متكاثرين إلى حد وقوع الحوادث . وعند مايرتحلون مشاة أو على حميرهم مغمورين بحزمهم كأنهم فى حالة خروج لاعودة بعده . وعند مايركبون - إلى مسافات أبعد - «الطرومبيل» أو «الحلزونة» وهى سيارة فورد من الطراز القديم تحولت إلى «أوتوبوس» يتكدس فيها أربعون على حين أنها ليس فيها أمكنة إلا لعشرين ، وهم يجدون أن من السىء جدا أن يود أحد حملهم على احترام قواعد الشرطة . أو لم يكن بعض الأسباب التى نفرت الشعب من أحد الوزراء فى الأرياف هو إلحاحه على تطبيق قواعد النظام؟ وعندما يجب أن يسافروا فى القطار يصلون قبل موعده بعدة ساعات ويجتمعون فى احدى زوايا الرصيف ويتكدسون في عربة واحدة على حين انه توجد أمكنة في غيرها .

وقصارى القول : ان الفلاحين يحبون أن يعيشوا معاً فى الخارج وعلى صورة جمهور . انهم محبون للاجتماع ، فهل هم لهذا اجتماعيون ومتماسكون ؟ وهل توجد في الجماعات الريفية صلات عضوية بين بعضهم والبعض الآخر ؟

لنعتبر بدياً القرية ككتلة واحدة : هي تكون بأراضيها كلا معيناً يظل

الباقون ، حتى الجيران ، خارجه أجانب وغير معروفين . وهى تحيا حياة مقفلة خاصة بها ، حياة تحكمها في داخلها التقاليد والعادات والحرمات الموروثة وهي القوانين التى لا تصعد الذاكرة إلى مبدئها والتى تحدد إشارات كل فرد ورغباته .

بقدر ما يلقى الفلاح من مشقة في ان يمد فكره خلال الزمان ، وفى ان يتنبأ بالمستقبل يحس بنفس هذه المشقة فى ان ينطلق في المكان ، فقريته هي كل شيء لانها قريبة وحاضرة ، وهى تمثل وطنه ووطنيته فحينما يسأل فلاح ما عن وطنه يجيب بقوله أنا من « منفلوط » أو « ابوقرقاص » واحيانا يجيب بصورة أوسع : « أنا من مديرية المنوفية » أو « مديرية اسيوط » ولكنه لا يقول ألبتة : « أنا مصرى » هو - ولو انه أشد مصرية من كثيرين من الساسة - لا يدرك انه ينتسب الى وطن وهذا يجعل المرء يفهم لماذا انه في الحركات الوطنية التى أثارت مصر منذ الحرب الى ان نالت الاستقلال لم يتحرك عالم الفلاحين (١) فالوطن والحرية والسياسة هى كلمات واشياء لا يفهمها .

وحينما جند الانجليز ابان الحرب العظمى جيشاً وطنياً ليدافع عن البلد المهدد عند قناة السويس فان « المتطوعين » قد أخذوا بالقوة و بصعوبة أشد منها في عهد السخرة وضعف الوطنية هذا نفسه هو الذى يوضح نفور الفلاحين من الخدمة العسكرية ، والاربعة والعشرون ألف جندى الذين يؤلفون الجيش المصرى هم جميعاً تقريباً مجندون من بين الفلاحين لان قانون سنة ١٩٠٢ في الواقع لا ينطبق بكل شدته الا عليهم ، اذ ان الموظف وابناءه والابن الوحيد واكبر اولاد الوالد المتوفي ، أو المقعد ، أو الذى بلغ الستين ، والطالب وحافظ القرآن وذا العاهة لهم الحق فى الاعفاء ، والذى يليق للخدمة

---

(١) لعل عالم الفلاحين قد اشترك فى الحركات الوطنية وان كانت الاعتبارات التى تدفعه ليست هى التى تدفع المتعلمين « المترجم »

يظل تحت مراقبة القرعة فيما بين التاسعة عشرة والسابعة والعشرين واذا اختير فانه يلتزم الخدمة مدى خمسة أعوام ولكنه لكي يستحق الرفض يفقأ احدى عينيه أو او يقطع اصبعين من اصابعه(١) وهو يستدين ليدفع البدل العسكرى او يقيد نفسه كطالب او يختفي بقدر ما يستطيع أو يفر. وفضيحة العصيان تلحق خمسة وثلاثين في المائة من المجندين.

وعندما تكون الكارثة غير ممكنة التجنب ولا يكون له بد من السفر على اى حال فان اسرته تتقبل العزاء وتلقى بنفسها في ولولة تشبه الولولة على المائت.

مغادرة القرية هي التغرب، والارتحال هو الموت، والتقيد في الجيش هو كجواز للهجرة الى المدينة، والمحراث والساقية والجاموس والثيران كل ذلك يئن ويحتج (جندى)

على أثر ذلك يعوز الارض هذا المجند بشكل مرعب، ومن هنا يفهم ان موقف الفلاحين الذين يفضلون دفع عشرين جنيها، بل مائة لينقذوا انفسهم ولو اثقلهم هذا الدين وقتا طويلا.

ليس معنى هذا ان الفلاحين يؤلفون جنودا ارديا‌ء فجيوش محمد على وابرهيم باشا الظافرة كانت مؤلفة من الفلاحين، وهؤلاء الرجال يعرفون أستخدام البنادق باطمئنان. حقًا ان ذلك الوقت الجميل قد مضى، ولكنه يدل على الكفاءة، وهنا ايضًا تبسط مسألة من مسائل التربية

اليوم يجب ان يقل النفور من الجندية اذ الرجال يعاملون أفضل من ذى قبل. فهم يشذبون أثناء الخدمة ويتعلمون ابان التمرينات ويلبسون ملابس نظيفة، وعند ما

---

(١) كان الفلاحون فى الزمن السالف يفقئون أعينهم ويقطعون أصابعهم فرارا من الجندية لقسوة انظمتها اذ ذاك أما الآن فان أسرهم تكتفى بالعويل والولولة ابان رحيلهم الى العاصمة «المترجم»

يغادرون الجيش بعد خمسة أعوام يصيرون سادة ( افندية ) وحينما يكون احد الفلاحين في التكنة أو حين يرتبط بعمل فى المدينة يربح منه بضعة دراهم فانه يحمل قريته في قلبه . ويرتسم مرض الوطن على وجه الخالى من الشواهد والتعبيرات ، وهو يحاول على الاقل ان يحتفظ بعاداتها وبالاتصال بها . الم تكتب عدة مرات خطابات باملاء هؤلاء الفلاحين الأميين الحساسين المنتزعين من بلادهم ؟ لقد كان ذلك متشابهاً دائماً : « نبئونى بأخبار الزراعة وسلموا على فلان وفلان وفلان » . وعندما تكون ثروة القرية الحيوية فى خطر مباشر يحس كل واحد منهم إحساساً عنيفاً بانتسابه إلى الجماعة ويجتمع الرجال والنساء والأطفال قوة واحدة . ونحن لا نزال نذكر فاجعة أبى شادى سنة ١٩٣٦ ، وذلك أن مصلحة الرى - لكى تحقق توزيع السقى بهيئة أفضل - قد صممت على قطع قناة كان البلد كله يروى منها منذ ثلاثين سنة فثار الأهلون بالعمال وبرجال الشرطة وبالجيش ، ليمنعوا هذا التحويل ، وقد حالوا بين كل هذه القوى وبين النجاح مدى عدة أيام . كانت النساء فى الصف الأول يثرن الرجال ، والصبية يجمعون الذخائر ويقدمونها ، فكان ذلك فناً عسكرياً حقيقياً مرتجلا .

وعند ما يغالى مراب أو مالك أو ناظر في عسفه ويقتل للانتقام العام ، فإن أدق رجال المباحث لا يستطيع اكتشاف المنفذ ، إذ يكون الإجماع على الصمت تاماً . وحينما تهين قرية مجاورة أو بعض أفراد منها فقط قرية أخرى أو تسبب لها خسارة ، فإن جميع أهل هذه الأخيرة يؤلفون جبهة ويشتركون في الانتقام من المهينين بضربة حجر أو (بنبوت) أو ببندقية ، لأن كثيرين من الفلاحين يملكون ذلك السلاح المحظور ويعرفون استخدامه . ومع ذلك فقد أخذت تلك الحروب - بفضل تدخل

الشرطة - تقل باطراد ، بينما بقيت المنازعات الخاصة متعددة وعنيفة وغير متوقعة كما كانت سابقاً .(١)

وهنا نلمس أحد تناقضات بيئات الفلاحين : الجميع في القرية متعارفون ولا يترك ألبتة أحد يموت جوعاً ، والمعاونة التطوعية بين الرجال في أعمال الحقول و بين النساء في الحاجات المنزلية ، تلك المعاونة التى تحدث بدون روية بقدر ماتكون الفاقة أعظم هي تهذبنا . والتماسك الذى يبديه الفلاحون في تنفيذ مصلحة عامة حينما لا يكونون مأمورين يظهرنا على ما يستطيعون ، ولكن في مسائل الأرض والمرأة والعمدية تتألف أحزاب وتظل في حالة معارضة تنتقل من جيل إلى جيل وتسود جميع الأسر . وينبغي أن يكون المرء مشايعاً في القرية ، إذ أن المحايدين محتقرون وهذه الخصومة المتعادلة عادة تستيقظ فجأة بسبب حادثة تافهة . كحد نقل من موضعه أو سماد سرق ، أو جاموسة وجدت دخيلة ، وإذ ذاك تصبح الحياة البشرية ولا حساب لها : يحدث القتل ، وفي سهولة أكثر، في القرى التى يمتزج فيها الدم العربي بالدم الفلاحي .

وهكذا يعيش المرء في حالة لا أمن فيها . ولفهم هذا الذعر السائد ينبغي إمضاء الليل في القرية فعلى أثر انقضاء النهار تسترعي انتباهك الاحتياطات المتخذة ضد العدو الممكن فالحيوانات - وبينها الجمال إذا كانت موجودة - تحبس في المنزل ، وكذلك الأسر تتجمع فى صمت خلف الباب الضخم المغلق . والرجل غالباً في الخارج ساهر على حقله

---

(١) حسب احصاء سنة ١٩٣١ ظل ستون فى المائة من جنايات القتل بدون عقاب لعدم استطاعة اكتشاف الجناة ، راجع «الجنايات فى الارياف » لمحمد مصطفى القللى فى مجلة المسائل الاجتماعية يوليه سنة ١٩٤٠ ص ٢٠ - ٢٩

أو على مائه ، لأن العدو يرود دائمًا . . . وبقدر تكاثف الظلام ، يتتابع نباح الكلاب وطلقات البنادق .

ليست بندقية الخفير الساهر الذى يطمئن ويطمئن هي التى تسمع ، وانما بندقية الفلاح المسلح رغم القانون . وفى موسم الاستغلال يصير أكثر حذراً أيضاً . ولقد رأينا بعض الفلاحين يتقلدون بنادقهم أثناء جنيهم ، وهم يخوضون في الماء ، آخر لوزة من القطن .

بسبب انتخاب عمدة انقسمت قرية قلندول إلى معسكرين : أشياع محمود بكير في جانب ، وأنصار على عباس في جانب آخر ، وقد طعن الأول على الثانى بكلام جارح ، وبناءا على ذلك وجد ابنه الشاب فى صباح أحد الأيام مقتولا في الحقول ، وبعد بضعة أيام طعنت شقيقة على عباس بخنجر للانتقام ، ومنذ ذلك العهد أخذ كل من الحزبين يلاحظ الآخر ويترقبه مدة سنة ، وظل العمل والانتقال يجريان فى جماعة . وفى أحد أيام السوق بينما كان عدة فلاحين آتين من القرى ، شتم أحد خصوم محمود بكير شاباً من أشياعه فصفعه هذا الأخير ، وعلى أثر ذلك انقض أنصار على عباس على هذا الشاب وطعنوه بخناجرهم عدة طعنات ، وفى الحال نمي نبأ الجريمة إلى رجال بكير فوصلوا على الفور إلى مكانها مسلحين بالبنادق والنبابيت مكررين : « الله . الله » وقد أجاب أتباع على عباس بتلك الصيحات نفسها ثم خرجت الطلقات ، وبعد ساعة أحصى ثلاثة قتلى وعدة جرحى . وعند نهاية النهار صمم كل من المعسكرين على إبادة الآخر فتحصنا فى الجبل ، وكانت مهمة الشرطة فى إعادة النظام شاقة ( مايو سنة ١٩٣٦ ) .

ان نفور الجنسين : الفلاح والعربى ، والديانتين : القبطية والاسلامية ولو أن

الحياة العامة قد انامته لم ينطفىء قط انطفاءاً تاماً ، وهو الذى يوضح كثيراً من الفواجع هناك اذا ، ثقة وحذر فى الوقت ذاته ، والذى هو فوق كل شىء ، وهو خط الانقسام بين تينك العاطفتين ، هو الارض أو هوى الارض ، اذ هي التى تجمع حينما تكون مهددة وتفرق عندما تمتلك أو تشتهى فحسب ، وبسببها الجماعة الريفية المتينة بالنسبة الى الغير تتمزق في الداخل. اما الافكار القومية والوطنية فلا توقظ في نفسها أية عاطفة وليس حظ أفكار الجمعيات او المصلحة العامة أو الحياة القروية المشتركة باكثر من حظ سالفاتها. ليست القرية المصرية وحدة عامة بالمعنى الوطني لهذه الكلمة ، وليست جسما منظما ولكنها كتلة .

وليس اتحاد نوع الحياة ولا الاجتماع بقادرين على ان يخلقا بالضرورة بين الناس صلات عميقة اذ ينبغي فوق ذلك نوع من الحياة الروحية او وجود بعض الشخصيات التى تصير اربابها اكفاءاً للتبادل وللاجتماعية ، والفلاح يبدو لنا انه قليل الشخصية بقدر ماهو فردى . هو يحيا مملوكا للارض ، مضطهداً من الناس حياة عامة ولكنها ليست اجتماعية ، وهو فى الجماعة يظل في العمق منفرداً .

لقد احتفظ هذا العوز فى التنسيق بين العناصر المتماثلة بإبقاء القرية المصرية والجماعة الريفية التى تمثلها ، فى الحالة البدائية لمجتمع بدون هندسة مادية او عقلية ، وهو المجتمع الذى كان منذ خمسين قرنا . وقد تمسكت الحكومات بهذا الجمود الذى نمي سلطتها بهيئة غريبة .

وهكذا يتماثل الفلاحون والاربعة عشر ألف بلد التى يقطنونها (١)

---

(١) قائمة البلاد الرسمية ( مطبعة الحكومة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٣٢ ) تحتوى على ١٤ ألفاً و١١٦ بلداً بالضبط ، منها ٧٨٠٠ تحمل كل واحدة منها اسم عزبة و ١٥٠ تصدر بـ ( ميت ) و ١٨٠ بـ ( نزلة ) و ٩٣٣ مسبوقة بكلمة : كفر ، و ١٤٣٦ بكلمة : نجع . وهذه الاسماء تذكر بالأصل ، ولكن لايكاد يوجد أكثر من ٤٠٠ وحدة ( ناحية ) .

# الفصل السابع

## منزل الفلاح وأسرته

« لقد رأيت أشد قرى المانش الاسبانى فاقة ، ومنازل أهل الرأس الاخضر الرديئة ، وأخصاص اللاندأس الذين هم متوحشو أعماق الانجولا ، ولكننى لم أشعر بالبأساء قط كما شعرت بها فى مصر » .

هكذا كتب « كريستيان دى كاتير » عند عودته من الشرق بمناسبة منزل الفلاح . (١)

وعلى العكس من ذلك يجد المسيو ( لوزاك ) أنه ليس متاخرا كثيرا عن المنازل الحقيرة الحجرية أو الطينية المغطاة بالقش التى لا تزال توجد بكثرة فى أوروبا المركزية أو الغربية . وعلى كل حال هو أرقى كثيراً من تلك الأكواخ التعسة التى يعيش فيها كثير من قرويى تونس والجزائر . (٢)

من نصدق ؟ ان كل شيء يتعلق بوجهة النظر التى يضع المرء فيها نفسه وبمتانة مواطن الاعتماد ، ومع ذلك فيبدو لنا أن التشبيه ـ والاشياء ليست متساوية ـ يحتوى هنا على مبدأ الخطأ . ونحن بدل أن نسجل إحساسا شخصيا أو حكما ناشئا عن رأى سنصف مسكن القروى العصرى كما هو ، والحياة التى يؤويها . وسيشتمل هذا في الوقت نفسه على مشاهدة التئام المسكن مع الارض والرجل .

لقد كنا قبل ذلك في المواضع العامة من القرية ، فلننظر الآن الى المساكن

---

(١) تحقيق عن مصر « ايكودى بارى » ١٦ يونية سنة ١٩٣٢ .

(٢) دلتا النيل « دراسة الجيوغرافيا الانسانية » القاهرة سنة ١٩٢٥ ٣٠٠ صفحة ص ٢٠١

الخاصة للفلاحين ، لنتخط مسكن المالك الفخم ومقر العمدة ، ولنشر فقط الى مايأتي لانه استثنائى .

المنازل الحجرية فى القرى الملاصقة لحدود الصحراء فى (مصر العليا) اذ يسمح الاقتراب من الصخور للفلاح هنا بأن ينقل فى قفته الاحجار ليبنى بها ، وبعض هذه المنازل لها سقوف مقوسة ، واحيانا على صورة قبة .

والمنازل ذوات الآجر بدون تجصيص التى هى كثيرة فى مصر السفلى والتى تقتضى بعض الثراء .

والمنازل المنظمة فى العزب النموذجية كمنازل الممتلكات الملكية ، وممتلكات الجمعية الزراعية ، وبعض الملاك .

والمنازل الحقيرة التى لاصور لها (العشش) وهي للآتين حديثا وأنصاف الرُّحل ومصنوعة من الخرق والصفيح والسعف والطين .

وأكواخ الزراعة (الزرابى) وهى مأوى من القصب أو من حواجز فقط من حطب الذرة قائمة فى وسط الحقول وهى تبقى ببقاء أعمال الشتاء الكبرى

لننظر الى المنزل العادى للفلاح المتوسط ، وهو الذى يوجد بنسبه ٩٢ ٪ أى المنزل الطينى ، وهو منزل بدون طراز وبدون عصر ، وهو أيضا يمثل وحدة الريفية المصرية وثباتها .

لنرجع الى احد تلك الدروب التى توجد فى القرية ، فعلى جانبيها تتزاحم واجهات ضيقة رمادية مقفلة يتراوح عرض كل منها بين خمسة أمتار وعشرة ، وارتفاعها من مترين ونصف الى خمسة أمتار على الاكثر عندما يكون فيها طابق علوى .

الحى قديم ، والقرية أقدم ، ولكن المنزل لا يرجع تاريخه الى عشرين سنة ، ذلك لان مواد البناء وطريقته تفرضان على البناء حياة قصيرة ، والفيضان والمطر فى

مصر السفلى ، والحرائق قد جرّت اصلاحات متتالية سوف لا تدع عما قريب شيئا قديما .

يتعلق مسكن الفلاح كعمله بالأرض وبنوع الحياة وبالنظام الاجتماعى ، فالارض التى تطعمه هي نفسها التى تؤويه ، هو أرضى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، والمادة هنا هى التى تعطي الصورة .

من الصلصال ، وقش الشعير أو الفول أو الكتان وأرواث البقر وماء النيل يتكون الملاط المستعمل فى كل مكان والذى يبسط من الجانبين على حاجز من حطب الذرة أو من السعف أو من القصب ، أو يصب فى قالب من خشب لصنع اللَّبِن ( الطوب النيء ) الذى يجفف فى الشمس ، وعندئذ يبني به الحائط ، و ( اسمنت ) اللُّحْمَة هو مصنوع من نفس هذا المزيج الطبيعي ، ومنه أيضا الطلاء الذى يغطى داخل الحوائط ويحميها .

لكى يكون فى الحائط المبنى على هذا النحو مقاومة كافية يجب أن يكون سمكه من ٣٠ إلى ٤٠ س م .

وعندما يكون الفلاح اكثر سعة يبنيه على أساس من آجر يدعي بـ ( الطوب الاحمر ) أو على قواعد من حجر الجص ، وهكذا لا تأكل الرطوبة التى تصعد من الارض بالترشح أساس المنزل .

لكى لا تتعرض متانة الحوائط للخطر ، ولكي تؤدى على أفضل وجه مهمتها كواقية ضد إفراط النور والحرارة أثناء النهار ، وضد برد الليل وخطره ، هي تحتوى على فتحات جد قليلة : باب ارتفاعه ١ م و ٧٥ س وعرضه متر تقريبا . وهو منفصل عن الدرب بعتبة ارتفاعها ١٠ س م وفوق مستوى الاعين كوى صغيرة ( ٣٠ X ٢٠ س م ) وهي تسد في الشتاء ، ومنها ومن الباب تتكون الاتصالات الوحيدة بالخارج

هذا التقتير فى الانارة يبرر فوق ذلك بنقص الخشب وغلائه ، فمصر الواقعة في المنطقة الكبرى التى لاتصلح للخشب والتى تستطيل فى الخط المنحني من السودان الى الهند أوالمنطقة الدائرية الصحراوية ليست بلدا ذا غابات ، والنخل والجميز والسنط التى تظلل القرى هي أنفس من أن تستخدم كأخشاب للمبانى ، على أنها لاتكفى لجميع لابواب والنوافذ التى يتمناها الصحيون . هم يستعملون جذوع النخل ولكن فى اقتصاد شديد ، لأن النخلة الواحدة تدر على مالكها مائة قرش فى العام (تمر وليف وسعف) والخشب الوارد من فانلاندا والسويد ورومانيا وروسيا ، والذى هو مألوف الاستعمال في المدن يتجاوز ثمنه ثروة الفلاح العادية ، وهكذا يظل الباب غالبا بدون خشب والنوافذ دائما تقريبا بدون زجاج ولا اطارات .

وما دام ان المرء يستطيع الاستغناء عن الخشب فهو يستغنى عنه ، ولكن الإنفاق على السقوف ضرورى . فى مصر العليا التى لا مطر فيها ألبتة ، يظل بعض المنازل بدون سقف ، ولكن هذا ليس الا استثناءاً ، وفى العادة تغطى الحوائط الاربعة على الاقل بأوراق ، فعلى عروق رديئة التشذيب موضوعة على أبعاد ٦٠ س م يمد حطب الذرة أو حطب القطن أو القصب أو الجريد ، ولكى لايتعطن هذا السقف يغطي بحصر غليظة ، وفوقها تعد طبقة قوية من الملاط المختلط بالرماد ، وبهذا يصنع السطح صفيقاً بهيئة كافية لمقاومة المطر العابر ، ومتينا الى درجة تجعله يحتمل كوخ الصيف ونوم جميع أهل المنزل . ويتوصل الى هذا السطح بسلم من خشب أو من لبن ، والحاجة ماسة اليه فى كل لحظة ، لأن فوقه توجد الآلات وصناديق الحبوب والوقود ، وأحيانا الطيور

ان الضرورة وعادة وضع الاخشاب اليابسة والقش فوق السطح تحدثان غالباً الحرائق التى هى بسبب اقتراب المنازل تمتد الى الحى ثم الى القرية . وشرارة تنبعث من التنور أو من (الوابور) مع حرارة الصيف القصوى تكفي لوقوع الكارثة . . ان اهمية حرائق القرى وكثرتها هما احدى بلايا مصر ، فبين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٣٠

دمرت على هذا النحو ستة وستون بلدا ، وفى كل عام ، ولا سيما بين ابريل وستمبر تسجل ادارة الامن العام خسائر مرعبة . ولكى نعطى القارىء فكرة عنها نسرد أربع حوادث جديدة

١٤ يناير سنة ١٩٣٦ في قرية ( ميت يعيش ) التابعة لمركز ميت غمر « انتشر الحريق بسرعة صاعقة فدمر ٩٤ منزلا وأصبح عدة مئات من القرويين بلا مأو » .

٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦ فى العويسجة التابعة لمركز ههيا « اتصل الحريق بـ ٤٣ منزلا تحولت الى رماد بكل ما تحتويه من حيوانات وطيور وأقوات ، والخسائر قدرت الى الآن بـ ( ٣٠٠ جنيه ) وقد أثبت التحقيق أن الحريق قد أحدثته قروية تدعي نفيسة حسن كانت تطهى فى بيتها فاتصل بعض الشرر بالحزم الموضوعة فوق السطح وقد هبت الريح فلم تلبث النار ان اشتعلت .

٥ مايو سنة ١٩٣٧ « شب حريق فظيع فى بكنوش مركز دسوق مديرية الغربية دمر فيه ٤٠٠ منزل تمام التدمير . وقد أتى اللهب على ١٤ شخصاً وأنقذ ١٣ آخرون حروقهم خطرة » .

١٤ يناير سنة ١٩٤١ شب حريق فى قرية الدير مركز طوخ فدمر ٢١٧ منزلا وسبب وفاة ٢٠ وأحرق غلات ومواشى وقذف بـ ٤٠٠ أسرة الى التعاسة . وقد سببته امرأة كانت تطهى فوق سطح منزلها .

نعم يوجد قانون يحظر « تكديس الأخشاب اليابسة فوق سطوح المنازل » وتوجد « لجنة لمقاومة الحرائق فى الأرياف » ولكن لا القانون ولا اللجنة يمنعان الفلاح من وضع الوقود فوق الأسطح ، لأنهما لا يقدمان إليه وسائل أخرى .

ينصحون له أيضاً ألا ينام مع مواشيه ، ولكنه لو تركها في الخارج لسرقت منه ،

وفي الداخل ، المكان ضيق الى حد بعيد ، فكيف يتصرف فيها .

لندخل أحد المنازل : لا نكاد نفعل حتى يستولى علينا نصف الظلام ، والرائحة ان لم تكن البراغيث أيضاً .

ينحصر المسكن في حجرة وحيدة من ٥ الى ٦ أمتار في عرض ٣م و ٥٠ س « في زيلرتى لأهل خورياتى ألحظ عدداً قليلا جداً من الأبواب للمنازل التى هى أحجار مربعة ليس لكل منها الا فرجة واحدة ، وكل ما فيها من أثاث هو تنور للخبز ، وجرة وحلة و ( قلة ) وصحفة ، وفى بعض المنازل يوجد حبل مربوط فى زاوية من حائط الى آخر ، وهو دولاب الملابس الذى يعلق عليه ثوب « التبديل » ( هذا هو تصريح مولاى خزام أسقف طيبا ) . أما السقف فهو منخفض الى حد يشعر بالضيق .

ولكن من حسن الحظ أن المنازل ذوات الحجرتين أو الثلاث هى أكثرية . وهي -- مع فروق ضعيفة فى الرسم والمساحات والانتفاع — تتكون من :

أولا : قاعة ( مندرة ) والى جانب حائطها الأيمن قد بنى نوع من السرير يصلح للاستعمال ككنبة ( مصطبة ) وهذه القاعة هي أكثر أجزاء البيت نوراً بسبب الباب ، وهى تستعمل للاستقبال ولنوم الضيف .

ثانياً : حجرة النوم والطهي ، وهى تطل على القاعة ، وفى إحدى زواياها التنور المبنى بالآجر والمتصق بالحائط ، وسقفه المبسوط يكوّن شبه سرير ينام فوقه شخصان فى الشتاء ، ولما لم يكن عندهم مداخن فان الدخان يمر من الكوّة .

ثالثا : وفى الداخل بعد هذا - وبدون أى مدخل آخر غير الباب العادى - توجد ردهة صغيرة ( زريبة ) نصف مغطاة بحطب الذرة تحبس فيها الجاموسة والحمار ، ولكن التفريق ليس واضحا الى حد أن القاعة لاتستعمل أيضا حظيرة أو حجرة نوم ، وأن

الحظيرة لاتستعمل مرقدا في الصيف وهكذا .

الدجاج يقطن فى كل موضع ، والحمام يسكن في ثقوب محفورة فى الحوائط الخارجية أو فى صفائح مصفوفة ، وفى القرى ذوات الاقليات القوية أو الاكثريات من الاقباط ينبغى أن يعمل حساب الخنازير التى يربيها الفلاحون المسيحيون لا لأنفسهم ولكن لقصابى الخنازير الاوروبيين ، وكذلك ينبغى أن يعد صديق الفلاح وحارس ثروته وهو الكلب المهوش الشعر الذى ينبح فى الليل .

أما أرضية المنزل فهي من تراب مضغوط . وفى الزوايا وبدون نظام يمدأو يكدس الأثاث : أى فيما يتعلق بالمائدة يوجد ( وابور البيترول ) وحلة أو حلتان من نحاس ، ومائدة مستديرة منخفضة من الخشب الابيض ( قطرها متر وارتفاعها ٤٠ س ٠ م ) وللنوم حصر وأغطية من قطن أو كيس من خيش فقط ، وأحيانا أسرة من جريد كأقفاص الدجاج ، بل حشية ، وللحاجة المنزلية وللنظافة وعاء مبسوط ، وهو الطست الذى يستخدم فى غسل الملابس والاستحمام ، وقطعة من مرآة ، والصندوق الخشبى الذى يكدس فيه كل شيء .

هو هدية الزواج ، والالوان الصارخة التى هو مصبوغ بها تذكر بيوم مرح . . « رأيت في صندوق بالقرب من التنور تحمل ربة المنزل مفتاحه في عنقها ، خليطا من : بيض وفلفل وجبن وخيط وابر وخرق وبضعة عقود وكيس وكحل » هكذا كتب الينا دهشا أحد المرسلين الفرنسيين .

كما نلاحظ فى القطر وفى القرية نحن نلاحظ أيضا فى منزل الفلاح ذلك الاقتراب الموجود بين الارض والحيوانات والناس والذى يعبر عن الحالة الاجتماعية وعن نوع الحياة : كما تكون السكنى يكون السا كنون .

على هذا النحو يظهر كيف أن الفلاح يتعلق بالارض وبالشمس وبالماء ، وهي

علاقة جيوغرافية بهذه الأشياء الثلاثة في منزله نفسه .

عن طريق مواد البناء والأرضية وقلة الارتفاع والسقف ، يتصل المنزل بالارض كما ينغمس فيها الفلاح بعمله وطعامه وأمراضه وموته .

عوز فى أسباب الراحة وكفايات الحياة في المنزل ، اذ لما كان الفلاح يعيش فى الخارج ، فلم يكن المنزل بالنسبة اليه الا مرقدا بدون أثاث ، أو مستودعا أو ( عنبرا ) من ذلك المعسكر المزدحم الذى هو القرية .

تشابه فى المساكن ، اذ لما كان الفلاح تنقصه الشخصية ، فهو ليس الا فردا أو رقما في المجموعة ، وأسرته خلية في الكوارة الزراعية .

قلة أو عدم الحجر اللازمة للاستعمال الزراعي ، اذ لما كان الفلاح أجيرا يعمل لحساب غيره ، فانه لايدخر ولا يختزن خيرات الارض .

ولكن هذا المسكن المحروم من كثير من العناصر التى يخيل الينا أنها أساسية يجده الساكن موافقا له ولعاداته الى حد أنه يحول أو يشوه على صورته المسكن الذى هو أكمل وأكثر ملاءمة للعقل والذى يبنى له في العزب النموذجية .

فى العزبة يملك المنزل المالك ، وفى القرية يملكه الفلاح ، وهو مع الأرض التى يشغلها يساوى ٢٥ جنيها على الأكثر ، وليس فيه ايجار ولا عليه ضريبة ، ففي الأولى هو يدخل فى شروط الشركة أو ايجار الأرض ، وفى الثانية يملكه رب الاسرة .

يقضى الفلاح فى هذا المسكن المقيس عليه حياته الخاصة ، وفيه لا يكون كما هو فى غيره أقل الناس .

يؤوى كل منزل أسرة عديدة تتألف غالبًا - عدا الاب والام واربعة اولاد أو

خمسة - من الجد أو الجدة اللذين لهما سلطة عظيمة ، ومن ابن متزوج وابن عم ذى ثواء طويل .

عندما يريد الفلاح ان يتزوج ، اذا كان كبيراً ، فهو يعالج المسألة مباشرة مع والد المختارة ويدفع له المهر . واذا كان صغيراً ، والرشد فى الثامنة عشرة ، فان والدته تشرع فى التنقيب - بين ذوى القربى والجيران ويندر أن يكون ذلك فى بلد آخر - لتعثر له على الزوجة المثالية ، وهي فتاة فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة لا تجهل شيئاً من الاشياء الجنسية . وقانون سنة ١٩٢٣ يحدد سن الزواج بالسادسة عشرة[١]

يحتفل بالخطبة عن طريق الوكالة ، وهي عقد الزواج . والمهر الذى يجب ان يقدمه طالب الزواج يتراوح بين ٥ و ١٠ جنيهات يدفع في الحال ثلثيه ويتعهد بدفع الباقى في العقد الذى يحرره المأذون أو العمدة .

يذهب أهل الخطيبة بهذا المبلغ الى المدينة ليعدوا الجهاز ، وهو فستان الزفاف الاحمر وقميصان وسواران من ذهب ( يتراوحان بين ١٠٠ و ٢٠٠ قرش ) والاثاث وهو : ابريق وحلتان من النحاس وطست والمائدة المستديرة ( الطبلية ) والصندوق المكسو بالزنج والمشتمل على عدة ألوان ، وهذه العادة نفسها متبعة فى « القبيل » . وحينما يكون المهر كافيا يشترون حشية محشوة بالقطن أو بالقش ، ووسادة أو وسادتين ولحافا .

وفى يوم الزفاف أى حينما تترك العروس منزل والدها الى منزل زوجها ، فان

---

(١) كان من بين الـ ٣٠٧٨٤ مسلمة اللواتى تزوجن فى سنه ١٩٣٤ - ١٥٢٤٨ عذراء و ١٣٨٣٧ مطلقة و ١٧٠٩ أيم ، وكان من بين الجميع ١٢٦٨٨ دون العشرين . وفى سنه ١٩٤١ كان لمديرية المنيا شرف الفوز بأشد نسب الطلاق انخفاضاً وهى ٣ ، ٩ فى الالف بينما كانت هذه النسبة فى القاهرة وفى السويس : ٨ ، ١٢ فى الالف

كل هذه الثروة تحمل على جمل مؤجر لهذه الفرصة وتمر خلال القرية ، والفتيات يتقدمن الجمل ويتبعنه مغنيات ومصفقات ، وأهل القرية البسطاء يعجبون بهذا الثراء الذى يمر أمامهم. وذلك يحدث بعد الظهر ثم يجيء دور رحيل العروس فتزدحم جماهير النساء والاطفال الى غرفتها لرؤية حلاها وحللها . وفى عشية الزواج يكون النساء قد أحممنها وخضبن يديها ورجليها بالحناء . ولكى تنال صديقاتها اللواتى بلغن سن الزواج مثل حظها يقرصنها فى فخذها .

يتألف الموكب فتركب العروس على ظهر جمل أو فى سيارة قديمة مختبئة تحت قماش احمر أو أبيض ، ومعها اثنتان أو ثلاث من قريباتها تحت المظلة . والرجال يطلقون البنادق فى الهواء ( هو تأثير عربى ) بينما تتعاقب زغاريد النساء وجوقاتهن ويكون الزوج هو الآخر من جانبه قد استعد فاستحم فى منزل أفضل اصدقائه . وقد نقلت اليه ملابس الحفلة وأتى ( المزين ) ليجمله وليضع له الحناء ، واجتمع الناس فى الخارج لينظروا خروجه ، وأخيراً وبعد أن يستعد يحيطه رفاقه بشموع ويتألف منهم صف يحمل النور ، وهو يمسك منديلا أبيض يضعه على وجهه كما لو كان يتحجب ، وهم يترنمون بأغانى الحب واللذة ( المواويل ) ثم تدوى أصوات الطلقات النارية وتلقى النساء على الرجال قبضات من الملح ، وأخيراً يصل الموكب الى منزل والد الزوج فينتزعه اصدقاؤه من الجمهور ويجذبونه الى الداخل حيث تكون العروس موجودة بالفعل بين النساء اللواتى تحققن من بكارتها .

واذ ذاك يتم الاتصال بدون كثير من التستر (١)

وفى الخارج وبين صياح الجماهير يدوم الغناء والرقص طول الليل ويستمر الى اليوم التالى وتوزع حلويات ملونة وفطائر بالزيت ، وفى هذا اليوم لا يوجد أثر للاقتصاد

---

(١) الهلباوى « الريف المصرى » ص ١٦٩

والشاب بعد زواجه يظل من اسبوع الى خمسة عشر يوما بدون عمل يدوى ، وفى هذا الوقت يدعونه بالامير .

يتأسس البيت الجديد ويظل متعلقا بالا بوين عدة سنين ، ولكن هل سيبقى بزوجة واحدة ؟ نعم اذا كانت الزوجة ماهرة ومطيعة لحماتها ، واذا أنجبت عدة غلمان ، ونعم ايضا اذا كان الفلاح فقيرا لايستطيع أن يدفع نفقات زواج آخر . وعند المسلمين الاستحواذ على أربع زوجات والتطليق شرعيان تماما . فهل يستفيد الفلاح من هذه الرحوبة القرآنية ؟ قليلا ، اذ أنه يلاحظ في الاعوام العشرة الاخيرة انخفاض محسوس فى تعدد الزوجات وفى الطلاق « والسبب فى ذلك ناشىء من ازدياد بأساء الفلاح أكثر من نشوئه من انتشار المدنية » . هكذا قال لنا أحد موظفى الاقاليم ، ولهذا لما كانت مصر السفلى أكثر ثراءا فانه يشاهد فيها التعدد أكثر منه في الصعيد . وللتطليق يكفي أن يعيد الزوج ثلاث[1] مرات عبارة التسريح : الطلاق ، ولا شيء أسهل من هذا ، ولكن لما كان ينبغى أن يضمن الزوج نفقة الزوجة المسرحة وأن يدفع مهر بديلتها ، فان الفلاح يظل فى أغلب الاحايين بزوجة واحدة

ينبغى الانتباه ايضا الى اعتبارات أخرى ، فالاحصاء يثبت بالنسبة لى الاهلين القرويين رجالا بمقدار النساء تقريبا . ففى سنة ١٩٣٧ كان فى مصر كلها ٧٩٤٧١٩٣ رجلا مقابل ٧٩٥٧٣٣٢ امراة . وبما أن الكل يتزوج . .

وفوق ذلك فنحن نعتقد أن القانون الطبيعى والتأثير المسيحي الذى تمثله الاسرة القبطية يقاومان التقاليد الاسلامية .

---

(١) ليست اعادة لفظة الطلاق ثلاث مرات ضرورية لتحقيق التسريح ، وانما يكفى النطق بها مرة واحدة ؛ أما هذا التثليث فهو يحول دون عودة المرأة الى عصمة زوجها حتى تتزوج بغيره « المترجم »

وأخيرا ان سني العمل والبأساء (١) الممضاة مشتركة ، والاطفال وإدارة الزوجة الجيدة تخلق ارتباطا هو من الوجهة العملية غير قابل للانحلال .

هل يمكن التحدث عن الحب ؟ ان الجاذبية الجنسية والرغبة فى الإنسال تبدوان فى المحل الاول .

ان مزاج الفلاح – وعند المرأة أشد منه عند الرجل – هو حاد وشهوانى بشكل خاص ، والفلاحة المستمتعة عادة بصحة أحسن من صحة الفلاح الذى تضعفه البلهارسيا هي أصغر منه سنا ، وهى – منذ العصور الأثرية ورغم الاسلام –(٢) حرة في تصرفاتها .

تتطلب منها تقاليد القرية تحت عقوبة الموت أن تحمل الى زوجها جسما طاهرا ، ولكن روحها تكون على غير ذلك منذ وقت طويل ، فهي منذ الطفولة تعرف وترى الصلات الزوجية بين والديها ، إذ أن الاختلاط مألوف بسبب ضيق المكان وفقدان الحياء ، وأن محادثات الفلاحات حتى أمام صغيرات الفتيات تدور دائماً حول هذه المسائل ، وقد يكون ذلك دون رذيلة ، ولكنه أيضاً دون تحفظ ، وهن يتبادلن وصفات وطقوساً لكي يرقن أزواجهن ، أو يحتفظن بهم .

وكذلك الرجال من جانبهم – وإن كانوا أكثر تحفظاً ولكنهم ماديون جداً بسبب حياتهم نفسها – لا يفهمون إلا الحب البدنى ، وهم يلقون بأنفسهم إليه في بساطة ،

---

(١) قد نوه حضرة صاحب المعالى عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية بهذا فى جريدة ( البروجريه اجيبسيان بتاريخ ١٣ مارس ١٩٤٣ ) اذ قال : ان اختلاط المسلمين بالاقباط فى مدن وقرى الصعيد قلل الطلاق اذ دهش المسلمون حين شاهدوا عـدم الطلاق بين الاقبـاط المحيطين بهم ، وأعلن أن بلدته ( ابوقرقاص ) – وثلاثة ارباعها من الاقباط – لم يحدث فيها طلاق واحد من عشرين سنة وكذلك مديريتا المنيا واسيوط عدد الطلاق فهما قليل وقليل جداً

( ٢ ) لم يضايق الاسلام المرأة فى تصرفاتها وانما منحها الحرية ما دامت فى حدود الأدب والاحتشام . « المترجم »

كل مع زوجته . يقهرهم على الأمانة قانون القرية أكثر مما تقهرهم عليها الفضيلة ، إذ أن الزنى يغسل فى الحال بالدم ، وكذلك تضطرهم إليها الفاقة ، إذ أنهم لا يستطيعون اصطحاب فتيات اللذة .

لا تدوم نار الهوى طويلا ، فالفلاحة تفقد فتنتها فى الثلاثين ، ولكن الأولاد الذين أنجبتهم لزوجها يربطونه بها ، اذ كل منهما يجعلهم فوق كل شيء . . فأما هي ، فلكي تنال اعتباراً اجتماعياً ، لأن العقم وضاعة ، وهو أوفر الأسباب جلباً للطلاق (١) أو لتعدد الزوجات. وأما هو فلكي يفوز بمعينين وخلفاء يسمحون له بالراحة وباصدار الأمر .

وهكذا كان النسل كثيراً ، فالأسر ذوات خمسة أطفال أحياء - وذلك يتطلب وضع ثمانية أو عشرة - هى أكثرية وبقدر ما يكبرون تنال والدتهم من الأهمية .

وأخيراً إن الذى يربط الرجل بالمرأة هو مهارتها وسلطتها اللتان تفوقانه غالباً « ان الرجل نهر والمرأة جسر » . ( مثل فلاحى ) .

بعد زواجها بخمسة عشر يوماً والى أن يبلغ ابنها الأكبر خمسة أعوام هى دائما فى موسم القطن تساعد زوجها فى الحقول ، ولكنها - على العكس من القروية العلوية - لا تقوم بالعمل الضخم .

هي فى أغلب الأحايين مشغولة في منزلها وذلك حسبها ، لأنها طحانة وخبازة ، وهي تطعم وتحلب الجاموسة والماعزة وتعنى بالطيور وتعد السماد والوقود ، وتخيط وتغسل الملابس أو تتفلى فى جماعة .

---

(١) فى سنه ١٩٣٤ كان من بين الـ ٣٢٧٨ طلاقا ٢٣٩٦ قد فرقت بين ازواج بدون أولاد . وفى سنة ١٩٤٢ بلغ عدد الطلاق ٦٨٠٥٥

إنها تذهب وتجيء حرة فى حدود التقاليد القروية ، فهى لا تختبيء من الرجال كالثرية أو كالحضرية ، ويجب عليها أن تحمل الطعام ( الفطور ) الى زوجها الذى يشتغل هناك ، وتعود بأرواث الجاموسة وأن تذهب لاحضار الماء عدة مرات فى اليوم ، والى السوق لتبيع بيضها وزبدتها وطيورها وتشترى الزيت وما شاكله ، وهنا تلين الشدة القرآنية [١] أمام الضرورة والتقاليد .

تحتفظ الفلاحة بملكية الأثاث الذى أحضرته يوم زواجها وبثمن ما تبيعه . هى تدخر وتعير زوجها ، وهذا يعطيها شيئًا من السلطة . وإذا اضطهدها زوجها فانها تنسحب الى منزل والدها ثم تضع لعودتها شروطًا كفستان أو قرط . . . إن حاجتها الى زوجها أقل من حاجته إليها .

منذ سنتين فى أثناء الاستيلاء على الرجال لمواجهة خطر الفيضان كانت امرأة تولول فقلنا لها : لا تحزنى فقد أخذ منك زوجك وسيرد إليك . — ليس زوجى هو الذى أبكيه ، وإنما هى جاموستى التى لا أجدها ابحثوا لى عن جاموستى .

تستمتع الفلاحة بهذه الحرية وتلك السلطة ما دام لديها من الحكمة ما يجعلها لا تخرج على التقاليد ، إذ هنا يسترد الرجل سيادته فهى تموت ولاتدع نفسها للطبيب يفحصها أو يعالجها. هي تخرج وتتحدث مع رفيقاتها كما تريد ، ولكن الويل لها إذا فوجئت في رفقة رجل أو منفردة فى مكان لم تتعوده . وإذا هوت فى الإثم فان زوجها يتهمها أمام والديها ، وإذ ذاك يتعهد أبوها أو أخوها أو ابن عمها بقتلها . وجرائم القتل بسبب العرض التى هى لا تزال مألوفة إلى حد كبير والتى هى محبذة من

---

(١) لا نرى ان هناك شدة قرآنية تلين أمام الضرورة فى هذا الصدد ، اذ الاسلام الصحيح لا يقهر المرأة على القبوع فى بيتها ، بل هو يبيح لها المساهمة فيما تستطيعه من الاعمال ان لم يوجبها عليها « المترجم »

الإسلام [١] ان لم تكن من أوضاعه ، تلقى رحمة العدالة الرسمية . وقسوة العقوبة هنا لا يعوزها التناسب مع الخطيئة فحسب ، ولكن مع تربية المرأة على الأخص . وهاك مثلا من بين مائة ( ٣ مارس سنة ١٩٣٧ ) .

بينما كان محمود احمد عبد الله مغادراً قريته القريبة من نجع حمادى متجهاً الى الحقول كعادته ، إذ علم فى الطريق أن شقيقته الأيم البالغة من العمر ٣٥ سنة قد أغواها رجل ، فلما سمع هذا النبأ عاد فوراً الى القرية وتوجه الى منزل أخته ، وعلى أثر ذلك ودون أن ينبس ببنت شفة قبض على فأسه الذى كان معه وهوى به على جمجمة تلك التعسة فحطمها . ولما انتشر خبر الجريمة ، اتجه مأمور المركز ووكيل النيابة ومفتش الصحة الى موضع الحادثة ، وقد ترك المتهم نفسه لرجال الحفظ يقبضون عليه بدون مقاومة ، وقدم هو نفسه الآلة التى استعملها فى قتل شقيقته . وبعد أن اعترف بجريمته أعلن أنه قد أراد الانتقام لشرف أسرته .

يمكن أن تدير المرأة المنزل إدارة واقعية ، فهذا يتجاوز عنه ، ولكن الويل لها عندما تقصر فى احترام زوجها كأن تمشى أمامه حين يذهبان الى السوق ، أو أن تجىء لتكلمه أو تتحادث بصوت عال بينما هو يتحدث أو يلعب مع رفاقه ، هو لا يدعوها ألبتة باسمها ، ولكنه يقول لها : ( يا مرة ) ، أو يا بنت ، أو يا أم احمد مثلا ، وهو يظهر أنه هنا الرئيس بتصنعه احتقارها ، وبعدم ابداء أى حنان نحوها . وبقدر ما يتقدم فى السن يتطلب الاحترام ويكتفي به . ولقد قال لنا أحد الفلاحين :

« ان زوجتى أنجبت لى عشرة أولاد ، عشرة أولاد ليس بينهم واحد أحول

---

(١) لا يحبذ الاسلام جرائم القتل الفردية بسبب الاعراض ، وانما هو يعذر مقترفيها فيخفف عقوباتهم ، أما رجم الآثمة المحصنة وجلد الغير المحصنة فامرهما موكول الى الوالى لا الى الافراد ، وهو فوق ذلك لا يبيح العقوبة الا بعد تحوطات صارمة « المترجم »

ولا أعمى . . هم يحيطون بى فأحس أنني عظيم ومحترم . وبفضل أمهم لم تقدهم أقدامهم قط الى طرق العار . انها تمسح لهم المخاط وتنظفهم وهي توصيهم دائماً أن يقبلوا يدى عند عودتى من الحقل ، وان ينهضوا إذا كانوا جالسين عندما أدخل الحجرة وألا يدخنوا أمامي ، وأن يبدءوا بتقديم الطعام إلىَّ .

إن الفلاحة التى يمكن أن تكون أمّاً من الرابعة عشرة إلى الخامسة والأربعين تضع حملها كأبسط ما يكون فى العالم جالسة على طريقة المصريات الفرعونيات ، والطوارىء السيئة نادرة .

ولكن هذا الحادث يجب أن يسبق ويلحق بكثير من الأعمال المعدة لضمان أكبر قدر ممكن من الصحة والسعادة للطفل وفيها الاحتياطات السحرية تفوق كثيراً العنايات الصحية ، والأم مقتنعة بأن جميع ما ستنظر إليه بانتباه أو تشتهيه بقوة أثناء حملها سيؤثر في الطفل الذى سيولد. ولهذا هي تتجنب أن تنظر الى متوفى ، وهى بالعكس تحدق الى صور حسان الرجال ، وهى صور « ايبينال » أو المجلات المصورة التى تلصقها على الحائط . و ينبغى ان تستطيع أكل مايعجبها . فاذا حرمته ، فان الوليد سيتأثر بنتيجةذلك تأثراً سيئاً

على أثر ولادة الطفل يوضع فى ( مقطف ) يستعمل كمهد له. ولا يحم قبل اليوم السابع .وهذا الاحمام الأول فيه معنى التطهير. وتقوم به القابلةبوساطة إبريق يستعمل خصيصا لهذا العمل . وهو يختلف فى حليته تبعا لكون الطفل ذكرا أو أنثى.وكذلك حسب مايكون غلاما أو فتاة تلحق الأم نجاسة شرعية إبان ٤٠ أو ٣٠ يوما . وهى عادات اسلامية (١) تجدها فى المغرب .

---

(١) يريد المؤلف ان يقول انها عادات شائعة فى البلاد الأسلامية ، اذ الاسلام نفسه لا يفرق بين النفساء فى أنثى والنفساء فى ذكر « المترجم »

اذا كان الوالد فى وقت الوضع يعمل فى الحقل وكان الوليد ذكرا ، فانهم يسرعون بنقل ذلك النبأ السار اليه . وهنا يكون للرسول الحق فى هدية ، وهذا التقليد يذكرنا بأحد نصوص «جيريمى» وهو : «. . . لتسقط اللعنة على الرجل الذى حمل النبأ الى والدى قائلا : إن ابنا قد ولد لك وغمره بالسرور . . . ليكن ذلك الرجل . . الخ » . ( ٢٠ ، ١٤ - ١٨ ) .

وعند مايولد الطفل تعلق خرزة زرقاء فى عنقه لتجنب الحسد ، ولنفس الغاية يخفى الغلام الذى يتباهى بجماله تحت ملابس فتاة الى الفطام ، وأمه ترضعه إبان عامين على الاقل مكثرة رضعاته بدون تبصر ، وهذا يحدث التهابات فى المعدة والامعاء . نحن نشاهد نفس هذا التعيين فى مدة الرضاع عند قدماء المصريين وفى أفرقيا السوداء وفي أوامر القرآن ، « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » ( سورة ٢ آية ٢٣٨ ) . تعتقد الفلاحات أنهن بتأخيرهن الرضاع على هذا النحو يطلن مدة عدم الحمل .

وعند مايجب أن تخرج ، وهذا لايتأخر كثيرا ، تحمل الطفل على كتفها كركوب الحصان ، وذلك لايمنعها من أن تحمل فوق رأسها (البلاص) مملوءا ماءا ، وحينما تعمل فى الحقل تترك وليدها على الارض بالقرب من الطريق المتغلغل فى الزراعة تحت ظلال حطب الذرة ، وهو ليس دائما فوق قطعة قماش ، هو يتدحرج فى شق المحراث ويحمل الطمى الى فمه ، ويصيح وينام ويتعود . واذا بكى كثيرا فان كل أم تمر من هناك تعطيه ثديها .

يظل الطفل في المنزل الى مناهزة العام الخامس ، فيتعود سريعًا على إلفة الحيوانات التى تعيش فيه ، ثم لايلبث أن يصير فى حالة تمكنه من الانشغال بها كأن يعرف كيف يقود الحمار الى الحقل ، والجاموسة الى القناة ويركب فوق ظهرها ، ويثيرها فى دوران الساقية ويعرف كيف يصيح لذود الطيور السارقة ، ويقذفها

بالحجارة ، ويجمع القطن ، بل يبذره ، وهو لايفعل كل هـذا دون أن يتلهي كثيرا ولا تعوزه الرفاق ، فطول النهار بينما يكد الرجال فى الحقول ، وتعمل النساء فى المنازل أو فى القناة تكون القرية للأطفال ، وهم الذين تقع عليهم عين الداخل قبل كل شيء : يعبثون عراة فى المستنقع ، ويتعلمون السباحة ، وبطونهم كبيرة مستديرة ، لأنهم يأكلون من كل شيء . هم يلعبون فى التراب لعبة النحلة بالبصل ، ويقفز كل منهم على رجل واحدة ممسكا بإبهام رجله الاخرى ، ويرمون بالنبلة قاصدين نخلة أو طائرا . وفيما بعد يلعبون (السيجة) وهى أحجار صغيرة يضعونها فى ٤٩ مربعا يرسمونها على الرمل .

وحوالى السنة السابعة يدخل الختان الفلاح الصغير فى طبقة الرجال ، وبعد ذلك ينبغى أن يذهب الى المدرسة الالزامية فى الصباح على الاقل ، إذ أن والديه مضطران إلى إرساله اليها تحت تهديد عقوبة غرامة قدرها ٢٥ قرشاً ( و ٥٠ قرشاً إذا تكررت المخالفة ) . يوجد بين الفلاحين خمسة وتسعون فى المائة أميون ، وتريد الحكومة أن تمحو هذا العار في الجيل المقبل . قضى دستور سنة ١٩٢٣ بالتعليم الالزامى ، ولكن التطبيق لم يتعقب فيه إلا منذ سنة ١٩٣٥ . تعددت المدارس القروية وبنيت تدريجياً مؤسسات فى كثير من القرى وأرسل اليها مدرسون . وفى كل عام تجد بعض القرى ـ التى لم تر المربين فيما تعى ذاكرة الانسان ـ نفسها مزودة بطائفة من المعلمين ، وهكذا سيكون في سنة ١٩٤٦ - ٤٦٠٠ مدرسة أولية مجانية ، وسيتلقى جميع أبناء الاهالى التعليم ، ولكن الوالدين لايفهمون هذه الحداثة . ولما كانوا معتادين على غير هذا الطغيان ، فانهم لايذعنون له . وهناك صعيديون من عزبة بولكان التابعة لمركز طوخ عندما وجهت اليهم مخالفات ، لانهم لم يرسلوا أولادهم إلى الدروس الالزامية في المدرسة الاميرية هاجموا المدرسين وجرحوهم ، ذلك لانهم لايشتغلون إلا قليلا جداً بالتعليم ، وانما هم يريدون أن يعينهم أولادهم ، وأن يدروا عليهم ، وفوق ذلك فإن

منهج الكتاتيب لايزال يحيا في كثير من القرى : مدرس أعمى جالس على الارض يجمع حوله بضعة أولاد ، وهذه الطريقة لاتكلف كثيراً وهي تظل ساعتين أو ثلاثا في اليوم أثناء ستة شهور من العام . وفي مدى ثلاثة أعوام يحفظ الفلاحون في ذاكراتهم وبضربات العصى قليلا من القرآن . وفي مقابل عناء ( الفقى ) يتسلم رغيفين أو قرشاً من كل تلميذ في الأسبوع . ومنذ الآن حتى البنات الصغيرات يجب أن يتعلمن، ولكن بعد الظهر . وفي الصباح يساعدن أمهاتهن و يقمن بإحضار مايلزم من الماء ، وهن يحاولن أن يحتفظن باعتدال ( البلاليص ) الصغيرة التي توكل اليهن . وعندما يكبرن يستطعن أن يحملن على هذا النحو ٣٠ لتراً من الماء . وهن مكلفات على الأخص بجمع كل الأرواث والقمامة التي يمكن أن تستعمل في المنزل أو في الحقل و يصنعن ( الجلة ) : فبقليل من الحمأ والقش الناعم وكثير من الروث يؤلفن نوعا من الملاط يعجنه بأيديهن وأرجلهن ثم يصنعن منه كرات يبسطنها على شكل أقراص ، قطر الواحد منها ٣٠س م وهذه الاقراص تصف في الشمس على الارض أو تلصق على الحائط ، فإذا جفت كدست على السطح وهي فحم الفلاحين[١]

هن يتلهين بلعب قماشية كدمى ، ولكنهن غالباً إلى الثانية عشرة يختلطن بألعاب الغلمان ومشاغلهم . وأحيانا منذ السنة الثامنة إلى زواجهن يلحقن بخدمة السيدات الثريات (الهوانم) .

يمكن الاعتقاد بأن هؤلاء الاطفال الذين يعيشون في قطيع ، والذين يبدو أنهم مهجورون ، والذين ليس لهم إلا أسماء شخصية هم ينتسبون إلى الجماعة ، وان إهمال

---

(١) هذا النوع من الوقود هو زراعي بحالة جوهرية ، وهو مستعمل في أكثر الجهات اختلافا أي في كل مكان يضطر فيه نقص الخشب وقلة السعة الأهلين الى اللجوء اليه . وهكذا يفعل الريفيون الصينيون وريفيو فرانسا في اكثر من موضع .

والديهم اياهم وتركهم جهلاء يشعر بأنهم لايكترثون بهم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فوالدوهم يحبونهم إلى حد الجنون وأكثر كثيراً مما يحب بعضهم بعضا . وليس بين هؤلاء - كما في الصين - يجد المرء أطفالا يشتريهم ، والملاجىء ومأوى الايتام هنا عبث تماما ، وكثير من المنازعات بين النساء ، والمشاجرات بين الرجال تحدث من الافراط فى حساسية أحد الآباء أو إحدى الامهات : إذا أساء أحد معاملة ابنهما أو ضربه فان هذا يكفي لان يشمخا مفترسين ، وأن يخرجا ابنهما من المدرسة وينتقما له فى وحشية ، وان كان ذلك لايمنعهما من استعمال الشتائم والضربات «لتكوين» وارثيهما . وكذلك الاطفال هم مرتبطون جدا بوالديهم ، وليس ارتباطهم بأمهاتهم أقل منه بآبائهم وهو ارتباط يبدو أنه ناشىء من تقاليد اجتماعية ودينية ، ومن الخوف والسمعة أكثر من نشوئه من العاطفة .

ومع ذلك فحب الابن لأمه - ولو كان شاباً ومتزوجا - هو العاطفة الأكثر جدارة بالملاحظة فى الأسرة الفلاحية . واذا نقص احترامه إياها كان منبوذا من القرية كلها ، اذ : « الجنة تحت أقدام الأمهات » . وفي بيته الخاص هى التى تحكم مادامت حية ، وهى نفسها تميز به فتدعي : أم على مثلا .

تؤلف هذه الصلة الرابطة الأسرية الاكثر متانة ، وهى متانة حالية كلها ، لأن سلسلة الأسرة فيها غير معتبرة . فالاسرة القروية هي بدون أجداد ، وبدون اسم عائلى ، وبدون خصائص ، وبدون استقلال . وفي هذا أيضا هى تفترق عن الاسرة الصينية التى تشغل فيها عبادة الاجداد وشرف الاسم مكانا عظيما .

وهنا تتلاشى الخلية الاسرية فى جماعة الاقارب والاصهار الأقربين والأبعدين ، وهذه هى الاسرة بالمعنى الاجتماعى أى التى تحت سلطة عميدها تشترك فى الجنائز والاعراس ، وتحتضن أحقاد كل عضو من أعضائها وتنتقم لشرفه ، وتلك صلة وقتية تماما ، إذ أنها فى مدى ثلاثة أجيال لاتعود تعرف .

وهكذا ليست الاسرة التى تقطن المنزل بأ كثر منه فى تأليفها كلا متماسكا . وكما أنه لاتوجد حياة أسرية لانه لايوجد منزل مريح ، كذلك لاتوجد أسرة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لانه لايوجد رابط عميق .

الأسر هى جماعات تعمل في الارض ، والاطفال يولدون للعمل فى الارض ، والحياة الخاصة تتتابع في إطار من التقاليد التى تربطها بالأرض .

# الفصل الثامن

## التقاليد الريفية

هناك تقاليد وأفعال وطقوس ينقلها الناس من جيل الى جيل دون أن يحكموا عليها ولا أن يتدبروها ، بل ولا أن يفهموها . (١)

تقاليد ريفية تبين لحمة القروى بالارض وقرابة الجماعة الفلاحية مع الماء والحقل وثمارهما .

هذه الصلة العميقة قد بدت لنا واضحة بعد أن رأينا عمل الفلاح وجسمه ومسكنه وقبل أن ندخل في دراسته النفسية (فى الفصل الآتى) ولكى نفهمها جيدا يجب أن نعرف بعض تصرفاته الريفية ، وهي توجد في كل لحظات الحياة الاجتماعية ، وهي ليست اعتقادات خرافية فقط ، ولو أنه كان يجب علينا أن نوضح أصل كل واحدة من هذه العادات المتبعة ومعناها لتحيرنا كما يتحير الفلاحون أنفسهم ، ومع ذلك فانها تنتزع منها فكرة عامة ، وهى فكرة صلة غامضة بين الطبيعة والانسان . ففى اللاشعور عند ذلك الذى يكرر تلك العادات يلمح المرء الإحساس الفطرى بالانتساب الى الارض ، وهذا الاحساس قد ساهم كثيرا فى ركود العالم الفلاحي .

يلاحظ المرء عند الفلاحين احتراما عظيما للماء ، والماء الآتى من النيل ، ولكى لا ينتزعوا منه حياته لا يرشحونه ، وهم يقدمونه الى المرسل الدينى (٢) الذى يمر بهم

(١) سليم حسن ، « العادات المصرية الباقية الى الآن فى مصر الحديثة» نشرة جمعية أصدقاء الفن القبطى ، المجلد الثانى سنة ١٩٣٦ ص ٤٧ - ٧١ .

(٢) هذا تقليد خاص بالمسيحيين «المترجم»

ليباركه ، و يقدمونه كمشروب مألوف ومحبوب . هم لا يحتاطون من الماء ، ولا يميزون منه ماهو للاستعمال الداخلى مما هو للاستعمال الخارجى ، فكل ماء حسن كالنيل الذى يأتى منه .

يمر عيد عروس النيل (عيد الخليج) عند تمام وفائه فى القاهرة ، ولا يساهم فيه الفلاح ، ولكنه يشعر أكثر من جميع الحضريين بأن النيل ذكر حى . يجرى النهر دائما في أفقه سواء أكان ذلك بالقرب منه أم على بعد كأنه خيط ، وهو يلجأ اليه أكثر مما يلجأ الى بنى الانسان ، نعم هو لا يتوسل اليه كما كان أجداده يفعلون ، ولكنه يعيش في صحبته ، بل يمكن أن يقال : إن حبه فى دمه .

توجد بين النيل والفلاحين نفس الصلة المتينة التى توجد بين المحيط وسكان شواطىء بريتانيا الفرنسية . أ يدعونه بالبحر ؟ ألا يدعون حقولهم بالشواطيء (الارياف)؟. انهم يربطون بزيادة النيل فكرة الخصوبة للنساء ، والصحة للرجال ، فيحتفل بالزواج على التفصيل فى ذلك الموسم . وعندما يكون الطفل نحيفا أو مريضا تحمله والدته الى النيل فى ذلك الحين أيضا وتجعله يلقى فطائر وتمرا الى الموج الطامى بينما هو يكرر قوله : «يا نيل اجعل قوتى تزيد كقاعك» . والفلاح المحتضر قبل أن يلفظ نفسه الأخير يسقى جرعة أخيرة من الماء الحى .

« تكرم يارب وبارك مياه النهر في هذه السنة ، واجعله بفضلك يصل الى الارتفاع الموافق ، ومتع وجه الارض بأن تكون حقولها مروية ، وغلاتها متضاعفة» (قطعة من القداس القبطى ) .

إن طمى النيل يساهم أيضا فى عادات الحياة والموت ، فالفلاحة قبل وضعها تتحامل على نفسها الى شاطىء الماء وتأخذ قبضة من الحمأ وتبتلعها أثناء الولادة لتفوز بوضع سعيد .

وعند ما يحلق المزين شعر الطفل للمرة الاولى ، فان شعر هذه الحلاقة الطقوسية لا يطير فى الريح ، وانما هو يوضع فى كرة من الطين و يلقى فى الماء . .

وللتدليل على الألم تطلى الباكيات بالطين صدورهن ورؤوسهن وأذرعتهن . وجثمان المتوفى يوضع فى الأرض بدون تابوت ولا ملابس .

يخفى الفلاحون فى الارض القدور التى تحتوى عل مدخراتهم وعلى الطلاسم السحرية التى يجب أن تعمل عملها ، وكل ولادة تطبع الارض بطابعها : فالمشيمة تدفن فى المنزل ، وحبل السرة يوضع فى كيس مع حبوب من الغلال ويغيب فى حقل الأب .

تمتزج ثمار الأرض أكثر من هذا أيضا بذلك التنسك القروى ، فالتشابه بين الحياة النباتية وحياتهم الجسمانية الخالصة يحملهم على الاعتقاد بوجود تأثير بين هاتين الخصوبتين ، واحتفال اليوم السابع ( الإحمام الاول ووضع الاسم ) يحتوى غالبا على التقليد الآتى : تحمل الى الحجرة ثلاث قفف مملوءة بالحبوب المختلفة ، احداها مغطاة بغربال ، فوقه يرقد الطفل ، وفى ساعة الإحمام تهز القابلة الغربال كأنها تغربل الطفل والحبوب فى آن واحد ، ثم تعيد الحبوب الى القفة وتلف الوليد وتنثر فوقه بضعة حبوب .

بنفس الكلمة التى يعنين بها حجب الأطفال عن الرضاع وهى الفطام ، هم يعينون المرة العاشرة والاخيرة من سقيات الذرة ، وفى ذلك اليوم تقدم الفطائر الى العمال على نحو مايقدم الى الام عند الرضعة الاخيرة .

توافق جمع الغلة دائما إشارات رمزية ، فقبل بدء الحصاد تصنع من أحسن السنابل دمية تدعى : ( عروس القمح ) وتظل معلقة في المنزل الى السنة التالية كمجلبة للسعادة .

وكذلك لوصل الحياة يخلط أحسن الحبوب ببذور الغد . وفى ( الجرن ) يدس شيء من الخبز في الكومة المراد تذريتها وغربلتها .

« كنت أدخل المنازل وأبارك الماء والخبز والقمح : فالماء كانوا يشربونه ويرشونه على أنفسهم وعلى مواشيهم وفي منازلهم ، والقمح كانوا يلقونه فى حقولهم ، والخبز كان لابد لى من أن أكسره وأذوقه . وعلى أثر ذلك كانوا يحفظونه فى مدخرهم ليباركه الاله » . ( تقرير مولاى خزام نوفمبر سنة ١٩٣٧ بعد زيارته الأسقفية ) .

يشع سرور الغلة على الذين لم يزرعوا ، ولكنهم يشتغلون فى القرية للجماعة . فمن التقاليد أن تقدم طليعة الإنتاج إلى قارىء القرآن ومؤذن المسجد والحلاق و ( فقى ) الكتاب والنجار . كل هؤلاء يأتون ليبحثوا عن حزمهم ثم يلتقط الفقراء سنابلهم .

أما جنى القطن ، فهو لامحل فيه لأية مراسيم [1] ، وقد يكون ذلك لأنه نبات أكثر حداثة ، وقد يكون لأنه زراعة رأسمالية لاترمز إلى القوت ولا إلى الحياة اليومية .

وعلى العكس من ذلك النخل الذى هو قديم بقدم مصر الزراعية يدخل فى جميع أوقات الحياة القروية ، فالظلال والسقف والأسرة والأقفاص والحبال والمكانس ، كل هذا من تلك الشجرة . وقد رأينا السعف يزين هودج العروس والقبر .

وفى صبيحة الزواج يجرد الزوج سعفة من خوصها ، ويشقها من طرفها ويذهب

---

(١) ومع ذلك ففى التينيسيه بالولايات المتحدة مثلا يوجد عيد القطن فيه تنتظم مواكب وصفوف من المركبات مدى أربعة أيام من شهر مايو فى مدينة منفيس . وأول هذه الاعياد أقيم فى سنة ١٩٣١ . ولقد صار ( كرنفال ) القطن سريعا احد متع امريكا الاكثر شعبية . راجع المجلة الجيوغرافية الاهلية مايو سنة ١٩٣٩ ج . بيلور . لوحات تينيسيه .

إلى أصدقائه فيمسهم بها ، ليحمل إليهم السعادة ، فضرب الرجل بجريدة خضراء بركة ، والسعف هو زهور الفلاحين ، إذ لا يوجد موكب حفلة ولا حداد بدون مساهمته ، وتناول طلع ذكر النخل ممتزجا بالماء شراب سحرى لإزالة العقم ، وعلى الضد من ذلك ابتلاع نواة أو اثنتين أو ثلاث يمنع الحمل سنين بقدر عددها .

يختلط السحر بالطب فى الاستعمال التقليدى لمنتجات الأرض لأجل حفظ الصحة أو إعادتها . وقليل من التجارب وكثير من الخرافات يوضحان تلك المجموعة المدهشة من الوصفات والتعويذات الموجودة لدى الفلاحين . إنهم قد كونوها مما تحت أيديهم فنقيع خوص النخل أو ورق الذرة لاضطراب الأمعاء ، وعصير البصل وفحم حطب القطن للأعين ، وصمغ السنط للعظام المكسورة ، وأربطة القنب للأورام والروماتيسم وهكذا يتعلق العلاج كما ترى بالكفايات النباتية . ونحن نضيف إلى ذلك أن نتيجته تتعلق فى جزء كبير منها بالتصديق . تمتد الخرافات إلى كثير من تلك التقاليد الغير المؤسسة على العقل والتى هى صاحبة السلطان . ولكى يصف المسيو «بلاكمان» صورها الكثيرة هو يخصص لها أكبر أجزاء كتابه[١] كما لو كانت كل حياة الفلاحين تتتابع فى هذه المنطقة الخارجة عن العقل . يخيل الينا أن الكتاب يلحون أكثر من اللازم على خرافات الفلاحين . هم يعددونها برخاء . وعلى الرغم من كل مانشر فى هذا الصدد لم تغلق الدائرة . فما الفائدة من إغناء المتحف بها . انه ليس متحفاً مبتكراً ، فكثير من هذه الطقوس عام فى الشرق أو فى الاسلام[٢] وأما الأخرى التى تصعد فيما وراء المسيحية إلى مصر العتيقة فهى تنم عن الركود الذى رسمنا هيكله .

انه من المحقق أن هذه العادات الشاذة تبين عزلة الفلاحين أكثر مما يبينها نوع حياتهم ، وتولد ذلك المنعزل الذى « يصنعه الانسان لنفسه بكل ما يكدسه فوق

---

(١) أنظر الكتاب المذكور فى المصادر .

(٢) يقصد البلاد الأسلامية لا الإسلام نفسه . « المترجم »

منتجاته » . الى ذلك النوع من الحياة الذى يدفن الفلاح بالفعل ، هو يضيف أثقال تقاليده الدينية .

فى احترام الماضى الذى يتدثر بالغموض - بسبب جهل الفلاح - قد تكوّن حاجز هو يعتبره غير قابل للتحطم ، حاجز يحتفظ بالافراد ويؤيدهم ، ولـكنه فى الوقت نفسه يخنق حريتهم وابتكارهم وينيم عقولهم الى حد أنهم لايعرفون كيف يميزون الجوهرى من الطفيلى .

ومع ذلك فهذا العماد الداخلى مهما يكن منتشراً لا يؤلف كل نفسية الفلاح ، هو حد الضواغط التى تنوء عليه : كضاغط الأرض وضاغط الأحياء ؛ سيئاته عظيمة ، أولـكنه لايهدم روحه أكثر من ذينك المشوهين الآخرين . . .

# الفصل التاسع

## نفس الفلاح

لا يعيش الجنس القروى الا من نفسه . هو ينمو كالنحل مؤسساً مأوى جديدة، ولكنه لايتلقى أى عنصر أجنبى ، وفى هذا قوته وضعفه ، اذ المرء يولد قروياً ، ولكنه يصير عاملا ، وهنا يقدم فعل البيئة أى فعل الداخل استمرارا يستحيل عليه ألا يترك أثره ، لافى جسم من يعيش فى تلك البيئة فحسب ، بل فى نفسه أيضا .

هذه البيئة نحن نعرفها ، وهى وادى النيل وخصوبته ، والنظام الاجتماعى وضغطه. تستعبد مطالب أحدهما والآخر الفلاح ، فحياته تبعية : تبعية للأرض وللأشياء وللأحياء وللأموات ، يطيع الفلاح دائما كأنه طفل قاصر ، وفى هذا المظهر - على ما نعتقد - يرتسم خط مزاجه .

ومهما تكن الدراسة النفسية العامة جد وعرة وجد جامحة الى التعميم المغالى ، فاننا نستطيع مع ذلك أن نقدم فى شىء من التأكد الخصائص الأساسية للروح والطبع الفلاحيين . إن العوامل العامة والبلد والجنس والدين والحالة الاجتماعية ونوع الحياة ، وبالاختصار : كل تلك الوحدة التى رأيناها فى الفصول السالفة تسمح لنا بأن نعبر عن نفس الفلاح بصيغة الإفراد .

سيكون من السهل ، ولكن من العسف أن نحكم عليه من وجهة واحدة كما يحكم عليه سادته ، اذ يقولون لنا ما يلى :

« الفلاح كسول ، وكل مجهود بدنى يشق عليه ، ولهذا هو يفضل أن يستعفى من تحسين حالته على أن يتعب . . . »

«ان الفلاح الحافظ للجميل جد نادر ، فمهما يكن الخير الذى يقدم اليه لا يوجد عنده ابدا تقريبا أقل انعطاف نحو أصحاب الأعمال ، فأمامهم يقسم الأيمان و يظهر نشيطا وعاملا ، وعندما لا يكونون موجودين يعود كسولا رخوا ولا يبدأ بأى شىء ، انه شعب جبان مستكين» .

« إن الفلاحين أغبياء وميالون الى الشر ، وعندما يستطيعون الخداع يخدعون» .

وهناك ملاك ونظار آخرون أكثر تفاؤلا ، فهم يقولون لنا مثلا :

« إن فلاحينا - تحت الظواهر المليئة بالضجيج - ودعاء ومسالمون وسعداء بحظوظهم ، ولكنهم لا يحفظون الجميل كثيرا . وفيما عدا الأرض لا يهمهم شىء» .

« إن الفلاح دائما متفائل و حافظ للجميل وعامل و وفى » .

يبدو بعض هذه الاحكام متناقضا مع البعض الآخر ، ونحن التقطناها من بين شهادات، من مصر السفلى كما هى من مصر العليا ، وهي لا تصل الى أن تكون صورة صادقة رغم حسن نية الذين ينقلونها الينا ، والسبب في ذلك هو عدم تقديرهم الفلاح.

ومع ذلك فهى حقائق تلك التى يؤكدونها ، ولكنها حقائق متحيزة وجزئية والواقع الحى أكثر تنوعا من هذا . ولقد يكون من السذاجة أن يقال — لحل تلك التناقضات الظاهرة — إن الانسان يولد خيراً ، والجماعة تصيره شريرا ، أو ألا يرى المرء الا مظهرا واحدا حسب الميل أو النفور الذى يحمله للموضوع ، أو حسب تفاؤل مزاجه الشخصى وتشاؤمه . نحن نأخذ كل شىء ، لأن كل شىء حق ، فنواتىء النفس — كمرئيات المناظير المجسمة المبرزة — لا تتضح الا بتقريب المظهرين بوساطة جمع كل العناصر .

لنلاحظ بديا - ويمكن أن يكون ذلك شيئا قد تنبىء به عن طريق الفصول السابقة - أن عمومية ذكاء الفلاح أكثر من خصوصيته ، وجموده أشد من حركته ،

وسلبيته أعظم من ايجابيته ، وإن حكمته وتجاربه متماسكة من أمثال ذات مغزى تتفصل حسب ظروف الحياة المختلفة وتعفى من التفكير الشخصى .

يحافظ الفلاح و يعيد ولكنه لا يبتكر ، والتحسنات والاختراعات المدخلة الى الزراعة أو الى السكنى مثلا لم تتأت منه ، وانما فرضت عليه فرضا . ومن كثرة القبول والتلقى والاحتمال قد هزل ذكاؤه وصار سلبيا ، ولم يعد مهتاجا الى البحث عن جديد أى الى التعرض للاخطار وتعكير ذلك النعاس الذى يقيه من التألم الزائد على المألوف (اللي تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش) أى من تعرفه خير ممن لا تعرفه .

هذا الضعف فى الشخصية وفي الابتكار يشرح بدوره فقر روح الجمال ، وعدم وجود أى فن حي عند الفلاحين . انهم غير مثقفين فى هذا الشأن ، وذلك لعدم تفكيرهم فيه وبحثهم عنه أكثر منه لانهم أميون . هم فى ملابسهم وفى قراهم وفى حقولهم موضوعات فن للآخرين ، أما هم فانهم يظلون غير مدركين لجمالهم . ومع ذلك فان حبهم للارض وميلهم إلى الحقول والقصص والالوان، وحاسة المزج عندهم كان من الممكن أن تصير تربيتهم فى هذه الناحية سهلة ، ولكن قابليتهم للحساب والإعادة والمحاكاة أكثر استعدادا ، فنحن نعرف فلاحين أميين يجرون فى رؤوسهم عمليات حسابية معقدة ويعلمون الحاسب المختص بأنه انخدع عن حسن نية أوعن قصد، وآخرين ينسخون النموذج الذى قدم اليهم بكثير من الأمانة ويحفظون زمنا طويلا جدا ذكرى كلمة أو زيارة ، أو شيء رأوه ، ولكن إذا كانت تذكراتهم ثابتة ،فان أفهامهم بطيئة .

ومع ذلك فعندما يكونون أطفالا تكون تلك الأفهام نشيطة كما يشاهد ذلك فى المدرسة وفى اللعب ، ولكنها فى نحو الخامسة عشرة تبتدىء في التثاقل . فقبل هذه السن يكون الفلاحون ذوى بداهة حاضرة ويبدون أكثر مواهب من الغربيين .

ونضوجهم قبل الأوان - وهو احدى نتائج المناخ - يمكن أن يشرح مثل هذه الميزة، ولكن ماعسى أن يشرح تلك البلادة التى لاتلبث أن تجعلهم ينكمشون، وأن تصنع منهم رغم كل شىء جنسا متأخرا؟!

لقد تحدث المتحدثون عن عدم كفاية الغذاء، ولكن النمو البدنى كان اذ ذاك يجب أن يقف أيضا، والفلاحون الشبان ذوو تكوينات فاخرة. ولقد فكر بعض علماء الاجتماع فى العادة السرية المنتشرة إلى حد فى البلاد الاسلامية (١)، ولكن يبدو ان هذه الرذيلة هى من نصيب المدن، اذ الشبان في الريف أكثر طهرا. وأخيرا قد عزى هذا التحدد إلى فعل المناخ الغير الممكن التجنب: فالغراس الذى ينبت بسرعة زائدة على الحد لايلبث أن يقف عن النمو ثم يهوى على نفسه. ولكن هناك فلاحين قد خرجوا من بيئتهم فأنجبوا منذ الجيل الثانى أطباء بارعين، ومهندسين أكفاء، أو على الأقل موظفين وتجارا يساوون موظفى الدول الأخرى وتجارها.

وإذا، فالبيئة الاجتماعية هى التى تقف بغتة ذكاء الفلاح الشاب، وهى الجهل الفظيع الذى يحوطه بمجرد اندماجه فى الجماعة، ونوع الحياة الذى يحنيه على الارض ويجعله يكرر اشارات بعينها. هذا هو السبب الذى يقف نمو العقل عنده. ان الذكاء يربو بمكتسبات جديدة، وهى لايوجد منها شىء فى هذا العالم القديم جداً، والمحافظ جدا. عالم القرية المصرية

أما النساء فهن أكثر ذكاءاً من الرجال، والسير «وليم ويلكوكس» الذى لم تمنعه مشاغله الكبرى فى الرى من أن ينظر إلى الفلاحين، يشرح هذا الفرق على

---

(١) لايجحد أحد انتشار العادة السرية فى كثير من البلاد الاسلامية، ولكن ليس هذا لأنها بلاد إسلامية، بل لأن الواقع هو ان الإسلام سائد فى الشرق، والشرق حار، والحرارة والرغبة الجنسية متلازمتان. «المترجم»

النحو الآتى : « ان الحكومة الرديئة حينما يقبلها فى شىء من السلبية رجال ميلهم الطبيعى هو النشاط ، تنتهى بأن تصيرهم وضعاء ، بينما أن تلك الحكومة نفسها إذا احتملتها سلبيا كذلك النساء اللواتى هن سلبيات بفطرتهن هى تنعطف إلى إنماء ذكائهن . ولذلك لم تكن النساء الفلاحات أكثر ذكاء من الرجال فحسب ، بل أكثر منهم جدارة بالثقة » .

هـذه النظرية قابلة للنقاش ولـكن الظاهرة التى تريد شرحها جلية ، وهى الأهمية النسائية التقليدية فى مصر

ان الفلاحة هى أكثر حيلة من الفلاح ، مع أن هذا الاخير قد فاز منها بحظ وافر . هو كـكل الضعفاء يستعمل الحيلة إلى حد الخداع . انه يعرف كيف يخفى سروره وحزنه وجريمته ، وسحنته الخالية من العلائم تقبـل ذلك إلى حد عجيب . فحينما ينحرف ، وحينما يعتمد على الزمن ، وحينما يقبل مصمما على عدم التنفيذ ، وحينما يشرح مراده فى دوران أو يفهم العكس قصدا ، هو يظهر مرونة ، لها بدون شك صورة الذكاء ، ولـكنه ذكاء فى حالته الغريزية .

يبدو أن الفلاح يعوزه المنطق ، ولـكن الواقع أن مفاهيمه مصطفة فى ترتيب ، وهو يحكم بوساطة المعادلة فأنت تسأله مثلا : «على أية مسافة نحن من قرية كذا ؟» فيجيبك بقوله : « على بعد قرش فى الاوتوبوس » .

يعرف العمدة جيدا هذه النفسية فهو يقول مثلا :

ـ يا ولد ، اذهب إلى والدك وقل له إن البيك ( أى الدائن ) ينتظره هنا ، وإذا لم يكن والدك هناك ، فقل له أن يأتى رغم هذا ، لأن البيك يعرف انه موجود .

وهنا يأتى الوالد الذى لم تنجه حيلته ، كأسهل ما يكون فى العالم .

ذلك لان الفلاح لايفكر فيما وراء اللحظة الحاضرة ، وهو مرتبط بها ارتباطا وثيقا ، فالزمان والمكان الخارجان عن الحالة الراهنة لايكاد ان يؤثران فى عقله،لانهما لايؤثران فى حواسه . انه كالبدائى وكالطفل تخضع عقليته لشعوره فتظل على مقربة من الإحساس ومن الوقائع والاشياء . لايبحث الفلاح عن العلل أو عن الآثار فى النظام العقلى ، ولكن يبحث عنها فى النظام المرئى . انه رجل الحاضر المتعاقب ،وهذا هو السر فى أنه يبدو غير منطقي ، وعدم عنايته بالمستقبل ناشىء من هذا العيب العقلى الذى يحتفظ به فقدان التربية .

هو يحرم نفسه مثلا طول السنة حتى من الضروى ، ولكن عند مايحل العيد ينفق كل شىء فى يومين أو ثلاثة أيام ذوات سرور قوى له ولأسرته : ملابس جديدة ، وموائد فاخرة وملاعب ، وبعد ذلك يستأنف حياته أشد فقرا مما كانت عليه قبل ، واذا امتلكت يده بضعة جنيهات مربوحة أو مقترضة ، وحقله فى حاجة الى التحسين فهل يشترى آلات أو سمادا جيدا لينمى إنتاجه . كلا ، وانما هو يستدين دينا آخر ، ليشترى قطعة مجاورة له ، اذ أن امتلاك مقدار أكبر هو الظهور فى الحال بمظهر المالك الأقل صغرا . وعند موعد الدفع سنرى (تفرج) . وربة المنزل لا تملأ مصباحها الا بعد أن يبدأ الليل ، والحراث لايشحم محراثه الا فى لحظة الحرث ، وهو لايدفع دينه إلا حين يجبر على الدفع ، ولايشترى البذور الا ليلة البذر ، ولا يدعو الطبيب الا في حالة اليأس . وقصارى القول : ان روح عدم العناية بالمستقبل من خصائصه . ولقد لاحظ المقريزى هذا النظر القصير فقال :

« ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر في العواقب ، فلاتجدهم يدخرون عندهم زاداً كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان الأخرى بل يتناولون أغذية كل يوم من

الأسواق بكرة وعشيا . . . قال لى شيخنا ابن خلدون : « أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب ».[١]

وفى الواقع هم لا يفكرون ولا يعملون الا حسب ماتتطلبه الحالة الراهنة ، حسب الضغط الحسي للحظة الحاضرة ، أى أن الحاضر هو الذى يحددهم اذا أمكن هذا التعبير . ولهذا هم في الوقت ذاته سريعو التصديق وحذرون ، وفرديون ومحبون للاجتماع ، وأشحاء وسفهاء ، وودعاء وسريعو الغضب .

إنهم ذوو ثقة الى حد التصديق المحير في الاشياء أو الاشخاص المقدسين الذين يستطيعون أن ينيلوهم الخير المشتهي كالنسل أو الانتقام أو الصحة ، وخرافاتهم الكثيرة، والهيبة التى يستمتع بها رجال الدين ونجاح المحتالين المرتدين ثياب النفاق هى أمارات هذه السرعة الفائقة فى التصديق .

والى جانب هذا يحذر كل منهم الآخرين عادة حتى فى أسرهم ، ويحذرون رؤساءهم دائما حتى فى احسانهم كأولئك الاطفال الذين هم غالباً مخدوعون ومحرومون والذين يكشفون لدى الغير اشتهاءه ثروتهم الصغيرة ، وهذا هو السبب الاخير فى الايمان بتأثير « العين الخبيثة ».

هذا الحذر وتلك الرهبة اللذان لهما ما يبررهما من نظام المظالم والوشايات يصيران الفلاح فرديا ويحصرانه في حياة شخصية غير قابلة للاقتحام . فحينما يدخر شيئا ، يفعل ذلك في أشد الاحوال خفاءا . واذا زاول مهمة قيمة يحتاط كل الاحتياط من أن يتناولها بالحديث ، لان الشقاء يتبع السعادة عن قرب . ولكن حينما لاتكون مسائل

---

(١) صفحة ٥٠ من المجلد الاول من خطط المقريزى .

المنافع والارض والنساء ـ وهى المسائل التى تجلب التفرقة ـ هى موضع الاختلاف تسود الحاجة ، الى الحياة جنبا الى جنب .

رأينا أن الفلاح محب للجماعة فى عمله وفي متعه وحداده ، وأن هذه الجماعية ، تتحول الى تماسك عندما يكون هناك خطر عاجل تنبغي مواجهته . وهذه الجماعية هي فى أغلب الأحايين تكون فرصة للتفاؤل والتباهي الصبيانى . فبمقدار ما كان الفلاح يدخر فى خفاء وعزلة فى منزله ، هو فى حالة انسحابه في تيار الجماعة والحفلة كالأطفال الذين لايقاومون منظر المعروضات ، هو يسرف للظهور بقدر مايسرف للهو .

هو مرح مادام أنه لايرهق نفسه بالماضى ولا بالمستقبل ، انه مرح عدم الانشغال وعدم التحدد . هو يستمتع استمتاعا كاملا بالساعة الحاضرة "carpe diem" أى استفد من اليوم الحاضر . وعندما يأتى أمر يعكر تلك الساعة ولا يكون شديد الضغط فانه يجيب عليه بقوله : غدا (بكره) نابذا بهذا التأجيل ما كان ينبغى أن يفعله ، الى خارج حدود ادراكه ومطيلا الحالة الراهنة مااستطاع الى ذلك سبيلا ، بل انه حينما يجيب ـ لوجوب التنفيذ حالا ـ بـ (حاضر أو طيب) هو يقصد تماما الا يسرع . كل شيء يأتى فى أوانه ، ومادام لايؤمل فيما هو أحسن فلماذا هو ينشط ، ان تثاقله هو ملجؤه هو (كيفه) هو هكذيته ، وهى كلمة واسعة وعميقة تحد السكون الطويل والنوم المستيقظ لذلك الذى ينشغل بألا يعمل شيئا ، وألا يقول شيئا وألا يفكر فى شىء . انه صبر من نوع فريد ذلك الذى علمته الارض إياه . ان احتفاظه بروحه كالسراج الضعيف الساهر ، وانتظاره بدون نشاط ظاهر أو إغراقه نشاطه فى حلم داخلى ، فى ذلك الترنم الذى يهدهد الشغل والروحات والجيئات كما يهدهد الطفل في مهده ، وفى ذلك البطء الذى يضعف مصادمات الرجال ، ذلك هو (الكيف) أو الاستعداد الأساسى للفلاح أو نصف الشعور الذى يقتل الألم .

لكى يركب القطار يصل قبله بعدة ساعات ، وهو يذهب الى الموعد بعده بعدة ساعات . . . أما الضبط والتحديد والإسراع . . . لماذا يحدد المرء الزمن الحاضر أو يدافعه ؟

ولما كان الفلاح يعيش بأكمله فى ذلك الزمن الحاضر ، فلم يكن معجلا ولا شغوفا بالاطلاع ولاطموحا . هو مسالم ووديع لأنه صبور ، وهوصبور لكثرة خضوعه للناس وللأشياء ، وهو بسبب هذا نفسه متثاقل على هيئة النيل اكثر منه كسولا ، وليس النشاط بالنسبة اليه احدى الحاجات ، وعقليته هى من نوع جبرى ساكن . ( هو هكذا ) .

ومع ذلك فأحيانا ومن خلال هذه الحالة التى تمنعه من أن يرى كثيرا أو يفعل كثيرا كما تمنعه أيضا من أن ينتحر ، وفى ذلك الأفق المؤلف من مزيج معرفته واحساسه تقع بغتة حادثة تنهشه ، واذ ذاك يعمل ضدها بدون تمييز ولا نسبة ، وبدون تقدير لقيمة هذا الحادث أو التفكير فى عاقبة فعله ، ولكنه يعمل حسب الانفعال الداخلى الطارىء . هل أخفى منه جاره شيئا من غلته . أو دجاجة أو إوزة ؟ هل حول ماء ريه ، أو ترك جاموسته تقضم في حقله ؟ هل أساء أحد رفاق ابنه معاملته ، أو أهانت احدى الجارات زوجته ؟ هل شنع عليه أحد بما ليس فيه أو وشى به ؟ هل تأخر صديقه فى أن يرد اليه البضعة القروش التى هو مدين له بها أو نظر الى امرأته اكثر من المألوف ؟ عندئذ نشاهد الفلاح المفرط فى احتمال عسف من هم أعلى منه ووحشيتهم يبدى تجاه نظرائه أكبر حساسية مغالية ، وهذا الحادث الذى هو فى الغالب عديم الدلالة يبدو له هائلا ويدفعه الى الانتقام ، فبقدر مايوجد من عنف فى انفعاله الذى هو آت عن طريق العدوى هو يُدفع ويقتل ، والحياة البشرية لاحساب لها . فى مصر العليا عند مايختصم رجل مع آخر يحاول أن يهاجمه فى موضع الاختصام بأية

آلة كانت ، والصعيدى يشبه البركان الذى ينفجر فى أقل الاوقات انتظارا لهـذا الانفجار .

وفى غالب الاحيان يكون الانتقام ( الثأر ) فى الخفاء ، هـو يجرى فى الليل وباحتياطات لا نهاية لها : كأن يهاجم العـدو عدوه من الخلف في حقول الذرة أوهو - دون أن يصيب شخصه - يحرق غلته أو يبعثر حبوبه فى الحقول المجاورة أو يسم جاموسته .

ان الفلاح الذى يحتمل في عمله كثيرا من الإهانة من جانب سادته لا يهاب أن يتساوى معهم فى مسائل النساء التى هى مع مسائل الارض تبسط عليـه أكبر السلطان . وحينئذ لا يكون هناك قوى وضعيف ، وثرى وفقير . إذ لا تستطيع هنا السلطة ولا المال أن يفعلا شيئا ، والملاك يعرفون ذلك فلا يستطيعون أن يتصرفوا في القرويات للذاتهم . ونحن نعرف أن أحد ( البكوات ) قد قتل على باب داره . لأنه أفسد إحدى الفلاحات .

يدل القتل والانتقام عند الفلاحين على الحـدة أكثر من دلالتهما على الشر . هما يمان عن أن دماءهم حارة ، ولـكن هذا الهياج لا يكاد يدوم ، والإذعان يسترعي انتباهنا أكثر منه ، إذ هو شيء عادى : ( طولة البال تهد الجبال ) ،

( طولة البال ماتخسرش ) .

( ياشارى الخبر بفلوس بكره يبقى بلاش ) هذه أمثلة فلاحية .

ولقد نقل المقريزى عن كعب الأحبار أنه قال :

« إن الله لما خلق الاشياء جعل كل شيء لشيء ، فقال العقل : أنا لاحق بالشام

فقالت الفتنة . وانا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر ، فقال الذل وانا معك .
وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك » .

إذعان الى حد الذلة والوضاعة ، خلقه واحتفظ به ضغط السادة أكثر مما خلقته الفاقة مثلا . ان الفلاح يعمل كأنه طفل أو بهيمة لانه يعامل كطفل أو كبهيمة ، هو لا يعرف من الطبقة العالية التى تسوده الا جانبها الخشن ، ولقد قيل لنا انهم لا يفهمون السلطة التى تتأنسن ، وتلجأ الى العواطف الخيرة هذا حق ولكن لانهم لم يهذبوا إلا بالضربات والغرامات والشتائم والفظاظة التى انتهت بأن صيرتهم غير حساسين .

ونحن أنفسنا فى شبابنا قبل ان نفهم كرامة الفرد الانسانى استعملنا هذه الطريقة القاسية إذ انها كانت تبدو لنا طبيعية وضرورية

لتكن فكرة العدالة عند الفلاح فاسدة ، وليكن تعوزه الصراحة والثقة والحمية . نحن نعترف بهذا ولكننا نعترف ايضًا باننا لم نعمل شيئا لكى نعلمه هذه المحامد ولكي نرفع نفسه .

ليكن انكبابه على العمل بدون سرور وبدون إخلاص وبدون كمال ، وليكن خاليا من الميل الى العمل المتقن ، وليكن ينقصه التصميم الحر والابتكار ، كل هذا حق ايضا ، ولكن هذه الثغرات ناشئة من خضوعه ومن عزلته فنفسه محاصرة بين الجهل والطغيان على حد تعبير القللى .

كذلك الارض وشغلها يحملان الفلاح على الصبر والثبات والصلابة ، ولكن صيرته هذه الارض علي صورتها جسمانيا وماديا ، فحبه كله بدنى ، ومع ذلك فهو ليس خليعًا .

هم يعلمونه منذ طفولته أنه خرج من بطن أمه ، فهو لا يجهل شيئا من التفاصيل

البدنية الموازنة وهو ينطق بسباب يدل فى وضوح على إحاطته بكل أسرار الحياة الجسدية وصغيرات الفتيات اللواتى يلعبن بالدمى يمثلن بالاشارات مناظر لا يستطيع الواقع أن يفوقها ولكن هذه الوقاحة البهيمية الهادئة ليس فيها شيء شديد الإزعاج وهى لاتلتبس ألبتة بالدعارة فالخلقية الأساسية لم تصب .

ان الرقابة المتبادلة والروح المحافظة وغريزة الحياة تصير الجنايات على الأخلاق أقل عدداً منها في البلاد الاخرى . « لا تؤلف الاعتداءات علي الأعراض بين الفلاحين إلا جزءاً صغيراً من مجموعة المخالفات القانونية [1] »

فى الواقع ان الفقر والتقاليد يعودان الفلاح منذ باكورة حياته على التقشف الجسمانى فوثارة السرير ، ورفهنية المنزل ، ولذائذ المائدة ، وبيوت البغاء هي اشياء لا يزاولها وفى هذا حماية لخلقيته.. يمكن ان تضاف الى ذلك أوامر الاسلام ولكن الفلاحين جهلاء بدينهم وليس الشيوخ أو علماء الازهر هم الذين يعلمونهم إياه ونحن نعتقد بالأحرى ان الخلق الفطرى عند اولئك البدائيين يحتفظ بقوة قانونية .

الفلاحون اخلاقيون لانهم يؤمنون بالله ، وهم ماديون ولكنهم ليسوا متمذهبين بالمادية . هم يؤمنون قطعا بالتدخل والعناية الالهيين : « ان شاء الله » فى كل شيء ، وهم لايقومون بأى مشروع ولا يزاولون أى عمل دون أن يضيفوا إليه : «ان شاء الله»

التاجر الاغريقى :

- هل ستسلمنى قطنك غدا ؟

الفلاح

---

(١) محمد القللى «محاولة على أسباب الجنايات فى مصر» «مكتبة الحقوق والتشريع» باريس سنة ١٩٢٩ ، ٣٨٠ صفحة .

- نعم ياخواجه ان شاء الله

- خمسة قناطير لا أقل ، أليس كذلك ؟

- بلى،ان شاء الله .

- هل ستجد جمالا للنقل ؟

- ان شاء الله .

- ينبغي أن تصل إلى البضاعة حتما قبل الظهر .

- ان شاء الله .

- ليست المسألة مسألة ان شاء الله ، فنحن نتحدث عن عمل ،وانا أريد وعدا حاسما

- إذا لم يكن هناك ان شاء الله ياسيدى فليس هناك قطن وإلى اللقاء . .

يدبرها ربنا ، والله يقسم الأرزاق، الله يحمى (المحصول ) - ان الله مع الصابرين كل واحد وحظه الذى كتبه الله له . انا لله وانا اليه راجعون . الله موجود . هذا يوم الرب . الله هو المدبر ، العبد فى تفكير والمولى في تدبير . رب العطا يعطى البرد على قدر الغطا . هذه هى عبارات العلم الدينى القروى ، وهى عبارات تنعطف نحو الجبرية تشف عن الإذعان ، ولكنها فى الغالب تنتعش بكل جمال الرضى البنوى بالارادة الإلهية

إن الفلاح يؤمن بالله كأول الاحياء واكثرهم فعالا . وعلى الرغم من فقر عقله وجهله بالدين قد كون لنفسه عنه فكرة جد نقية : هو القادر والعادل والخير . وكل هذه الصفات تجتمع فى تلك العبارة التى يستعملها مبينا بها الاله : « ربنا » . ينبغى أن يستمع المرء إلى الفلاح اذ ينطق بهذه الكلمة .

إن الخرافات التى تضنى نفسه لم تفسد جوهر عقيدته ، فالشعب الفلاحي اكثر من الشعوب الاخرى اتجاها نحو الصلاة والزهد ، لانه شعب مؤمن . ان المقدس ،

والبركة ، والفوق الطبيعى ، والطهر ، أو ظواهرها فقط ، قد أحدثت فيه دائما جاذبية لاتقهر . فالفلاحون الكاثوليك - وهم الذين نعرفهم أكثر من غيرهم - يقدمون أجمل المثل للحياة الدينية ، بل للبطولة ، وقسسهم الذين هم فلاحون يحيون بينهم ولأجلهم حياة زهادة وإخلاص ليس المرسلون الآتون من أوروبا بقادرين عليها دائما .

يجب علينا ألا ننسى ان أوائل رجال الدين فى العالم المسيحى ، وهم رهابنة طيبا ، كانوا فلاحين .

# الفصل العاشر

## تطور الفــلاح

في ميدان محطة القاهرة المتسع ينتصب أثر سميك ممتلىء قد نحت من جرانيت اسوان ، وهو أبو الهول يقف على رجليه الاماميتين بينما تمسك برقبته امرأة واقفة تزيل النقاب عن وجهها . وهو : « تمثال نهضة مصر » .

ان مصر منذ نصف قرن من بين جميع بلاد الشرق الادنى وجميع البلاد الإسلامية هى البلد الاكثر يقظة .

فمن الوجهة السياسية قد تحررت من تركيا ثم من انجلترا ، لتكون من نفسها دولة مستقلة .

والصفوة التى أدركت مصير الوطن المصرى ، ونشأة فكرة الوطنية ونموها في إحدى الطبقات قد صيروا هذا الخلاص ممكنا . ومنذ سنة ١٩٢٣ قد صار للمملكة المصرية سفراء وقناصل فى الخارج ، وحكومة وطنية ، وحياة نيابية ، ومعارضة وتصويت فردى ، واحزاب سياسية ، وبرامج انتخابية ، ووزارات ووكلاء وزارات ، يزيد تنوعهم باطراد ، وبالاجمال لها كل آلات الدولة الاكثر حداثة .

ومع ذلك فهذه الحياة السياسية لا تكاد تحرك الا عشر الاهلين والباقى الفلاحون . وهم مواطنون غير مدركين وغير منظمين لا يساهمون فيها أكثر من ذى قبل حين كان الترك والانجليز يقبضون على زمام البلاد .

وكل هذه التجديدات التى سردناها آنفا هم يجهلون وجودها أو لا يفهمونها .

يقال أنهم تابعون لحزب كذا وكذا . ليكن هذا ، ولكن على معنى أن العمدة أو السماسرة قد قيدوا اسماءهم فى الحزب غير أنهم ليسوا من المناضلين بل ولا من الاشياع كما يكون القرويون الروسيون في مثل هذه الحالة مثلا. إنهم لم يعلموا حريتهم ولا حقوقهم ، ولم تكن الصورة الديموقراطية قط خادعة فى أى مكان آخر كما هى فى مصر ، ولكن الشر الأكبر ليس في هذا .

ان تقدم مصر الاقتصادى ليس أقل وضوحا من تقدمها السياسي ، وهناءتها المالية أمر جدير بالملاحظة ، فالحكومة تملك احتياطيا من الذهب قدره ثلاثون مليونا من الجنيهات ، وهذا المبلغ قد تضاعف تقريبا فيما بين سنتى ١٩٢٥ - ١٩٣٥ « وكان بالضبط و ٤١٩٥٠٠٠٢٧٩٠٠ جنيها فى ٣٠ ابريل سنة ١٩٤٠ »

وليس فى ميزانيتها ألبتة عجز ، والنمو المطرد فى إنتاجات الجمرك والسكة الحديدية ورؤوس أموال الشركات المجهولة الاجنبية والمصرية وانتشار الصناعات المحلية ، « والشركات المصرية تستخدم ٢٠٠٠٠٠ عامل » ومكان مصر فى سوق القطن وتحسن زراعتها والامتدادات المنهجية للرى ، وبالتالى للانتاج الزراعى ، كل ذلك يؤلف علامات الثراء :

غير أن هذا التقدم لم ينتج منه تحسن فى حالة الفلاح ، ومستوى حياته لم يتغير ، وكذلك وسائله الى الاستغلال كما هى . والسبب في ذلك بسيط جدا وهو أن الفلاح فى هذا التطور الاقتصادى كان يستخدم كالأساس الادنى للمنزل ، وعدم إدراكه وثبات حالته الراهنة كانا شرطا لهذه الهناءة الرأسمالية . ولقد كتب أحد الاقتصاديين آنفا ما يلى :

« ان الزراعتين المنعوتتين بالثراء ، وهما : القطن وقصب السكر ستؤثران في

تطور الفلاح ما دام أن احداهما تحضر من الخارج رؤوس الاموال التى تجلب التحسن الزراعى .والاخرى تحضر الصناعة التى تصير الفلاح أكثر دقة بوساطة استعمال الآلات الميكانيكية. . . .

لم تفد رؤوس الأموال ولا الصناعة الفلاحين فى شىء . « فقبل عصر ١٩٢٠ الهنىء كانت أمورهم المالية كما كانت بعده متساوية فى الرداءة . وكان فقرهم مساويا لنفسه فى العظم منذ مائة سنة وألف سنة .. بل يلاحظ - وذلك فى التقارير الرسمية - انخفاض فى مستوى حياتهم . (١) ويميل البعض الى عزو ذلك الى نمو السكان . (٢) ويضيف على الشمسى باشا الى هذا نسبته الى « سوء توزيع الثروة الزراعية » (٣) لأنه يوجد مع ذلك فى هذه البأساء العظمى لبلد ثرى كهذا ملاك يمتلك الواحد منهم دخلا يتراوح بين ١٢٠٠٠ جنيه و ١٥٠٠٠ جنيه .

وهنا أيضا نحن لا نغالى فى الشر ولا نرى أن الفقر أسوأ الأشياء . ولكن الجهل . . .

ان التجديد العقلى فى مصر ساطع . وفى عهد حكم جلالة المغفور له فؤاد الاول على الأخص كثرت المؤسسات العلمية فالجامعة الملكية التى لم تكن موجودة منذ بضعة عشر عاما تحتوى اليوم على ١٠٠٠٠ طالب . وقد بلغت من العظم الى حد أن أنشئوا فيها أقساما ثم كليات . ومنذ الآن ستكون جامعة في

---

(١) خلاصة تقرير لجنة المالية عن مشروع الميزانية لسنة ١٩٤٠ — ١٩٤١

(٢) خطبة فى مجلس النواب فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ .

(٣) لقد نوه الدكتور إيلى نصيف بذلك حين قال : هل تشكو مصر من الازدحام بالسكان فى المحاضرة التى القاها بالفرنسية يوم الجمعة ٥ فبراير سنة ١٩٤٣ بالجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع .

الاسكندرية . وتحتوى مدارس الحكومة الابتدائية والثانوية على مئات الألوف من التلاميذ . وهم مزودون بأحدث الكمالات . وهذا فضلا عن التعليم الحر الذى هو أقدم من غيره . وليس هـذا فحسب . بل ان جامعة الازهر القرآنية نفسها قد حدث فيها إصلاح وتنوع كمعاهد : شبرا وطنطا وأسيوط . وهناك ثلاثة آلاف مدرس يوزعون التعليم الاولى فى القرى . وصحافة مصر من جرائد ومجلات وأسفار يمكن أن توازن في هيئتها وأنبائها بأرقى صحف أوروبا . وهي تستعمل نماذج لكل البلاد العربية . ولكن الصحيفة الاكثر أهمية . وهى الاهرام التى يدعونها بتايمس الشرق لا تكاد تطبع ١٠٠٠٠٠ عدد ، والمجلة القروية (زميل الفلاح ) التى تصدرها وزارة الزراعة تطبع حوالى ٤٨٠٠٠ فقط

والعلماء ورجال الادب الذين يأتون الى مصر فى كل شتاء للمؤتمرات وللمحاضرات يجدون فى القاهرة والاسكندرية مستمعين مستنيرين ذوى صدور رحبة كما فى بيئات باريس . وهم يدهشون لهذا ويصرحون به .

والذين يفكرون ويدرسون هم مشتغلون الآن بإنشاء لغة وطنية وموسيقى وطنية ، ومسرح وخيالة ( سينما ) وطنيين وبالاجمال : انشاء شيء يكون مصريا خالصا لايختلط بالبلاد الاسلامية الاخرى . ومن الشيق تتبع هـذا التطور الثقافى . ولكن ينبغى أن نتحرر منه لننظر الى أدنى .

هل السواد الاعظم يشمله هذا التجديد ؟ وهل هو يتبع هذه الصفوات الحضرية؟ كلا ، أوهو يتبعها على بعد شاسع إلى حـد يجعله لا يبدو متحركا ، والامية لاتزال تسود الاكثرية الساحقة ، ولا بد أن تكون الإحصاءات الاخيرة قد اعترفت بذلك وسواء أكانت تلك جناية المسئولين الذين نموا كل شيء فى مصر ماعدا التعليم ، أم جناية الفلاحين القليلى المواهب والمتمردين بجمودهم على كل تعليم ، أم جناية المناهج

الغير المتلائمة مع عقليتهم والتى تفرض عليهم مع المدرسة الإلزامية ، فنحن لانقول كلمتنا فى هذا ، ولكن الظاهرة تظل ملموسة ، وهى ان ٩٥ ٪ من الفلاحين أميون . وحينما يعرفون القراءة يظلون أجانب عن تبادل الافكار ، لأن اللغة المكتوبة أو أسلوب الكتب ليس هو لغتهم .

إن ضعف الفلاحين وآلامهم يأتيان من جهلهم الهائل فى عالم قد تطور ، وتلك النهضة التى أشرنا اليها آنفا تزيد فى اظهار عزلتهم وتبعيتهم ، ومع ذلك فاذا كنا لا نستطيع أن نشاهد فى هذه الجماهير تغيرات جوهرية ، فاننا نلحظ عليها من الخارج بعض تقدمات جديرة بالتقدير ، ومن الداخل معالم للتطور .

تقدمات بالمعنى الاجتماعى ، فمصر المتطورة بدأت تنشغل بمصر الغير المتطورة ، نعم ان ذلك يحدث فى أغلب الأحايين بلا مهارة و بدون استمرار ولا منهج ، وهو مشروع أكثر منه حقيقة واقعة . ولكنه مع ذلك تصحبه رغبة فى تحسين هذه الجماهير الغير القادرة على تحسين نفسها بنفسها .

لنسرد بديا بعض الوقائع : للفلاح اليوم حالة عقارية شخصية ، وهو لم يعد خاضعا للسخرة بسبب هوى السادة . توجد له عدالة وقضاة ، نعم هو لا يعرف كيف يستمتع دائما بهذه الشرعية ، ولكنه يستطيع أن يستمتع بها على حين أنه كان قبل ذلك .

أما وضع حد لقسوة الباشوات وترك ما تملكه زوجة الفلاح أو ابنه الرعديد لهما فمن عمل اللورد كرومر فى نهاية القرن التاسع عشر ، ذلك العميد الذى كان يفكر كثيراً فى الفلاحين[١] قد استعمل كل سلطته فى ان يجلب لمصلحتهم على الاقل القدر الضرورى من العدالة . فالسوط ( الكرباج ) قد الغي ولو من ناحية المبدأ ، وتسلم

---

«١» مصر الحديثة . تأليف الاول كرومر . ماكميلان لوندرة سنة ١٩٠٨ ، مجلدان كل منهما ٦٠٠ صفحة وثانيهما يعنى بحالة مصر الاجتماعية .

الضرائب قد حدد بنسبة وفى وقت معقولين، ولم يعد الفلاح فى وجل دائم من الصراف . هو يعرف ما لا يجب عليه دفعه ، وانه اذا كان حقله لم يستطع الإنتاج ( بسبب فيضان أو جفاف أو حريق ) فانه يعفى من الضريبة ، غير ان عيب الارتشاء لدى الموظفين وأنانية كبار الملاك يضعفان فى اغلب الاحوال النتيجة النافعة لهذه الاحتياطات ومع ذلك فهى تعمل عملها .

وفى مصلحة الفلاح أيضا اصدر اللورد كتشنر خلف اللورد كرومر فى سنة ١٩١٢ قانونا يقضى بان يكون منزل المزارع الصغير وآلات شغله وحيواناته من حيوانات الحمل والركوب وخمسة أفدنه غير قابلة للحجز عليها .

ولكى يحسن حالة مالية الفلاح ويعوده على النظام أسس نفس هذا العميد صناديق ادخار فى القرى يجب على الفلاح أن يضع فيها مدخراته ، غير انه ينبغى أن يقال إن هذه المؤسسة لم تنل نجاحا . وقد يكون ذلك ، لانها كانت إجبارية ، فكان لا بد من إلغائها بعد الحرب

وفى سنة ١٩٠٢ وبعد تجربة حاولها البنك الاهلى أسس البنك الزراعي المصرى لذاى كانت غايته أن يقرض صغار الزراع بفائدة شرعية قدرها ٩ ٪ فأنشأ فروعا فى جميع عواصم الاقاليم ولقد كان له امتياز الاستيفاء قبل الضرائب ، فكان ذلك فى أول الامر نجاحا ، ولكن الرسميات الكثيرة التعقد ، والفروع البعيدة عن مقترضى القرى صالغيرة بعدا شاسعا ، ومواعيد الدفع العلنية ، الغير القابلة للتزحزح بهيئة خارجة عن حد المألوف كل ذلك قد صير خدمة المرابى الحاضر المتساهل أفضل من غيرها . ومع ذلك فان النجاح النسبي الذى احرزه البنك الزراعى كان يمكن أن ينمو لو أن تطبيق قانون الخمسة الافدنة الذى أزال كل ضمان لقروضه لم يصوب اليه الضربة القاضية . وعلى أثر ذلك تحول البنك عن غايته الاولى وبدأ التصفية فى سنة ١٩٣٠

وفي سنة ١٩٣١ لا بد أن يكون مبدؤه قد أخذ وأدخلت عليه تحسينات فى إنشاء بنك التسليف الزراعي المصرى الذى أسسته الدولة (١) بمعاونة كبار مصارف القاهرة . ولكى تسهل الحكومة عملياته وافقت على قرضه مليونا من الجنيهات ووقفت لصالحه العمل بقانون الخمسة الأفدنة .

تقدم هذه المؤسسة الجديدة ـ الى صغار الملاك بفائدة قدرها ٧ ٪ وللجمعيات التعاون ٥ ٪ ـ المبالغ الضرورية لحاجات الزراعة وجنى الغلات ولشراء المواشى وتحسين الارض ، وهي تبيع بالاجل لصغار الملاك ( والمستأجرين والشركاء ) السماد والبذور المنتقاة ، وهى تقرضهم الى ٨٠ ٪ من قيمة غلاتهم المودعة فى ( الشون ) التى تكثر منها في انحاء البلاد . ولما كانت تفهم العقلية القروية ، وقد استفادت من تجربة البنك الزراعي ، فقد نقلت تصرفاتها من المركز الاساسى وتركت سلطات واسعة بالقدر الكافى لعمالها الذين يذهبون إلى القرى وبسطت الرسميات إلى أقصى حد . وهكذا ربحت ثقة الفلاحين وأنقذت كثيراً منهم من مخالب المرابين دون أن تتحمل هى نفسها خيبة أمل دائنيها فيها ، ومع ذلك فيبدو أن لديها ميلا إلى ترجيح خدمة متوسطى الملاك وكبارهم .

ومن المرجح ان تكون الشروط الخاصة التى يمنح بنك التسليف الزراعى الجمعيات التعاونية اياها قد لوحظت . فمنذ خمسة عشر عاما يوجد منها عدد في مصر ، وقد اعترفت بها الحكومة كمؤسسة رسمية ( قانون سنة ١٩٢٣ المعدل فى سنة ١٩٢٧ ) وكانت تعينها كثيراً وتقرضها لتشجيع زيادة عددها وتسمح لها بشراء بذور وسماد ومواش وآلات بأفضل الشروط .

---

(١) القرض الزراعى فى مصر ـ تأليف جوزيف رانيس المكتبة الاصطلاحية والاقتصادية سنة ١٩٣٧ ـ ١٧٧ صفحة

وقد وكلت هذه المهمة منذ سنة ١٩٤١ الى بنك التسليف فكان هذا التغيير سعيداً إذ قد ارتفع عدد الجمعيات التعاونية من ١٤٧ فى سنة ١٩٢٧ إلى ٧٠٣ فى سنة ١٩٣٥ وارتفع عدد المساهمين فيها من ١٢٢٩٨ ألى ٧١٠٠٠ وفى سنة ١٩٣٥ نالت ٥٤٤ من هذه الجمعيات التعاونية من بنك التسليف الزراعي مبلغ ٨٣٦٠٠٠ جنيه . وأما الجمعيات الاخرى فهى تستمتع برؤوس أموالها الخاصة .

ان فوائد هذه الجمعيات واضحة ، فهى تلغى الوسطاء المفسدين وتنظم الانتاج والاثمان وتحسن الكيفية والكمية ، وتشترى وتبيع بأفضل الشروط(١) وتعنى بالخدمة الاجتماعية : «تحتفظ الانواع المختلفة من الجمعيات التعاونية بجزء من فوائدها السنوية ، لينفق فى الخدمات الاجتماعية المتباينة كاصلاح القرية والتربية والصحة وماشاكل ذلك»

فى مصر السفلى ولاسيما فى البحيرة تكثر هذه الجمعيات ، غير أن نجاحها لايمنعها من أن تظل أقلية ضئيلة بالنسبة إلى المجموعة ، بالنسبة إلى الفلاحين ، الاكثر عوزاً والاقل استعداداً لروح الاجتماع .

ولكى تحمي الحكومة هؤلاء الاطفال الكبار اتخذت سلسلة الاحتياطات الآتية :ـ

(١) قانون ضد المرابين (١٨٩٦) وهو الذى يعاقب المقرض بالربا الفاحش بغرامة كبرى .

(٢) تأسيس أسواق القطن أو الحلقات (١٩١٢) التى يجرى فيها البيع حسب سير البورسة و بوزن مراقب .

(٣) الغاء ضريبة النخل فى سنة ١٩٢٠ .

---

(١) كتاب التعاون الزراعى تأليف ابراهيم رشاد مدير قسم التعاون بوزارة الزراعة المطبعة الاهلية ، القاهرة سنة ١٩٣٥ مجلدان مصوران بالعربية ، والثانى منهما يتعلق بتطبيق التعاون الزراعى فى مصر .

(٤) إلغاء ضريبة (الخفر) فى سنة ١٩٣٦ وهوحق الحراسة الذى كان يجب على الفلاحين دفعه .

اذا كان اقتصاد الفلاح فى حاجة إلى أن تنظمه حكومة كأنها العناية الربانية فان الأشد من ذلك حاجة هو حياتهالصحية أي مسكنه وصحته . وهنا تفوق المشروعات الحقائق الواقعية كثيراً .

هل ينبغى أولا تحقيق وجود الماء الصالح فى جميع القرى . أو انشاء قرىنموذجية تدريجيا .

يوجد اليوم ٢٥٪ فقط من الاهلين وهو العدد الذى يمثل سكانالمدنيشربون ماءا صافيا . ومن وقت الى آخر تؤسس محطات جديدة للماء الصالح . وفى سنة ١٩٤٠ قد مهرت كل مديرية الفيوم الاشد من غيرها بعدا عن النيل بمؤسسات نموذجية ،ولكن الفلاحين ليسوا معجلين للاستفادة من هذه النعمة ، ففى النخيلة مثلا ، وهى قرية ضخمة ، عدد سكانها عشرون ألفا على مقربة من أبى تيج ، قد أدخل الماء الصالح حديثا بفضل عناية مجلس قروى نشيط . يجب أن يدفع نساء الشعب (للحنفية) العامة مليما عن كل صفيحة أو (بلاص) ، ولكنهن لا يذهبن اليها قط مفضلات النهر الغنى المجانى ، ويعين ولاة الامور خفراء ليمنعوهن عن هذا العمل ويقهروهن على الاستفادة من ذلك التقدم الذى يلعنه .

أغوى إنشاء القرى النموذجية الحكومة أكثر من الماء . فمن قبل قد أنشأ محمد على بخيط الميزان نحو عشرة بلاد كان يجب أن تكون مثالا لغيرها ، ولكن مثال ذلك الغير هو الذى كان أقوى ، واليوم لاتكاد هذه البلاد تمتاز عن تلك التى بنيت بدون أى تصميم .

وفى سنة ١٩١٤ افتتح الخديو عباس الثانى ثلاث قرى مستقيمة الشوارع تتكون

كل واحدة منها من ١٨٠ منزلا منها ١٦٩ للفلاحين ، والباقى للمصالح العامة ، وكان كل مسكن منها يتألف من حجرتين وردهة،فلم تكن هذه التجربة أكثر تربية للفلاحين من غيرها ، اذ أنهم قد حولوا هذه المنازل حسب حاجاتهم .

ومع ذلك فهاهم أولاء القائمون بالامر بعد نوم عشرين عاماً يعودون إلى القرى النموذجية ، وهكذا بأمر المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول قدأنشأت تفتيشات الخاصة الملكية للعمال الذين يشتغلون فيها مساكن متجانسة ومتلاصقة ذوات أدوار أرضية تبدو لنا كأنها سجون ، ولكنها قصور عند الفلاحين . ولقد سبقت هذه المبانى وحوكيت من عدد كبير من الملاك الذين أعدوا فى عزبهم لفلاحيهم منازل صغيرة من آجر أو لبن ، ولكن البناء الاكثر أهمية هو بناء عزبة بهتيم التى تملكها الجمعية الزراعية الملكية . وجدت فيها بديًا فى سنة ١٩٣٤ طليعة تلك المنشئات وهى ٣٠ منزلا للزراع و٣ للمستخدمين وللمرافق العامة ، والمبانى منتظمة من الشمال إلى الجنوب على خمسة صفوف ينقسم كل صف منها إلى مجموعتين بشارع يتسع فى الوسط حتى يتحول إلى ميدان ، وبين كل صفين من هذه الصفوف يوجد شارع عرضه ستة أمتار بحيث تتغلغل الشمس في جميع المساكن .

تلك المنازل مبنية بالآجر ، والسقف بالاسمنت المسلح ، والارضية مرتفعة من الداخل ٣٠ س م ، وارتفاع المنزل أربعة أمتار ، و ٢٠ من هذه المنازل يتكون كل واحد منها من حجرتين وردهة داخلية وحظيرة للحيوانات ، وفي كل منزل مرحاضه الذى يلتئم مع أوامر الصحة ، و ١٠ منازل كبرى يتألف كل منها من ثلاث حجر ومدخل وتوابع أخرى ، وهذه المنازل يشغلها رؤساء الاسر وأقاربهم وهى فى أغلب الاحايين الاب وابنه ، وقد بنيت ستة تنورات للخبز خارج المنازل لكى لايؤذى الدخان السكان ، وهي تحت تصرف الاسر كل بدورها ، وكذلك ستة حمامات

(بالدوش) أربعة للرجال ، واثنان للنساء ، ويمكن أيضاً أن تغسل فيها الملابس ، وقاعة للاجتماع تتسع لـ ٧٠ شخصاوهى تستعمل للاعيادوالافراح والمآتم ، والمسجد ذومسطح قدره ستون مترامربعاً ، والمدرسة التى يتبع فيهامنهج المدرسةالالزامية مفتوحة للغلمان والفتيات . وهناك حوانيت قد انشئت لكى تسمح للسكان بأن يشتروا حاجاتهم دون أن ينتقلوا ، وكذلك (دوار) كبير مؤلف من ستة مستودعات لخزن المنتجات المختلفة وأطعمة المواشى والآلات الزراعية . والماء الذى يملأ الصهريج يأتى من بئر مجهزة بآلات رافعة .

غير أن هذه البنايات الغالية التكاليف ( ١٠٠٠ جنيه) لايمكن أن يحاكيها الافراد، فكان ينبغى لهم وجود شيء أكثر اقتصادا وأكثر قربا أيضا من العادات القروية دون أن يضحوا من أجل ذلك بالصحة . وفى سنة ١٩٣٦ قدمت الجمعية الملكية الزراعية إلى الملاك صورة واقعية أخرى ، وهى ٢٠ منزلا من نوع يختلف عما تقدم ، كل أربعة منها متصلة ببعضها ، وتفصل هذه المجموعات شوارع عرضها ستة أمتار ، وهنا الحوائط مبنية باللبن ، والسقف مصنوعة من الخشب ، وفي كل منزل منها حجرتان ، سعة الواحدة منهما ٤ونصف X ٣ ونصف وردهة صغيرة وتنور المنزل . وقد تكلف كل مسكن من هذه المساكن ٢٥ جنيها بدل ١٢٥ جنيها فى النموذج الاول .

وكذلك صممت الحكومة من جانبها على أن تبنى قرية نموذجية فى كل مديرية وللبدء فى هذا المشروع قررت إعادة بناء ميت فارس فى (مصر السفلى) التى هدمها الحريق ، ويحتوى الرسم على منازل ذوات دور أو دورين بالماء الصالح والمجارى وشوارع متسعة تمتد على جوانبها الاشجار وفى وسطها قاعة الاجتماع والمسجد والمدرسة وفي خارج القرية يوجد موضع للسوق الاسبوعية ومستودعات للخشب والسماد والحبوب ومضخة للحريق وسيقطن ٢٠٠٠ نسمة فى هذه الفردوس التى ستشغل ٤٥ فدانا . هذا

تصميم لم يتحقق بعد (١)

غير أن قرية نموذجية واحدة فى وسط جهة واسعة تكون شبيهة بقطرة ماء في البحر ، اذ قليل جدا من الناس هم الذين يستفيدون منها والذين يحاكونها. فالافضل إنفاق المال في مشروعات أكثر نفعا كتزويد القرى بالماء الصالح فتكون الفائدة أعم كما تقول المعارضة ، وهذا فضلا عن الظلم الناشىء عن هذا التفريق بين القرى . والا فلماذا تصير هذه نموذجا وتبقى الاخريات تعسات ؟ ولقد ووجه تصميم يتحقق فى خمس سنين لإعادة بناء ٤٠٠٠ قرية فى مصر ، وقدر له مبلغ ثلاثين مليونا من الجنيهات ، وهذا المبلغ لا يبدو هائلا ولا غير ممكن التحقيق اذا فكر المرء فى أن الحكومة المصرية قد انفقت على الخزانات وأشغال الرى خمسة وأربعين مليونا من الجنيهات ، ولكن المشروع قد هجر منذ اعباء معاهدة سنة ١٩٣٦ الثقيلة الحمل ، وقد يكون ذلك بسبب عدم وجود الروح الاجتماعية . (٢)

ان اللجنة المؤلفة لاصلاح نظام العمد الاقطاعى وتحسين حالة القرية تقترح

---

(١) انظر فى مجلة العمارة ١٩٤١ العدد الثانى ، تلك الدراسة القيمة للدكتور سيد كريم ( ص ٥١ — ٦٤ ) اصلاح القرية ، بين القرية النموذجية وقرية الانتقال .

(٢) أنفقت الحكومات المتتابعة ١٤٠٠٠٠٠٠ جنيه لأجل تنظيم دفع الديون العقارية أى لأجل إنقاذ كبار الملاك الذين لايتجاوز عددهم ١٣٠٠٠ شخص . وهذا معناه ان كل واحد من هؤلاء الممتازين قد نال ١٠٠٠ جنيه دفعتها اليه الخزانة بحجة حماية الثروة الزراعية .

ولقد خصصت الدولة هذا العام ١٧٠٠٠ جنيه لانشاء المراكز الاجتماعية فعاد على كل واحد من هؤلاء البؤساء نصف قرش . فاذا اضفنا الى هذا النفقات المبذولة لتعميم الماء الصالح والعيادات المجانية فان المبلغ المحفوظ فى خزانة المالية لاولئك التعساء لايتجاوز بضعة قروش لكل منهم ( الانذار — المنيا ٢ مارس سنة ١٩٤١ ) .

إنشاء مجالس قروية يـكون للفلاحين فيها فوائد . وفي الوقت الراهن توجد فى نحو ستين بلدا كبرى مجالس بلدية مؤلفة من المدير أو المـأمور ومن مفتش الصحة ، وأربعة أعضاء منتخبين . وبضعة أعضاء معينين من وزارة الداخلية .

وهناك مؤسسات أخرى أقل بروزا من الأولى ، وهى المجالس القروية المنشأة منذ سنة ١٩١٨ وفى سبعين قرية . وهذه المجالس القروية معدة لان تصير مجالس بلدية ، فهى مؤلفة بنفس الطريقة ، ولـكن مواردها المـالية ضئيلة .

ان رش الشوارع الاساسية — وان كان لا يزيل الاوحال — وانشاء حديقة صغيرة شعبية محرمة على الشعب الذى لو دخلها لحطمها ، وبضعة مصابيح تبين نشاط هذه المؤسسات البلدية .

كان الجميع يتمنون أن تـكون هذه المجالس أ كثر تمثيلا للقرى ، أينتخب العمدة بوساطة مواطنيه بدل تعيينه ؟ ولـكن فى هذه الحالة منذا الذى يجعل منه أهلا لوظيفته أيوضع فى البلد موظفون مختصون : طبيب وممرضة متنقلة ، ومندوب من الزراعة ، ومندوب من الشؤون الاجتماعية ..؟ أم تنشأ أولا مراحيض عامة ، لأن أمراض الفلاح التى تضعف إنتاجه تشغل السلطات. ولقد وضعت وزارة الصحة المنشأة فى في سنة ١٩٣٤ هذه المسألة على رأس برنامجها ، ولـكنها لا تتصرف فى ميزانيـة كبيرة ، وأعظم حظوظ ميزانيتـها يذهب الى الموظفين ، ومع ذلك فان حملاتها جديرة بالاشارة : فهناك ٦٧ صيدلية مجانية ثابتة أو متنقلة تعالج ( الانكلستوما ) ( والبلهارسيـا ) وبقدر هـذا العدد مستشفيات ، تحت تصرفها ٤٠٠٠ سرير تستقبل المرضى السيئي الحالات ، وفي سنة ١٩٣٦ كان هناك ١١١ مؤسسة رمدية عالجت ١١٣٣٥٩٩ مريضا . وكذلك العناية بالطفولة يـكفلها نحو ٤٠ مؤسسة . والاطباء والقابلات ، والممرضات المتنقلات لا ينتظرون حتى تأتى الفلاحة تقص

عليهم حاجتها ، بل هم يذهبون إلى المنازل يعلمون ويأومرون ، وعلى هذا قد بلغت مجموعة زياراتهم نصف مليون . واليوم يوجد نحو ٥٠٠٠ قابلة رسمية ( داية ) أمضت كل منهن ستة أشهر للتمرين فى أحد مستشفيات الولادة . وهناك ٨٠٠٠ من طبقة قد تلقين دروسا من ثلاثة أسابيع الى ستة .

ينبغى أن يضاف الى هذا المجهود الجليل ذلك الذى هو أكثر منه اخلاصا ، وهو مجهود المؤسسات الخاصة والصيدليات المجانية وزيارات فرانسيسكانيات مصر المنزلية ، ومرسلات مريم ، والايليزابيتيات ، وراهبات القديس يوسف ، وراهبات سيدتنا مولاة الحواريين ، والمؤسسات البروتيستانتية . وأكثر من هذا حداثة ، وأكثر منهجية أيضا المراكز الاجتماعية الموجودة في نحو عشر مدن من الدلتا ، ولكن الحقل جد متسع ، والعمل هو ابن الامس ، والمستفيدون من هذه العنايات هم آلاف من الملايين . وهؤلاء انفسهم يهدمون فى الغالب نتيجة هذا الدواء بجهلهم وعاداتهم وفقرهم ، وكل هذا يقيم بعدده عقبات أمام التطور .

ليس فى مقدور القرية النموذجية أن تجعل من الفلاح رجلا سليم الصحة . بريئا من العاهات . وليس عمل السلطات فى المديريات والمراكز بأكثر منها انتاجا . وما دام الفلاح يظل محتفظا بعقليته التى هى له اليوم : وبهذا العوز فى الذكاء الذى لا يستطيع به التمييز بين ما يوافقه ومالا يوافقه ، فانه سيستمر على أن يكون فى وسط التحسينات التى تجلب اليه كما هو اليوم . فالماء الصالح الجيد التصفية ينبذه ، ليشرب الماء القذر الذى شرب به أجداده . والمنزل المنير الطلق الهواء الصحى يفسده بطريقته فى الحياة . والقوانين والمؤسسات المنشأة لصالحه لن يعرف كيف ينتفع بها . فينبغى البدء بالتعليم « كما قال لنا أحد رجال الشارع »

وعندى أن كل اصلاح لا يقوم على تعليم الشعب قبل أى شىء مصيره الفشل

أو على الأقل يستغرق زمنا مـديدا يضيع على الأمة أكبر الفوائد ، فبناء القرى الجديدة للفلاحين وإلقاء المحاضرات والارشادات الاجتماعية الصحية بالسينما والراديو لا تؤدى ثمراتها ما لم يتعلم الشعب ويعرف كيف يستخدم هذه الشؤون .

هكذا أعلن في سنة ١٩٤١ الشيخ المحترم المرحوم عبد القادر حمزة باشا . (١)

ولـكن عددا من ولاة الأمور يعتقد باخلاص أن تعليم الفلاح هو تصييره تعسا ، وأن حالته الراهنة المكونة من عدم الادراك ومن العادات تؤلف أحسن حظوظه ، فهو لايتألم بقدر مانظن ولا يحقق ما ينقصه ، فتعليمه يوقظ فيه مطالب رفهنية وملاهى لا يستطيع أن يرضيها ، فيقززه ذلك من عمله فى الأرض .

وحينئذ فماذا ستصير مصر ؟ وفى سنة ١٩٣٣ وقف أحد النواب يؤيد أن تعليم السواد الاعظم شيء غير مرغوب فيه ، وهو سيكون انتحارا للبلاد ، وبعض كبار الملاك يفكرون على هذا النحو .

نحن نقر هـذا اذا كان الأمر يتعلق بذلك التعليم الذى هو يدون تربية وبدون ملاءمة والذى نجده فى المناهج الرسمية للتعليم الالزامى ، واذا كان الأمر يتعلق بتعليم الفلاحين استعمال أشياء غير ممكـنة الوقوع في القرية او عادات منسوخة عن الغرب ...... فان هذا التعليم لا يعطي نتائج متناسبة مع النفقات ولهذا فاللجنة ترى «أن يعيد القائمون به تنظيمه من أساسه معتبرين ضرورة اعداد الشباب لحياة القرى ، لـكى يرفعوا مستوى الانتاج الزراعى » . (٢)

---

(١) المصور عدد ٨٠٠

(٢) مشروع الميزانية ١٩٤١ — ١٩٤٢ فى محضر مجلس النواب ابريل سنة ١٩٤١ ابنة الشاطىء فى « قضية الفلاح » ( ١٩٣٩ ) : اصلاح التعليم القروى ، عيوب المنهج الحالى ، ١١٢ و الى ١٣١ . طه بك حسين فى « مستقبل الثقافة فى مصر » (١٩٣٨) التعليم الاولى ، و ٩٤ الى ١٢٥ من الجزء الثانى . جاك تاجو فى « مشكلة التعليم فى مصر » (١٩٤٢) ، ٥٩ الى ٦٣ .

أما التقرز من الأرض والهجرة الى المدن فانهما يأتيان من البأساء الدائمة أكثر من اتيانهما من هذا التعليم ، إذ أن الفلاح يرتحل ، لأنه يؤمل أن يجد هناك مايربحه، ليعود على الفور الى بلده .

لا يشاهد الى الآن ، والحق يقال ، نقص فى سكان القرى ، فاحصاء سنة ١٩٣٧ ينم عن حالة ثابتة بين الاهلين القرويين رغم ارتفاع نسبة المواليد والانخفاض النسبى فى الوفايات . ومن ناحية أخرى نحن نلاحظ أن فى القرى الاقل أمية - كما نلاحظ بين الفلاحين الذين بعد اقامة طويلة في المدينة يعودون الى قراهم فقراء أو مثرين ، ولكن عيونهم مفتوحة -- بعض النفور من عمل الأرض الشاق.

وفى سنة ١٩٣٧ قد أحصى في القاهرة ١٨٨ ألف ساكن من مصر العليا و ٣٠٠٠٠٠ من مديريات مصر السفلى بزيادة ١٥٠٠٠٠ فى عشرة أعوام . ولقد قدمت مديرية أسيوط الى العاصمة حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة ، والمنوفية المزدحمة بالسكان أكثر من ٧٠٠٠٠ وفى هذا ظاهرة ذات دلالة تشرحها البأساء والزحام أكثر مما يشرحها التعليم .

يكفى أن يرى المرء مستعمرات الفلاحين المنشأة فى القاهرة ، فهم يؤلفون قرى حقيقية مجتمعين حسب مواضع أصولهم فى الاحياء المتطرفة من العاصمة كالشرابية والقللى وأمثالهما . هم يسكنون معا ومجتمعين فى مواقع خاصة وهم يحتفظون بأكبر قدر ممكن من عاداتهم القروية ، وفى أغلب الاحايين يهاجر الرجال وحدهم تاركين فى القرى النساء والأطفال ، وهذا معناه الامل فى العودة ، هم يلتحقون على الاخص كعمال بصناعة المبانى يستأجرهم رئيس مياومة ويدفع لهم أجرا أعلى ( خمسة قروش تقريبا ) ولكنهم يعاملون معاملة تشبه في قسوتها معاملتهم فى الحقل ، وهم معرضون للتعطل .

وبعد تجربة بضعة أعـوام يعود البعض الى بلادهم أكثر فقرا من ذى قبل ، أو مزودين بالقدر الـكافى لشراء قطع الأرض الصغيرة التى هى موضع أحلامهم ، ويستقر الآخرون نهائيا فى المدينة ويشتغلون كعمال حفارين أو حمالين أو خـدما أو باعة متجولين متعلقين بالثروة الحضرية كما أن أكواخهم متعلقة بالأحياء الجميلة . هم يؤلفون سوادا طفيليا لا يختلط بالمدينة ، وأحيانا يدخلها بضعة منهم و يبرزون فيها ، فيصيرون تجارا كبارا ، أو مقاولين أو سماسرة ، ولـكنهم لا يكونون آخر من يستغلون ذلك الوسط المتنقل الذى خرجوا منه ، فهم يدوسونه بأقدامهم بدلا من أن يعينوه على النهوض .

بأساء دائمة للفلاح .

## خاتمة

# باساء الفلاح

بالموازنة بين حالة الفلاح الحاضرة وبين بأسائه منذ قرن أى فى زمن المماليك ، تبدو خيراً منها ، اذ لا يمكن ان يقتل قتلة الكلب ، ولا ان يجود تبعاً لاهواء الافراد ولا ان يصادر مصادرة الرقيق ، بل ان موازنة حالته ببأساء القروى الاسود أو المدغسكرى ، أو الصينى ، أو التونكيني تظهره لنا أحسن حظاً ، واذا لم يكن غذاؤه كافياً فهو لا يموت جوعاً . انه ليس ممزق الثياب ، وهو يلهو وينفق فى الاعياد . هذا حسن جداً ، ولكن يوجد نوعان من البأساء ، وهما : البأساء الجسمانية التى تتمثل فى عدم كفاية الدخل المالى وفى عدم الشروط الجوهرية للاحتفاظ بالحياة البدنية ونموها والبأساء العقلية والخلقية التى تتمثل فى الجهل وفى عدم الكرامة الخطر على حياة النفس.

لا ريب فى أن البأساء البدنية يحس بها العامل بهيئة اكثر سرعة ، لكونها أشد ظهوراً وهي تثير الشفقة اكثر من غيرها ، ومن ذلك تأتى الاحتياطات التى تتخذ لصالح منزل الفلاح وصحته واقتصاده . ومن ذلك ايضاً تأتى المحتويات العادية لشكاياته . . وللخطب المخصصة له ، ليس هذا جديداً ، ولكنه موضوع نال أصوات جميع خطب العرش منذ بدء حياتنا النيابية . . . نحن لا نألم بآلام مختلفة يمكن ان تعالج متفرقة ، ولكنه ألم أساسى ، وهو انحطاط مستوى حياة السواد الاعظم من سكان الاقاليم الى حد يجرح كل شعور انسانى ، ويشين شهرة الوطن المصري . ان الشعب المصرى لا يتألف فى الواقع من مائة وستين ألفاً أو من مائتى ألف شخص ذوى سعة نسبية (١)

ينبغى ان يقصد ايضاً من انحطاط مستوى الحياة البأساء الخلقية ، وهى التى يلحوقها

---

(١) على الشمسى باشا ، خطبته فى مجلس النواب ؛ ديسمبر سنه ١٩٣٩

منابع الحياة البشرية نفسها تكون أثقل نتائج بالنسبة إلى الفرد كما هي بالنسبة الى المجموعة والفلاح مزود من هذه البأساء بغزارة : فجهله ، وعدم ادراكه ، وفظاظته ، ووضاعته تحت درجة صفوة متطورة مهذبة هي اكثر مأساوية من فقره .

وكونه لا يشعر بهذه البأساء العظيمة ليس سببًا في ان تكون أقل حظًا بالقدر ، بل الامر على العكس ، فحين يتألم منها اكثر ، وحين يدركها ادراكا تامًا ، عند ذلك سيبتدىء خلاصه ، وبالإجمال : إن عدم مدنيته ، وعدم تربيته ، وسوء معرفة الذين يستطيعون إنهاضه ، وعدم التثامهم معه ، وفى اكثر الاحايين أيضًا احتقارهم إياه وعدم اكتراثهم به ، هذا هو الشقاء .

ان اكثر الاحتياطات الرسمية مثلا قد فكرت فيها مكاتب جد بعيدة عن الفلاحين وحققها موظفون ليس لديهم من الريفية شىء . واذًا ، فسواء أكانت ترمى الى الصحة أم الى التعليم ، والى الزراعة ام الى العدالة ، فانها ترتبط بنظرية أو بمحاكاة بلد آخر اكثر من ارتباطها بالواقع الدقيق ، وهى لا تعني بالعقلية القروية ، وانما تعنى بمثل أعلى أو برسم . هى تتدخل فى أشياء كثيرة وتفرض على الفلاح بطريقة جافة وأمريه ، وهى تلتصق عليه من الخارج دون ان تلحق نفسه ودون ان توقظ معونته الى حد يجعله لا يستطيع أن يصدق رفق الحكومة الذى هو مع ذلك أمر واقعى فيظل في بأسائه .

وهذا يمكن أن يشرح تلك السلسلة المدهشة من الإخفافات التى تجعل المتشائمين يقولون : ليس يرجى شىء مع الفلاحين . ومع ذلك فالمجهودات المبادهة الخاصة التى هى أقل غنى وأشد ضيقا ـ ونحن نتكلم عن تجربة ـ قد عرفت كيف تربح ثقة الفلاح ، لانها تعمل معه لا له فحسب ، ولانها تنصح ولا تقهر ، وتعد ولا تهدد ، وقد نالت نتائج فاخرة رغم ذلك الضجر الذى لا محيص عنه .

هكذا كانت مؤسسات الجمعية الملكية الزراعية التى ذكرناها فى الفصل السابق والتي تمت فى ديسمبر سنة ١٩٤١ بانشاء مركز اجتماعى .

وكذلك تلك المحاولة السعيدة التى جربت فى عزبة كبرى من عزب البحيرة مساحتها ١٦٠٠ فدان) حيث لم يكتف مالكها ، وهو اغريقي بأن يبنى لقروييه منازل جميلة بالآجروب ( الاسمنت ) المسلح ( يتكلف الواحد منها ١٢٠ جنيها ) فكان يستقدم كل أسبوع من المدينة طبيبين أحدهما للصحة العامة ، والآخر للاسنان ، وأنشأ مدرسة نموذجية وعلى الاخص عين مسعفة اجتماعية . وهذه الشابة المصرية، وهى أولى خريجات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالاسكندرية ، لاتقيم فى (فيلا) المالك أو فى منزل الناظر ، ولكن على مقربة من الفلاحين ومن المدرسة فى غرفة صغيرة صيرتها جميلة وفى الساعة الثامنة توزع الادوية مجانا ، وفى التاسعة تقوم بالزيارة الصحية للمدرسة ، بعد ذلك تذهب إلى المنازل متعقبة فى رقة سوء النظافة والهمجية . وقد أعدت لكل أسرة بطاقة ، لتستطيع بهذا أن تلاحظ التقدم ، وهى تجمع الفلاحات الشابات، لتلقى عليهن دروسا فى العناية بالاطفال وفى الخياطة . وفى المساء تجمع الرجال ، لتقص عليهم قصصا وتعلمهم كيف يسرون عن أنفسهم . فبعد مرور سنة بفضل استمرار هذه الخدمة وقربها ، أصبح نساء ( العزبة ) يستحممن كل أسبوع بعد أن كن لايستحممن الا مرة كل عام ، وذلك لان درية لم تلق عليهن خطبا فى أحواض الحمامات ولا فى ( الدوش ) ، وانما قد استعملت ماتملكه كل فلاحة فى منزلها ، وهو : ( الطشت والحلة والكوز ) .

لنشر أيضا إلى ذلك المثل الجديد بالملاحظة وان كان أشد قدما ، وهو مثل ( أبعدية ) فى مركز السنبلاوين فناظرها - وهو ألزامى من جنس قروى قوى يعيش في تلك ( الابعدية ) ويشتغل فيها ترافقه زوجته - قد خلق من هذه الضيعة االتي هي ٤٠٠ فدان مستغلة فى الزراعة المباشرة ، جنة فى النظام وفي الصحة .

الفلاحون قاطنون فى ٣٦ منزلا تختلف كبرا وصغرا حسب عدد الاولاد ، وهى مبنية بالآجر ، وسقفها بالخشب وداخلها يطلى بالجص فى كل سنة . ولا يوضع شيء فوق السقف . ولكن كل أسرة تتصرف فى قطعة من الارض مجاورة وهي عبارة عن مربع محدود بخط نظرى يكدس فيه الخشب والسماد ، فلا ينتج من ذلك جور على الغير .

كل واحد من العمال يتقاضى من ٣ قروش الى ٤ ½ فى اليوم ، وهو أجر يزيد عن أجور الممتلكات المجاورة ، وقد منحوا فدانا أو فدانين لحاجاتهم من الذرة والبرسيم لان كل أسرة تقريبا تمتلك حمارا وماعزة أو عجلا أو جاموسة ، وفى كل عام يرتدى جميع هؤلاء السكان مرة ملابس جديدة على حساب المالك ، ولذلك يكلفه ٧٠ جنيها تقريبا ، وهذه ( الجلاليب ) لاتعطى كيفما اتفق ، ولكن باختيار جد شخصى عن طريق زوجة الناظر حسب قامة كل واحد وذوقه .

وفى العيد الاكبر يجرى توزيع عام للحم ، فيتسلم كل واحد ٢ ( كيلو ) تقريبا ، وذلك يتكلف حوالى ٤٠ جنيها وفوق ذلك يقدم الدهن إلى الذين ليس عندهم جاموس . وكذلك يجرى تقسيم فواكه من الحديقة عدة مرات كل عام . ولكل طفل يولد حديثا تقدم أهبة من الملابس الضرورية .

وعندما يكون الفلاح مستدينا يقدم اليه الناظر مايلزمه بدون ان يخدعه ثم يستوفى حقه على أثر ذلك من أيام عمله . أما الماء الصالح فهو محقق للجميع بوساطة ( طلمبة ) مثبتة عند مدخل ( العزبة ) وهناك حوالى ١٢ مرحاضا صحيا و ( دوشا ) مبنية الى جانب المسجد ، ذلك المسجد الجميل الذى بناه المالك المسيحى وعين له إماما على نفقته يجمع رجال العزبة والعزب المحيطة بها . ولقد أضيف اليه « كتاب » ظل حتي الغي عند افتتاح مدرسة الزامية في القرية المجاورة لها .

وعندما يمرض الفلاح يعالجه الناظر الذى قد صار بالعادة دكتورا بعض الشيء أو يرسله الى طبيب ميت غمر الذى يتقاضى راتبا معينا . ولقد كانت زوجة هذا الناظر المحسن نفسها تعالجهم و تغسل لهم أعينهم، وتعطيهم ملابس وتعلمهم عادات. انها كانت دائما حاضرة بينهم ، وقد ظلت على هذه الحال ٢٤ سنة الى جانب زوجها .

والفلاحون يعرفون كيف يحفظون الجميل ، فعندما علموا — بوساطة حيل صبيانية رغم الغموض الذى احيط به الامر — انها مريضة بالقاهرة مرضا خطيرا ، تكدس ٣٠ رجلا فى سيارتين وارتحلوا الى المستشفى ، فظن من فيه أنها مظاهرة ، وفى الواقع انها كانت مظاهرة ألم حينما رأوا ناظرهم العزيز وأولاده عائدين من المقبرة يرتدون الملابس السوداء . وفى ( العزبة ) وما يجاورها كان الحداد آليا بقدر ما كان عاما . ولقد تركت هذه الام لابنتها مثلا تسير على منواله . . وديعة باسمة متحدثة بالعربية جيدا ، وينبغى ان يرى المرء كم أن اولئك الذين لا يحبهم أحد يحبون هذه الفتاة .

لم يفتقر المالك ولا الناظر بسبب هذه العدالة الاجتماعية التى يستعملانها ، فالضيعة لا تزال احدى ضيعات مصر الاكثر انتاجا ، ومنتجاتها تنال الجوائز فى المعارض الزراعية .

وهكذا ايضا الابتكار الذى استحدثته لشغل العطلة خمس فتيات مصريات من قلوصنة ( بالوجه القبلى ) . قالت الراوية التى نحن نترجم تقريرها [1] : ( ان ابنتى عمي وأختى وأنا قد أنشأنا مدرستنا الصغيرة فى أوائل يوليه سنة ١٩٣٣ اذ كانت مدرسة الحكومة بعيدة عن القرية بعدا شاسعا ، وكانت فيما وراء مزلقان خطر للسكة الحديدية .

---

(١) نشرة العاملين الاجتماعيين : مدرسة ريفية صيفية .

كان المـكان المؤلف من حجرتين أعارتنا اياهـا سيدة لطيفة يوجد في وسط البـلد ، وعندما افتتحت المدرسة كانت المواد المدرسية لا تزال غير كافية ، ورغم ذلك بدأنا فى العمل وتلقينا ستين طفلا ، أكثرهم بنات تتراوح أعمارهن بين ست سنوات وسبع عشرة سنة ، فقسمناهم الى خمس طوائف ، وكنـا نحتفظ بهم من الساعة السابعة صباحا الى الاولى بعد الظهر . وفي المبدأ كانت الطاعة شاقة ، ولـكن النظام لم يلبث أن ساد قليلا قليلا . كنا نعـلم المطالعة والخط وبعض الاشغال اليدوية والالعاب ،وكان نداء الاسماء يحدث في كل صباح .

وبوساطة جوائز المواظبة وصلنا الى نسبة ٧٠ ٪ فى الحضور . وفى السنة التالية عندما كان لدينا ١٧٠ مقيدا كانت النسبة ٨٠ ٪

ولقد أحرزنا تقدمات محسوسة فى المطالعة والخط ، وأكثرمنها في الصحة ، والحلى التقليدية قد اختفت ، والوجوه كانت تغسل فى كل صباح ، والشعر صار نظيفا ، وطرد الذباب أصبح منتظما وهكذا . . .

وفى كل يوم نضع قطرة في أعين الاطفال . وأشدهم مرضا كان يرسل إلى طبيب العيون . وفي يوم الجمعة ولو أنه ليس هناك دروس ،كان الاطفال يأتون الى التفتيش الصحى ، وكان كل واحد منهم يتسلم قطعة من الصابون وسائلا لتنظيف الرأس .

وفي دروس الرسم المعطاة للغلمان ، كان علينا أن نعلمهم كيف يميزون الالوان ، وفى دروس الخياطة للفتيات علمناهن تفصيل ( الفساتين ) .

ولقد كان تنظيم اللعب فى المبدأ شديد الصعوبة ، ولـكن الاطفال قد انتهوا بأن فهموه وطبقوا عليه القواعد.

دامت هذه المحاولة ثلاثة أعوام، ولكنها لسوء الحظ انقطعت برحيل اللواتى ابتدأنها .

إن معلمى المدارس فيما يختص بتلاميذهم ، وبعض الملاك فيما يختص بشركائهم أو بمستأجريهم يعترفون بأن تقدم الفلاحين وغباوتهم يتعلقان بخططهم هم ، على أن بعضهم ينشغل باخلاص بهذه الانسانية ، والمقالات المتزايدة باطراد فى الصحف المصرية توضح ذلك جيدا ، وكذلك إنتاج رواية « عاصفة على الريف » السينمائية التى توجد فيها مشكلة الفلاح ورؤسائه مبسوطة بشجاعة ، ولكن ألا يمكن مع ذلك التحدث عن خيانة الصفوة المستنيرة .

أعرضت هذه الصفوة عن الجماهير ، واحتفظت لنفسها وللسياسة والادب أو لأوروبا بذكائها ومدنيتها وثقافتها ومالها وفقدت الاخلاص . وآخرون يقولون : انها فقدت الوطنية .

على بعد بدون ريب ، ومن وقت الى آخر كانت تثير محامد الفلاح الزراعية ، ولكنها لم تعمل له شيئا هاما ، وموضع التماس بين الحكام وبين هذا الجمهور ينم عن شيء مسرحي ، ونحن نعلم أن المسرح ليس هو الواقع . ولقد استطاع أحد النواب حديثا أن يعلن فى المجلس ما يأتى :

« عندنا حينما يزور أحد رؤساء مجلس الوزراء قرية ما يسبقه اليها حرس مكون من ٣٠٠ جندى تقريبا ، وهذا فضلا عن الضباط وعن عدد ضخم من كبار الموظفين ، وفى مثل هذه الأحوال لا يستطيع أن يختلط بالقرويين ولا أن يعرف حاجاتهم » (١) ثم دعا النائب المحترم الوزراء الى أن يشاهدوا بأنفسهم حالة الشعب .

والفلاح — كطفل مهجور كبر بدون تفكير وبدون معرفة — قد بقى (فى

(١) عبد الحليم ابو سيف راضى جلسة ٧ ابريل ١٩٤١

الارض ) والارض منعته من النزول أخفض من ذلك واحتفظت به ، وسندته ، ولكن الرفع ليس من وظائفها .

واذا ، فالامر يتعلق في هذا الرجل وفى هذا الشعب بإثارة الحياة البشرية أو بإيقاظها

هذا هو دور الصفوة ، وقبل كل شيء دور الذين لهم من تلك الصفوة فى الحقول منافع . نحن نقصد الملاك والمهندسين الزراعيين وأولئك الذين يسيرون فى الارياف أو يعيشون فيها لأعمالهم من : التجار ومستخدمى المصارف والموظفين ، ولو أنها مثلت دورها لما كان لها مع القرويين صلات اقتصادية أو أدبيه أو سياسية فحسب ، ولكن كان يوجد احتكاك برىء بين رجل ورجل . وتلك الاحتكاكات وحدها هي التى ترفع . ولقد استطعنا أن نلاحظ كم أن زيارات بسيطة من جانب الأعيان أو المدنيين لمدارسنا القروية اذا كانت مطبوعة بطابع المحبة والعناية تقوى القرويين عندما يأتى بعض السادة والسيدات اليهم ومن أجلهم .

هذه هي مهمة المدرسين ورجال الدين بمقتضى وظائفهم اذا أمكن أن يقال ذلك فهم يتغلغلون فى الجماهير أكثر من غيرهم . وهكذا كان الذين يسهلون عملهم يبدون أذكى أنواع الوطنية ، ونساء الملاك وبناتهم هن مدعوات بنفس الطريقة الى المهمة دعوة خاصة ، ففتاة واحدة من بنات إحدى الأسر الكبيرة ـ اذا انشغلت بالشعب أثناء قضائها عطلتها المدرسية في القرية ـ كافية لأن تجمع كل فلاحات ( العزبة ) . وفى كل مساء تجلس بينهن ساردة عليهن قصصا لتعليمهن ورفعهن ، هذه هى النسائية المنتجة .

يتعلق الأمر إجمالا بمزاولة تحقيق عمل من أعمال التربية ، وهو مسألة فهم وخدمة شخصية أكثر منه مسألة لجان وخطب ومراسيم .

ان عقلية اجتماعية وروحانية من جانب الصفوة - مادامت هى التى يجب أن تبدأ - تستطيع وحدها أن توقظ دون أن تهيج ، وأن تساعد دون أن تستبدل ، وأن تحرر دون أن تقتلع الجذور .

ونحن لا نستطيع أن نختتم بأحسن من نص « بيوس » الحادى عشر العظيم الذى يلائمنا بنوع خاص ، وهو :

« ينبغى لكم أن تعيروا العامل مساعدة مادية ودينية : مساعدة مادية عاملين على ألا تتحقق لصالحه العدالة الخاصة المتبادلة فحسب ، بل العدالة الاجتماعية أيضا ، أى انه يستفيد من تلك المؤسسات التى ترمى الى تحسين حالة طبقة الصعاليك ، ومساعدة دينية محققين له المعونات الدينية التى بدونها يحيا مغمورا فى مادية تصيره وحشا وتحط من قدره ... إنهم ملايين من الكائنات البشرية ، أولئك الذين يعيشون غالبا فى حالة محزنة وبائسة الى حد يجعلهم لايستمتعون حتى بأقل قدر ممكن من النعمة الضرورية لحفظ الكرامة الانسانية . «١»

---

«١» رسالة بابوية الى جماعة أساقفة الميكسيك فى ٢٨ مارس سنة ١٩٣٧ . فقرة عن القرويين ...

# ملحقـــــــــات

## - ١ -

### ملاحظات على الحداد

### (١) أخلاق وعادات

اعتاد المسيحيون في عيدى الميلاد والفصح ، والمسلمون فى عيديهم ، الاصغر والأكبر أن يذهبوا الى المقابر للترحم على قبور موتاهم ، وهم يمكثون فيها دون ضجر يومين أو ثلاثة ، وفي هذه الايام تبدو المقابر فى مظاهر الاسواق : فالاسر تصل بدون انقطاع ، والصغار والكبار يجتمعون هناك ، والجمل يستولى عليه لنقل القوت والفراش ولوازم المطبخ والصناديق . وأحيانا ينبغى اجتياز النيل فيتكدس الجميع بدون نظام فى سفن مثقلة الى حد الغرق ، والاطفال المرتدون جدد الملابس يسعدون بهذا السفر ، والنساء يولولن . وحينما يزرن للمرة الاولى بعد الدفن المقبرة ، يصرخن بآلامهن مناديات ميتهن ، وبعضهن يصبغن وجوههن بلون أزرق ويلوحن بمناديلهن . ولقد رأيت عجائز لايكدن يستطعن المشى حطمتهن السن والعاهات ، يجرجرن أنفسهن لأداء حجهن الجنائزى الذى لايستطيع شىء أن يعفيهن منه ، وقد لاتعود أولئك البائسات من ذلك الحج .

الدم يسيل على القبور من تلك الضحايا المقدمة التى توزع لحومها على الفقراء . وهذه القرابين وتلك الصدقات تهدىء أرواح الموتى . والمعز والضأن اذ تشعر بقرب نهايتها تصيح من يأسها . وفي الشمس الساطعة والعثير المثار وفى كل هذا الهرج للجماهير يسود مع ذلك جو من السرور : فهناك تجار متنقلون يعرضون منتجاتهم المشهية ، ومقاه تفتح ، وأراجيح تهتز وتثير شهوة الاطلاع لدى الصبية ، ومع ذلك فان الأسر تتفرق فتتجه كل واحدة منها نحو موتاها . الجانب الأعلى من القبور مبنى على صورة قبة أو صورة غرفة للسكن ، وهذا هو الموضع الذى يستقر فيه المستقرون ، فيبكون ساعات وينامون . سعداء أولئك الموتى الذين يذكرون . وأسعد منهم الذين يترحم عليهم .

وفى القرى حينما يتوفى أحد الناس توجد دائما حجرة ( منضرة ) تقدم فيها التعازى الى أسرة المتوفى . وبينما يكون الموضع المعد للنساء مليئا بالأنين ينتظر الرجال ، متجهمين صامتين ، زائريهم ، والجميع ينهضون عند دخول القادم الجديد ، وهنا يتمنى الداخل قائلا « البقية فى حياتك » أى ( أرجو لك أن تعيش بقدر ما فى الامكان ) فيجيبه بقوله : « البقاء لله » أى ( البقاء صفة من صفات الله ) . وهنا يجلسون بدون حديث كما لو كان المرء قد ذهب يبحث في أعماق نفسه عن الكلمة الملائمة ، ثم يقطع الصمت فيتلو القادم الجديد حكما أو أمثالا أو نصوصا من الكتاب المقدس ، أو مواعظ صغيرة عن الموت الغير القابل للتجنب ، وعن الاذعان لارادة الله ، وعن حياة المتوفي الطاهرة ، وعن الثواب الذى وعد به الأخيار ، وعن الشجاعة التى يجب أن يبديها الرجل في حداده . وهنا تدعو الحكمة حكمة أخرى ، وتوقظ القصة كالصدى قصة ثانية ، فتنحل الالسنة من عقالها ، وفصحاء المتحدثين يبدون قيم مواهبهم ، انه من المدهش أن يرى المرء كم ان الناس يتبادلون فى مناسبة الحداد والعواطف الحسنة فلكى يؤدى أحدهم التعزية لايخشى أن يسير ثلاث ساعات ، ولا أن يفقد يوما من أيام عمله . الأصدقاء يسهرون مع الأسرة ويحملون اليها المعونة بحضورهم ، والمساعدة المشجعة بجميع خدماتهم ، ذلك واجب لا يقصر فيه أحد . الموت هو الموحد الاكبر للمستويات ، وهو أحد مراكز الجاذبية ، وعنده تنمحى فروق الديانات ، وتقترب طبقات الهيئة الاجتماعية : فيتآخى المسلمون والمسيحيون فى ذكرى الموت ، ويجتمع الأثرياء والفقراء حول القبر .

المنيا　　　　　　　　　　فيلير اليسوعى

# ولولة على شاب

## - ٢ -

١) يا ناس دا الغايب له حبيب وحبيب
يا ناس دا الغايب له حبيب خلاه فى القهر
قضى حياته فى دموع ونحيب
وجرح قلبه فى يوم مرزى الصبر

٢) يا ناس دا الغايب له حبيب ينوح
ياعينى يا اللى رحت زى الحشيش الاخضر
وقلبه فى يوم الشوم مجروح
وزى الحمامة اللى ريشها صغير

٣) قالوا مريض دخلت عشان ألاقيه
لقيته مريض والمرض شاف غرضه فيه
لقيته غايب عن وعيه والصراخ حواليه
حتى الطبيب لما شافه مارضيش يداويه

٤) آه ياريتهم كانوا يتباعوا فى السوق و نلقاهم
يا ريتهم كانوا فى السوق مع الدلال
ويقولوا تعالى اشتريهم انتُ يا اللى عاوزاهم
ويقول تعالى اشتريهم يا اللى مامعكيش عيال

٥) ان طال غيابى كسروا اقلامى
إن طال غيابى كسروا قلمى
وتتكسر حتى الدوايا يا أعز أولادى
حتى الدوايا نكسرها يا نضرى

٦) ساعة خبر موته لبست الفستان بالمندار
ساعة خبر موته قلبوا لى فستانى
وعقل ست البيت من دماغها طار
وعقل ست البيت ما رجع تانى

٧) طريق الكنيسة أغطيها بالورد
طريق الكنيسة أغطيها بالياسمين
يا ريتهم يجونى ليلة الحد
يا ريتهم يجونى فى عيد الخمسين

٨) يا حبايبى يا اللى قاعدين جنبى
يا حبايبى يا اللى قاعدين جارى
أنا مليان وجع ولا حد يعلم بى
أنا مليان وجع ولا حد بى دارى

٩) كنت سليم واللى جرالك ايه ياترى انضربت فى الليل ولاحصلك ايه
لما قالوا مريض دخلت حداه لقيت العقل الزكى فقد معناه

١٠) انت عملت ايه ساعة طلوع الروح أنا كنت بسف القندله باللوح
انت عملت ايه ساعة طلوع روحى أنا كنت بسف القندله بلوحى

جمع هذه الولولة من بردنوها اد .. توفيق سنة ١٩٤١ ، وقد ترجمناها بشيء من التصرف ألجأتنا اليه اللغة العامية ، من ناحية ، وملاحظة القوافى من ناحية أخرى .

## شرح المقاطع

(١) مرارة الفراق

(٢) الاسف على شباب المتوفى

(٣) لوحة مؤثرة تمثل المحتضر ـ وقد صارت كل وسائل العقل البشرى فى قنوط ـ مبكيا عليه من أهله . ان الصرخات الحادة الفاجعة هى عند نساء مصر العليا التعبيرات الحقيقية لآلامهن .

(٤) المتوفى هو الولد الوحيد لأمه . . . ولكى تواسى الباكية قليلا هذه الام تعبر عن الرغبة الغير القابلة للتحقيق ، وهى أن ترى الاطفال تباع فى السوق ، اذ التبنى هو تسرب أجنبى الى مصر ، وقد ظل الى أيامنا غير معروف فى الصعيد حتى عند المسيحيين ، وهو محظور في الشريعة الاسلامية

(٥) ان القلم والمحبرة هما ذكريان نفيستان عند أم المتوفى . أتحطمها ؟ أى شيء أكثر هما من هذا لقلبها المعذب ؟

(٦) فى هذا المقطع تصف الباكية الحالة الغير العادية لدى الام عند إخبارها

بوفاة ابنها . انها قد قلبت كيانها الى حد أنها لم تعد تعرف كيف ترتدى فستانها .

(٧) ان أيام الآحاد والأعياد لدى نساء مصر العليا المسيحيات هي أيام ذكريات للموتى ، فهن - كعلامة من علامات الحداد - يمتنعن عن الذهاب الى الكنيسة أحيانا سنوات عدة . وفى عيدى الميلاد والفصح تكون الكنائس مقفرة منهن . وعلى العكس من ذلك تأتي سحب من النساء يعكرن سلام المقبرة بصرخاتهن الحادة . ولقد تمسحت هذه العادة الوثنية - اذا صح هذا التعبير - بظاهرة توزيع الصدقات على الفقراء ( كالفطائر واللحم الخ ) لراحة أرواح الموتى .

(٨) تعارض بين حالة المحتضر وصحة الحاضرين .

(٩) ان الباكية الراغبة دائما فى اثارة ألم سامعاتها تسأل المتوفى عن تفاصيل احتضاره .

(١٠) القندلة نبات شديد المرارة ، وهل توجد ساعة أمر من ساعة الاحتضار؟

# مراجع

## - ٢ -

لقد بينا فى الكتاب المستندات التى تؤيد هذه النقطة أو تلك ، وهذه المراجع النقدية والعملية الآتية التى لا نذكر منها إلا المصادر الأساسية قد اردنا ان تنحصر فى الفلاح فى ثلاث برهات من التاريخ وهي :

### (١) الفلاح القديم

ويلكينسون ( س . جاردنير ) . ـ أخلاق المصريين القدماء وعاداتهم . طبعة جديدة راجعها وأصلحها س . بورش ، لندن ، موريه سنة ١٨٧٨ ثلاثة مجلدات من القطع الثمانى ، كل مجلد ٥٠٠ صفحة ، وهو مصور . راجع على الاخص الفصل الرابع عن الحياة الخاصة ، والفصل الحادى عشر عن الزراعة ، والخامس عشر عن الحفلات الشعبية

مونتيه ( بيير ) . ـ مناظر الحياة الخاصة في المقابر المصرية في الامبراطورية القديمة، ستراسبور ، العدد الرابع والعشرون من مطبوعات كلية الآداب سنة ١٩٢٥ من القطع الثمانى ، ١٨ صفحة مقدمة و٤٣٩ أصل وبه ٧٢ صورة .

انظر ما يتعلق بحياة الشعب

هيرودوت . ـ تاريخ « الكتاب الثانى » نص أثبته وترجمه ف . ا . ليجران باريس ، مجموعة جامعات فرانسا طبعات الآداب الجميلة سنة ١٩٣٦ من القطع الاثنى عشرى ، ١٨١ صفحة .

والمائة الاولى من هذا الكتاب الثانى ضرورية لمن يريد ان يرى فلاحي الماضي بطريقة اخرى غير طريقة الصور البارزة .

هارڤان ( فيرناند ) . ـ الزراعة فى مصر القديمة ، باريس ، رسالة ، سنة ١٩٢٣ من القطع الثمانى ٣٣٢ صفحة و به ٧٧ صورة .

(٢) الفلاح منذ مائة سنة .

فى وصف مصر ، مجموعة ملاحظات و بحوث قد اجريت فى مصر إبان حملة الجيش الفرنسى ، باريس يانكوك ١٨٢١-١٨٢٩ ، الطبعة الثانية فى ٢٦ مجلداً من القطع الثمانى

انظر ما يلى :

جيرار ( م . ب . س ) مذكرة عن زراعة مصر وصناعتها وتجارتها .

تختص المائتان الأوليان من صفحاتها بالزراعة . ويوجد هذا المجلد فى سلسلة الدول الحديثة وهو المجلد الثانى .

شابترول دى فولفيك . محاولة عن أخلاق سكان مصر المحدَثين . وهو المجلد السادس من السلسلة السابقة صفحة ٣٤٢ .

لان ( س . و . ) . ـ اخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم ، كتب في مصر فيما بين سنتى ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥ لندن ، جاردنير ، ١٨٩٥ من القطع الثمانى ، ٥١ صفحة و به صور . راجع فى هذين المؤلفين الاخيرين ما يتعلق بالفلاح

( ٣ ) الفلاح العصرى

سنتبع هنا النظام الزمنى للدراسات التى ظهرت وسنذكر منها كل مانعرفه وهى ذات قيم شديدة التباين كما أنها عسيرة الوجود وهى :

بيل سان جون ـ حياة القرية فى مصر مع وصف الصعيد ، لندن شابمان ١٨٥٣ ، مجلدان ٢٩٦ صفحة .

طرف من كل شيء ، وملاحظات جيدة

كلونز يجير ، مصر العليا : شعبها ومنتجاتها ، وصف لأخلاق شعب وادى النيل وعاداته وخرافاته ومشاغله ، لندن ، بلاكى ، ١٨٧٨ ، ٤٠٨ ص .

مترجم عن الالمانية مع مقدمة لـ « شو ينفورت » .

بيو . بك ( ج - ب . ) . - محادثة حول أرومة الفلاح ، القاهرة ، مجلة جمعية مصر الجيوغرافية سنة ١٨٩٩ ص ٢٠٣ - ٢٤٨ . نحاس بك ( يوسف ) . - حالة الفلاح المصرى الاقتصادية والاجتماعية ، باريس ، رسالة فى الحقوق سنة ١٩١٠ من القطع الثمانى ٢٠٠ صفحة .

ليجران ( چورج ) . - فلاح الكرنك ( مصر العليا ) . ، باريس ، جمعية الاقتصاد الاجتماعي ، سنة ١٩٠٢ ، السلسلة الثالثة ، العدد الخامس . عن عمال العالمين من القطع الثمانى ص ٢٨٩ - ٣٣٦ . دراسة فردية فخمة حسب منهج «لى بليه»

بوجيه ( شارل ) . - ملاحظات عن مصر ، الفلاح ، مجلة الجيوغرافيا التاريخية والوصفية سنة ١٩٠٦ ، ص ٣٨٨ - ٤١٥ .

صورة كاملة تقريباً و بدون بيان أصل لنص بيو « بك »

شامبيريه ( راء ول دى ) . - تحقيق عن حالة الفلاح المصرى من الوجهات الثلاث : الحياة الزراعية ، والتربية ، والصحة والاسعاف ، باريس ، شالا ميل ، سنة ١٩٠٩ ، من القطع الثمانى ٢٠٦ ص .

آراء عن السياسة الانجليزية وتقريبات سطحية بين مصر وتونس .

والتير ف . ميفيل . شىء عن الفلاح ، مجلة الخمسة عشر ، يونيو ١٩٠٩ ، لندن ص ١٠٩٣ - ١١٠٥ .

ساباتان ( ف ) . - فى بلد الفلاح . نظرة الى الوراء ، من القطع الاثنى عشرى ، ٧٢ صفحة ، مطبعة مسينا ، القاهرة بدون تاريخ

النجار ( مصطفى صادق ) . - محاولة عن الفلاح والعمل اليدوى فى مصر ليون ، بونسيه ، سنة ١٩١٣ من القطع الثمانى ، ١٠٠ صفحة .
وهو تحقيق عن مديرية المنوفية .

ويلكوكس ( س . وليم ) . - الفلاح وزوجته فى اراضى مصر الغير المزروعة القاهرة ، مجلة جمعية مصر الجيوغرافية ، يونيو ، سنة ١٩١٧ ص ١٦٧ - ١٨٨ .

ملاحظات شيقة على الفلاحة المعيرة وعلى السخرة .

بلاكمان ( وينيفريد ) ، فلاحو مصر العليا ، ديانتهم ، حياتهم الاجتماعية والصناعية اليوم وصلتها بما بقى حيا من العصور الفرعونية . لندن هاراب ، ١٩٢٧ من القطع الثمانى ، ٣٣٠ صفحة وصور عدة .

هذا الكتاب الذى يبين عنوانه الثانوى مايحتويه بيانا حسنا يروى ماراه المؤلف إبان اقامته خمس سنين بين الفلاحين .

الهلباوى ( مصطفى على ) . - فى الريف المصرى ، القاهرة بدون ناشر سنة ١٩٢٨ من القطع الاثنى عشرى ٢٠٠ صفحة .

شهادة من أحد أهالى القرى المصرية . وبه بعض بيانات نفيسة فى وسط كثير من الجمل الانشائية .

وينكلير ( هانس اليكساندر ) الفلاحون بين الماء والصحراء ، شعبيات من قرية كيمان بمصر العليا ، استوتجبار ، كوهلهامير ، ١٩٣٤ ، من القطع الثمانى ، ٢١٤ صفحة ومقدمة صفحاتها إحدى عشرة .

دراسة جنسية لقرية اتخذ سكانها الذين هم من أرومة بدوية نوع حياة الفلاحين

ابنة الشاطىء . - الريف المصرى ، القاهرة ، مكتبة الوفد سنة ١٩٣٥ من القطع لاثانى عشرى ٢٤٨ ص .

مؤلف شجاع و به معلومات ، لمعلمة خصصت نفسها لقضية الفلاح .

لودويج ( اميل ) . - النيل ، أو حياة نهر ، المجلد الثانى ، باريس ، بلون سنة ١٩٣٧ من القطع الاثنى عشرى ٢٩٣ ص وبه صور .

تاريخ مصر منظورا اليه من ناحية الفلاح ، وهذه النظرة مع الاسف قد زيفتها قليلا الأوهام والأخطاء .

كنيتيل ( جون ) . - الدكتور ابراهيم الحكيم ، ليبزيج ، برنار توشنيز ، ٣٦٠ ص . رقم ٥٢٧٥ سنة ١٩٣٧ .

تاريخ فلاح نشأ من الأرض .

توفيق الحكيم . - يوميات نائب فى الريف ، نشر فى مجلة القاهرة سنة ١٩٣٩ ١٥٤١ صفحة ترجمة ج . فييت .

ابنة الشاطىء ، قضية الفلاح ، القاهرة سنة ١٩٣٩ من القطع الاثنى عشرى ٢٣١ ص وبه صور .

# دوريات للمراجعة

## - ٣ -

### فى مصر

الدليل الإحصائى للمملكة المصرية.

التقويم السنوى للحكومة المصرية .

الاهرام

المصور .

نشرة المعهد المصرى.

نشرة الجمعية الملكية الجيوغرافية المصرية .

نشرة اتحاد الزراع المصريين ( مصر الزراعية ) .

نشرة الجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والتشريع : «مصر العصرية » .

الجريدة الرسمية للحكومة المصرية.

جورنال ديجبيت .

لابورس ايجيبسيين .

لاباترى .

زميل الفلاح .

مجلة القاهرة .

مجلة الشؤون الاجتماعية .

كل هذه النشرات تظهر فى القاهرة .

## فى فرنسا

الخطط الجيوغرافية .

خطط التاريخ الاقتصادى والاجتماعى

سجل العمل الشعبي .

فى أرض الاسلام .

قصص الشرق .

# معجم

## - ٤ -

لم نذكر فى هذه القائمة الكلمات التى لا تظهر إلا مرة واحدة أو التى هى مترجمة على أثر ظهورها فى النص وأسماء الموازين والمقاييس والمكاييل والنقود مشروحة على حدة.

إردب : انظر قائمة المكاييل

الازهر : جامعة القاهرة القرآنية الكبرى

أقة : انظر قائمة الموازين

برار : أراض مستنقعة أو مالحة

بلاص : جرة مستديرة لنقل المياه

بلغة : حذاء أصفر

بندر : عاصمة مركز أو مديرية

جاروف : مذراة من خشب

جلبية : ثوب

حلة : مرجل

دائرة : ادارة أملاك

ريس : رقيب عمال

زحافة : أداة تسوى الارض

ساقية : آلة لرفع المياه ذات عجل وقواديس

سباخ : سماد طبيعى

شادوف : آلة لرفع الماء ذات عود وتدار بالاذرعة

شونة : مستودع للغلات

صراف : من يتقاضى الضرائب

طاقية : غطاء للرأس من قماش

طبلية : مائدة مستديرة منخفضة للأكل

عريف : منشد قبطى وهو أعمى عادة

عزبة ضيعة خاصة تؤوى العمال الضروريين لاستغلالها

عمدة : حاكم القرية

فدان : انظر قائمة المقاييس

قصبية : أداة لتسوية الارض

قنطار : انظر قائمة الموازين

قيراط : انظر قائمة المقاييس

لبدة : غطاء للرأس من الصوف

مأذون : من يجرى عقـد الزواج ويحرر وثيقته للمسلمين

مأمور : حاكم المركز

مدير : حاكم إقليم

مديرية : إقليم

مركز : قسم من المديرية وعاصمته

مصطبة : مقعد مبنى مستطيل غالباً يتسع لجلوس أو نوم عدة اشخاص

معاون : مساعد رئيس الشرطة فى المركز

ملاية : مئزر كبير أسود يغطي الرأس ويلف الجسم

موال : أغنية غرامية

ناظر : مشرف على الضيعة

نبوت : عصا غليظة

نورج : آلة تدرس بها الغلال .

# المقاييس والمكاييل والموازين والعمله

## - ٥ -

**الفدان** : هو الوحدة للمساحة العقارية ، وهو يساوى ٨٣٣ ، ٤٢٠٠ متر مربع وهو ينقسم إلى ٢٤ قيراطا .

**القيراط** : هو ٣٥ ، ١٧٥ مترا .

**الاردب** : ( ١٩٨ لترا ) وهو وحدة المكاييل ، و به تباع بالجملة الغلال والفول والعدس . و إردب القمح يزن تقريباً ١٥٠ كيلو ، و إردب الذرة ١٤٠ كيلو ، والشعير ١٢٠ كيلو .

**القنطار** : هو وحدة الموازين ، وهو يوازى ٤٥ كيلو . وموازين التجزئة التى تستعمل في السوق هى اجزاء للقنطار .

**الرطل** : هو $\frac{١}{١٠٠}$ من القنطار .

**الاقة** : هي $\frac{١}{٣٦}$ من القنطار ، أى كيلو وربع تقريباً .

**الاوقية** : تساوى ٤٤ ، ٣٧ جراماً .

**الجنيه** : هو وحدة العملة وهو ينقسم الى ١٠٠ قرش أو ١٠٠٠ مليم ، و يوازى تقريباً الجنيه الاسترليني زائدا نصف ( شلن ) .

**القرش** : يؤلف العملة الاساسية فى تجارة التجزئة ، و يسمى القرش الصاغ مقابلة له بالقرش التعريفة ( ٥ مليمات ) و يمكن ان يوازن سلطانه فى الشراء بسلطان الفرنك الفرنسى .

**المليم** : هو العملة السائرة للفقير والفلاح ، وهو يكاد يشبه السولدى

﴿ تم بعون الله وقدرته ﴾

# الخطأ والصواب

| خطأ | صواب | صفحة | سطر |
|---|---|---|---|
| الوفيات | الوفايات | ٩ | ١٣ |
| لملاك | الملاك | ١١ | ٨ |
| للوحة | اللوحة | ١٤ | ٤ |
| لأرض | الأرض | ١٦ | ٣ |
| يؤنسون | يؤنسنون | ١٦ | ٥ |
| كان | كانا | ١٧ | ٥ |
| شاطيء | شاطئ | ٢٦ | ١٠ |
| بهج | بهج | ٢٨ | ٩ |
| وبالمقارنة | وبالموازنة | ٣٢ | ١٣ |
| مواز | موازنا | ٣٢ | ١٧ |
| ذو | ذوو | ٤١ | ١٨ |
| بمقتضى | وبمقتضى | ٤٢ | ١٧ |
| سيعدها | سيعيدها | ٥٤ | ٨ |
| الداخلة | الداخلية | ٥٥ | ٧ |
| يعيننا | يعنينا | ٥٥ | ١٩ |
| كثيراً | كثير | ٥٦ | ٦ |
| وهو | وهى | ٧٥ | ١٧ |
| المتسعمزون | المستعمرون | ٩٩ | ٢١ |
| الجزءَ | الجزء | ١٠٦ | ١٦ |
| تتوفر | لا تتوفر | ١١٠ | ٢٠ |
| القلاحات | الفلاحات | ١١١ | ١١ |
| ليعجالجوا | ليعالجوا | ١١٢ | ٢٠ |
| بالبهارسيا | بالبلهارسيا | ١١٣ | ٤ |
| لاسرة | الأسرة | ١١٧ | ٢ |

| خطأ | صواب | صفحة | سطر |
|---|---|---|---|
| وإذ كان | واذا كان | ١٢١ | ٥ |
| تمد | تمتد | ١٢٢ | ٢ |
| تمتلىَء | تمتلىء | ١٢٨ | ٩ |
| يفقئون | يفقئون | ١٤٠ | ١٩ |
| تتجتمع | تتجمع | ١٤٢ | ١٧ |
| لابواب | الأبواب | ١٤٨ | ٥ |
| أيدعونه | ألا يدعونه | ١٦٧ | ١٠ |
| حد | أحد | ١٧١ | ٨ |
| باديتهم | بدينهم | ١٨٣ | ١١ |
| ٢٧٩٠٠٠٤١٩٥ | ٢٧٩٠٤١٥٩ | ١٨٧ | ٩ |
| الشراء | الثراء | ١٨٧ | ١٤ |
| قتدمات | تقدمات | ١٩٠ | ٨ |
| لجماهير | الجماهير | ١٩٠ | ١٢ |
| لحمل | الحمل | ١٩١ | ٨ |
| لذاى | الذى | ١٩١ | ١٤ |
| صالغيرة | الصغيرة | ١٩١ | ١٧ |
| ١٠٠٠ | ١٠٠٠٠ | ١٩٦ | ٨ |
| ويأومرون | ويأمرون | ١٩٩ | ١ |
| الصحية | والصحية | ٢٠٠ | ٢ |
| يدرسونه | يدوسونه | ٢٠٢ | ٧ |
| يجود | يجرد | ٢٠٣ | ٤ |
| يلحوقها | يلحوقها | ٢٠٣ | ١٩ |
| الاخفافات | الاخفاقات | ٢٠٤ | ١٦ |
| ألزامى | ألزاسى | ٢٠٥ | ٢٠ |
| ولذلك | وذلك | ٢٠٦ | ٩ |

# فهرس الكتاب

